حميد يونس

# آخر أمراض الكوكب

رواية

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

# آخر
# أمراض الكوكب





# آخر
# أمراض الكوكب

**حميد يونس**

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

**الطبعة الأولى: أيار/مايو 2018 م - 1439 هـ**

**ردمك 978-9948-24-504-9**



ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae



تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

إلى فراس.... ومكتبته

**ثلاثة أصابع تمسك القلم، ولكن الجسم كله يعمل، ويتألم.**

***أمبيرتو إيكو***

# شكر وعرفان

مداد الكلمات والمشاعر، أدين بشكري وعرفاني إلى زوجتي الحبيبة، أميمة، فلولاك ولولا دعمك وصبرك عليّ لما أصبح لهذا الكتاب أثر ووجود.

كما أتوجه بخالص امتناني وتقديري إلى أخي الأكبر فراس يونس، والزميل الأعز محمد رضا، والروائي الصديق ضياء جبيلي، والناقد الدكتور حسين سرمك، والمصحّح اللغوي الدكتور عمار نعمة نغيمش.

أشكر وقوفكم إلى جانبي وتشجيعكم لي، وعلى ملاحظاتكم القيّمة وبحثكم المستفيض لجعل الرواية على ما هي عليه الآن.

## الفصل الأول

**بغداد|العراق 18 فبراير 2016**

**(1)**

- جيكا أودي إينايو.
- جيكا أودي إينايو.
- جيكا أودي إينايووو.

استيقظت هالة وطفلاها الصغيران على أثر صراخ زوجها علي معن فيما يقارب الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وجدته مستيقظاً متحفز الأعصاب، وهو يصرخ ويصرخ بينما يتفحص ما حوله باستغراب، وكأنه يتطلع إلى أرجاء الغرفة أول مرّة في حياته:

- جيكا أودي إينايو، أكمونك، جيكا أودي إينايو.

كان يصرخ بوجه زوجته بتلك الكلمات الهستيرية مراراً وتكراراً، وكأنه ينتظر منها عن ذلك جواباً. كان لصوته النبرة نفسها، ويمكن ملاحظة ذلك بكل بساطة، لكن طريقته في لفظ الكلمات، ومخارج الحروف ولكنته، تكاد توهم المقابل أنه يستعمل حبالاً صوتية جديدة عوضاً عن حبال حنجرته السابقة. وبالرغم من أن ملامح هالة لم تدلّ على استيعاب ما ينطق به إلا إنه استمر بالصراخ:

- جيكا أودي إينايو، جيكا أودي إينايو.

ارتعبت من عيني زوجها كثيراً؛ كانتا جاحظتين نـــافرتين مـــن محجريهما. تمعنت في وجهه تستجدي تفسيراً فلم تفهم منه الكثير، لم تكن نظراته ذات دلالات معينة لتشير إلى شيء منطقـــي ومفهـــوم. وبالرغم من أنه بقي يتفحص ما حوله بتوجس وارتياب، فإن عينيه لم تكونا تريان زوجته تحديداً أو الغرفة أو محيط الأشياء، بل خيّل لها أنه لم يكن ينظر في الفراغ، وقد يكون تصورها صائباً، ذلك لأنه أخـــذ الغرفة بالتفاتاته دوراناً وطوافاً.

لم تكن غرفة النوم هناك، رغم كل شيء، مميزة بأثاث أو لوحة أو ساعة جدار أو علامة فارقة، كل شيء فيها اعتيادي جداً؛ أربعـــة جُدُر وسقف واطئ الارتفاع. يتوسط مساحة المكان سرير مزدوج، وعن اليمين واليسار سريرا الطفلين والدولاب. أما الجدار المقابل فقد توسطت فوقه صورة زوجية واحدة، وعلى الأرض ثلاجة وتســـريحة ومرآة. ولم يضف إلى ذلك شيء مميز آخر، ما من أثاث إضـــافي ولا كهربائيات ولا ديكورات، سوى جُدُر مصبوغة باللون الحليبـــــي، وستارة فضفاضة مسدلة خلفهما غامقة اللون ومخرمة من الداخل.

كانت الغرفة فوضوية ومزدحمة، وتبدو مكتظة بـــالرغم مـــن اتساعها بالأشخاص الذين فيها، وربما يعود السبب إلى أنه ليس فيها شيء يمكن اعتباره في مكانه الصحيح، وكأن المكان قد شهد - في وقت سابق - كرنفالاً صاخباً؛ فهنا لعب أطفال تمـــلأ الأرضـــية، وهناك ملابس مرمية ومبعثرة، وفي زاوية أخرى هنـــاك أكيـــاس، وحفاضات، وقناني حليب فارغة مركونة تبعث شعوراً سريعاً بـــأن صاحبة هذه الغرفة قد عجزت من الحفاظ عليها بـــأدنى درجـــات اللياقة والترتيب.

كان جو الغرفة يبعث إحساساً مربكاً، وكأن الهواء انسحب أو اختفى منها.

ازدحمت مشاعر عدّة في تلك اللحظات؛ خوف، رعب، غيظ، قلق، غضب، وانبهار. فالأحداث سريعة ومشحونة، ما يجعل المرء يشكّ في أن يكون هناك ودّ قديم يربط بين هذين الزوجين.

كلاهما كان خائفاً، فقد كان علي يرتعش بلا هوادة، ولو أنه لم يلحظ الارتعاش بادئ الأمر لكون عينيه انشغلتا بأشياء أخرى، ثم أمعن النظر إلى يديه وهما يرتجفان، قلّبهما غير مرّة، وأخذ يصرخ بهما، وكأنه يتعامل مع كائنين غريبين لم يتعرف إليهما قبل هذه الليلة.

أما هالة فقد ارتبكت عندما فطنت لارتعاش زوجها، واغرورقت عيناها من دون دراية بالدموع:

- اسم الله يا عمري.. اسم الله.. لا تفزع، جاثوم قد نزل على صدرك. **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾**.

لم تنتبه، وهي تلهج بآيات القرآن بصوتها الخافت، أنها نسيت إحدى آيات سورة الفلق، بل إنها لم تفطن أن لسانها قد تلا هذه الآيات أساساً. أما ردّ فعل علي فكان أكثر منها غرابة، فما أن سمعها تنطق الآيات، حتى جفل مفزوعاً وقفز من مكانه، وأخذ ركناً في طرف السرير، وحينما دنت منه، ودلّكت فخذيه صرخ محتجّاً، وابتعد عنها كمن لدغه عقرب سامّ.

تعالى بكاء الطفلين وارتفعت حدة نشيجهما بالتناسب مع هيجان أبيهما الهستيري. كان يصرخ ويصرخ، وكذلك يصرخ

عبودي ذو الخمس سنوات ونونة ذات التسعة شهور. ارتبكت هالة، بل ارتعبت، وما كان أمامها إلا أن تتلقفهما وتهدّئ من روعيهما بتدارك غريزي، فمن الواضح من أسلوبها أنها أوجست من زوجها خيفة، وارتعبت من تصرفاته الغريبة، وتحطمت أعصابها، وبدت مرهقة ومكسورة. فعادت وترجّته من جديد، وتوسّلت إليه أن يهدأ لكن دون جدوى، وربما كانت تفترض وتقنع نفسها أن الأمر لا يتعدى أن يكون مزحة سمجة ابتكرها زوجها، وأن يكون باختلاقه هذه العبارات يحاول أن يختبر صبرها ودرجة تحملها أو شيئاً من هذا القبيل، إلا أن الافتراض بات مستبعداً عندما شاهدت الجدية التي ملأت خطوط وجهه والرهبة التي ارتسمت على محيّاه.

وفي النهاية انتصب علي وسط الغرفة، فلاحظ أن هناك أحداً آخر يقف بجانبه، فتمعن فيه جيداً فلم يجد شخصاً غريباً، ولم تكن من صورة أمامه سوى انعكاس جسمه في المرآة. توجه إلى المرآة، فنظر إليها، فانكمش على نفسه كما كان يفعل حينما يكون مرعوباً، وكذلك انكمش الانعكاس في المرآة على نفسه أيضاً، ثم تلمس وجهه كأنه يستكشفه، ففعل الانعكاس الشيء نفسه. نعم، لقد كان الانعكاس يحاكي علي معن في ما يفعله، فما الغريب في ذلك؟ وما الداعي لأن يتسمّر أمام المرآة، ويمتحن انعكاسه فيها بالإشارة والتلويح؟

جفلت هالة من تصرفاته هذه، واستفهمت:

- ماذا حدث معك يا عمري؟ أرجوك تحدث معي، ماذا حدث؟

ولكن علياً استدار، واندفع من دون سابق إنذار نحوها، وقفـــز فوقها. حاولت الفرار منه، وارتدت، وانزلقت من الحافـــة وكـــادت تقع، لكنه تداركها وجرّها إليه مجدداً. أحكم جسده على مفاصـــلها فوق السرير، وكوّر يديه حول رقبتها، وأخذ يرفعها ويقذفها مـــراراً، ولمّا يزل يردد بلغطه المبهم:

– إي كيتي كومين كايو.. جيكا أودي إينايو

لم يكن خنقها شيئاً عسيراً البتّة، فقد كانت صامتة تمامـــاً، بـــل جامدة، وكأنها قررت ألاّ تتابع الفرار، ولم تعد تعرف أي جنون هذا الذي تلبّس زوجها وحمله على جناحيه المبسوطين؟ تصنّمت بين يديه كليّاً. لم تقاوم، ولم تهرب، ولم تصارع، بل فضـــلت الاستســـلام، وكأنها ارتضت أن تكون فريسة جمود وتسجل نهايتها في هذه الليلة، وبهذه الطريقة البائسة؛ مخنوقة بين يديّ زوجها.

تلاشت بعد ذلك من حولها أصوات صـــراخ الـــزوج الهـــائج والطفلين بعد أن فقدت وعيها وأغمضت عينيها، وأصبح كل شـــيء بعيداً جداً، لم يعد هناك شيء، وما هي إلا لحظات تفصـــلها عـــن الانتقال إلى العالم الآخر، ومن حسن حظ الأسرة وتاريخها، فقد دخل مازن على حين غرّة إلى الغرفة وكسر بابها، وأبعد هالة بالقوة وأنقذها من بين يدي أخيه المرتجفتين.

## (2)

كانت ليلة استثنائية في تاريخ هذه الأسرة، ليلة ثقيلة وتعيسة، لا سيمّا الساعات الوئيدة التي قضتها هالة وأخو زوجها مازن في طوارئ المستشفى وردهاتها، فقد دخلت المستشفى كلها في حالة إنذار حقيقي إثر هيجان علي ولغته غريبة الأطوار، و لم تكن لتفلح العقاقير القوية جداً بإخماد صخبه إلا بعد ساعة كاملة سقط إثرها في سبات عميق.

و لم تفلح الحاجّة أم علي ولا وسن بإقناع مازن بمرافقتهما إلى المستشفى، فقد رفض مازن ذلك بشدّة متحججاً بمن سيبقى برفقة الأطفال إن رحل الجميع، وربما كان شعوراً جديداً ما أحسّ به مازن عندما أصدر لهم الأوامر، وكانت تلك المرّة الأولى له باعتباره مسؤولاً، ولو أنه لم يأخذ مسؤولياته على محمل الجدّ قطعاً، فقد نام بجانب أخيه، وكأنّ شيئاً لم يكن. فما دامت الأمور على ما يرام يمكنه النوم، وما أن يجدّ ما ينذر بالقلق، سيستيقظ متأهباً وهو في كامل وعيه. وبالتأكيد فإن هذا الادعاء لا يمتّ للحقيقة بشيء، فمازن يتشابه مع أخيه بكونهما يتمتعان بقدرة غير محدودة على النوم ساعة يشاءان، كيفما يشاءان، وأينما يشاءان، قيلولتهما القصيرة تحسدهما عليها حيوانات القطب الجنوبي ذات السبات الطويل، فقد يمتدّ أقصرها وفي أسوأ الحالات إلى أربع ساعات ويزيد.

ولكن نقاط الاختلاف بين الأخوين تفوق نقاط تشابههما، فمازن من جهته وسيم الطلعة، خفيف الظل، لطيف المعشر. ربما يُعاب عليه أنه لم يتحمل المسؤولية في حياته كلها، إذ كان يعمل رسمياً "عاطلاً عن العمل"، أو "سائق مخدّة" كما يحب أن يُشار إليه. متعدد

المواهب مازن، فقد سبق له وقام بجميع أنواع الأعمال والحرف؛ عمل صبّاغاً وبائعاً لملابس أطفال وعاملاً في محل مثلجات ونادلاً في مطعم، وعمل حمالاً في مخازن الشورجة، وسائقاً على سيارة أخيه، فضلاً عن مقدرته على تصليح الأجهزة الكهربائية والحاسبات والهواتف النقالة وتنصيبها. إلا أنّ حبله مع المسؤولية كان قصيراً جداً، فما أن يستقرّ في صنعة ليكسب من ورائها مالاً يكفيه لتغطيه احتياجاته ونفقاته حتى يترك العمل ويعود إلى سابق عهده، سائقاً للمخدّة، ولم يكن من الهيّن التحكم والسيطرة على أفعاله. لذلك كان يتوقع أن يصدر الصخب والهيجان من مازن لا من أخيه علي البسيط.

منذ 2006 وحتى هذه الليلة يعدّ علي معن هو المعيل الرسمي لكل أفراد الأسرة، ونقصد أفراد الأسرة زوجته والأطفال، وكذلك الحاجّة وأخاه مازن وأخته الصغرى وسن. أما أبو علي فقد توفيّ بأزمة قلبية متكررة قبل عشرة أعوام. لم يكن أبوه من النوع الذي يكترث بحالته الصحية على الإطلاق، بل كان يعدّ أيقونة بحدّ ذاته فيما يتعلق بهوس التدخين، ولا أحد يستذكر هيئته إلا ويتخيل السيجارة موضوعة بجانب فمه، لم يتخلّ عن السيجارة ولم تتخلَّ عنه حتى وفاته، ويشاع أنه توفيّ والسيجارة ما زالت مشتعلة في فمه. كان مريضاً جداً، خاصة في أيامه الأخيرة، لكنه فضّل أن يبقى عنيداً بما يتعلق بالأدوية حتى آخر أيامه. وكلما ازدادت أدويته فوق الرفّ وازدادت دواعي استخدامها، ازداد تناسيه لمواعيدها وتذرّعه بعذر جديد بعدم جدواها. توفيّ وكانت تركته مئة متر مساحة منزل في حي «أبو أقلام» في الكرّادة، وراتباً تقاعدياً عسكرياً متواضعاً بالكاد يكفي لمصاريف وسن واحتياجاتها الدراسية.

وعلى الرغم من أن العلم الحديث لمّا يثبت – حتى الآن على الأقل – دور الوراثة بهذا الخصوص، فقد ورث علي صفة عدم الاكتراث بصحته من والده بحذافيرها، وربما زاد عليها، لأن شراهته للتدخين فاقت شراهة والده وإدمانه، ومن الملاحظ أن خديّ علي قد امتُصّا إلى الداخل فأصبحا مجوّفين، وأخذ الإهمال وعدم المبالاة من أسنانه مأخذاً واضح المعالم، فكانت أسنانه تجمع بين لوني الأسود والأصفر بمزيج يدعو إلى الإزعاج، وكلما طلب منه أحد الاهتمام بأسنانه وتنظيفها، تعذّر عن ذلك وتحجج بخطأ طبيب الأسنان الذي زاره مؤخراً وأزال المينا بالخطأ، ما جعل أسنانه معيبة منذ ذلك الحين.

علي معن ذو السبعة والثلاثين عاماً، ذو طول متوسط، ووزن متوسط، وقوام وأسلوب وحياة متوسطة. لم يكن وجهه ذا سحنة قديس أو رياضي أو رجل أعمال، وقطعاً ليست من سحنات الأشخاص ذوي الوجوه الفوتوجينيك السينمائية. كان مظهره مخذولاً، بلا وسامة ولا تميّز. كان وادعاً جداً، بل يمكن اعتباره من الأشخاص الذين لا يتركون لدى المقابل أدنى انطباع. لم يستطع مع مظهره وتسريحة شعره وهندامه هذا أن يلفت الأنظار أو يجذب الانتباه في أي مناسبة أو حشد، وقد ظلمته هذه الصفة المشؤومة غاية الظلم، وصدّته زميلات كثيرات في مراهقته أو خلال دراسته الجامعية، لا لسبب أخلاقه وطباعه، بل لكون مرافقته تبعث على الاكتئاب والملل.

ولكنه لم يكن مملاً بقدر ما كان غرّاً ومرهفاً أكثر من اللزوم، فقد كان يحمل سذاجة طبيعية مجسّدة في شخص صاحبها، وكانت دموعه تنزل لأي سبب كان، ولطالما تكررت عليه نوبات من الغثيان

الصباحي حين يلمّ به خطب أو مشكلة، وكان يصدّق كل ما يُقال له، حتى وإن كان ما يُقال كذباً صارخاً يمكن أن يفوته ولا يشكك فيه، بل كان يصدّق حتى إعلانات المنظفات والمنحفّات ومساحيق التجميل والتخلص من الصلع ومشاكل العجز الجنسي التي تملأ التلفاز.

فلسفته بسيطة جداً، وتحكمه في الحياة صفتان لا ثالثة لهما؛ القدر والصدفة، حتى أن زواجه لم يكن مخططاً أو مرسوماً بل جاء عن طريق القدر والصدفة لا غير. ذلك أن زميله في العمل قد اشتكى له من كثرة الأوباش وقليلي النسب المتقدمين إلى خطبة أخت زوجته، فسأله علي ببراءة من باب المجاملة والاسترسال بالحديث إن كان اعتراضه على الأوباش فقط أم أن سقف تطلعات الأهل عالية جداً؟ فأجابه الزميل بالنفي، وحينها تشجع علي وقال:

- وهل تتشرف الأسرة بي إن أصبحت عديلاً لك أو تعترض بعذر آخر وحجة أخرى؟
- ماذا تقصد؟
- ماذا تقول إن تقدمت لخطبة أخت زوجتك؟

وهكذا زكّاه زميله أمام أسرة هالة وقرئت الفاتحة وعُقد القران وتزوّجها سريعاً بلا مواعدات وزيارات ولقاءات وهدايا منذ زهاء سبع سنوات.

أما في ما يخص نطاق عمله، فإن الأمر لم يختلف كثيراً، ولو أن أقرانه في القسم يعترفون بتفانيه وهمّته بعض الوقت، لكنهم أيضاً لم يكونوا يقدّرونه حق قدره، و لم يمنحوه الاحترام الذي يستحقه. وعلى الرغم من عدم التقدير والاحترام، ومن التضحيات المستمرة بالوقت

والدخل والطاقة، كان لا يتوقع الكثير، وكأنه يعرف ما ينقصه، فلم يشك يوماً، ولم يتلكأ أو يقصر أو يتململ، لا في عمله ولا في حياته الشخصية.

كان يعمل محاضراً في جامعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بعقد مؤقت، وتقتصر وظيفته هذه على إلقاء محاضرات روتينية على موظفي دوائر الدولة عن استعمال البرمجيات والشبكات والمواقع، وتتضمن كذلك دورات صيانة الحاسبات وورشات عمل مختلفة عن مواضيع كهذه، وكان عمله بحدّ ذاته سهلاً مريحاً لكونه يمنحه حريّة المجيء والمغادرة، ولا يتطلب منه مجهوداً بدنياً ولا يستلزم تركيزاً وثيقاً، ولا يتضمن آلية معقدة، ولا يشترط التزاماً أو ارتباطاً مباشراً مع أرباب العمل، إلا أن قلة المردود المادي من هذا العقد المؤقت حتّم عليه العمل سائقاً على سيارة أجرة أوقات المساء.

كانت حياته – إلى حدّ ما – على درجة كبيرة من البساطة والرتابة، وكل تفصيل فيها مكرر ومعاد ورتيب. لم يكن يمتعض ويشكو من ذلك، بل على العكس، كان عاشقاً لأسلوب حياته ومقتنعاً بطريقة عيشه، وكان يستمتع باجترار المكان نفسه والزمان المألوف نفسه. ولطالما انتقدته أسرته فيما بينها وشكت من طباعه، إلا أنها لم تبيّن له ما تشعر به. ولهذا السبب نفسه، كان وقع الاضطراب الذي خلّفه علي في تلك الليلة كبيراً، فقد أرعبهم وأربك حساباتهم، ولكن ما حدث قد حدث، ولا أحد يمتلك القدرة على إعادة عقارب الساعة إلى الخلف، ولا إرجاع السهم بعد أن انطلق من قوسه.

وكان لهالة حصّة مخصوصة ونصيب لا يُستهان به من الإرباك والقلق، فقد بقيت يقظة في الردهة بالرغم من افتراشها الأرض بجانب

السرير. وكانت تشعر أن شيئاً انكسر في داخلها وانفصل عنها، وكان واضحاً فيها ذلك أشد الوضوح، فقد خبت من وجهها نضارة الصبا، وجعلتها حالتها المتضعضعة المؤسفة تبدو هشّة كزجاجة، أو كورق معجم قديم متهالك.

يمكن اعتبار هالة جميلة إلى حدٍّ ما، ليست فاتنة الجمال لكنها أخذت من الجمال الكثير من المزايا؛ كانت نضرة غضّة رقيقة وذات بشرة تحيل إلى سمرة خفيفة، قصيرة نسبياً، مكتنزة وناهدة الصدر، ويمكن أن يقال كذلك عنها إن معشرها السهل وطلعتها العفوية أضافت سحراً وملوحة خلاّبة إلى ملامحها. أما في ما يخص عينيها الواسعتين وحاجبيها الرفيعين وتقاسيم وجهها الدقيقة فقد توافقن ليهبنها شكل المرأة البغدادية الأمثل.

ولم يكن عزاء لها جمالها ولا تقاسيم وجهها بعد ما أصابها من انكسار، وقد كانت تمسك الهاتف النقال وتفكر بمراسلة والدها في كل مرّة لكنها تتردد وتغيّر رأيها، تتوقف، تأخذ نفساً عميقاً، وتفكر في قول شيء لها، ثم تعاود النظر بفكرها، فماذا تقول؟ ولماذا تقلقها؟ ربما قد انتهت والدها لتوّها من صلاة الفجر وعاودت نومها من جديد، وربما شرعت لتهيئ لأسرتها فطور الصباح باكراً، وربما.. وربما ماذا؟ بماذا تستفيد من هذه الأفكار؟ وبماذا يغني عنها لعن المقادير؟ لم يعد لديها من حلّ سوى المضي، وعلى الرغم من هذا الإحساس الفظيع بالوحدة، وقلة الحيلة مع طفلين لا تقوى على رعايتهما، وزوج مريض حاول قتلها قبل وقت قصير.

## (3)

هل هو في كابوس أو إنها هلاوس؟ لم يكن علي معن متأكداً من أي شيء، فهو لم يرَ وحوشاً تستعرض أسنانها، أو شياطين تتسلق السقف بصورة خاطفة وسريعة، وليس هناك من أشخاص منسيين في عمق ذاكرته المكبوتة وقد ظهروا فجأة، وليس هناك تشوهات قبيحة ولا كائنات غريبة ولا أشياء غير قابلة للتصديق. فكل شيء من حوله يبدو حقيقياً واقعياً ممتلئاً بالحياة وجليّ الأبعاد، وكل تفاصيل ما حوله تبدو أكثر اتساقاً من أن تعدّ حلماً. استبعد أن تكون هذه شاكلة الحياة الأخرى والعالم الآخر، والموت. واستبعد فكرة الحلم والكابوس، على الرغم من أنه لم يرَ من قبل كابوساً في حياته، وعلى الرغم من أنه من الأشخاص قليلي الأحلام.

اعتراه إحساس غريب حين وجد نفسه مضطجعاً على سرير المستشفى، لم يزل الدوار يصفع رأسه باستمرار، تطلع ما حوله فوجد زوجته وأخاه مفترشين الأرض ونائمين. انتبه لكل شيء حيث أنّ لكل شيء دلالات جديدة لم يسبق له أن تعرّف إليها. حدّق إلى ضوء الشمس وهو يخترق زجاج النافذة، ضيّق حدقتيه ليستشعر حركة جسيمات أشعة الشمس الدقيقة التي لا نهاية لها. كانت الأشعة مصبوغة بلون أحمر لاذع، لون مختلف جديد لم يرَ مثله في حياته. كذلك أزعجته أمواج الأصوات وهي تتزاحم في أذنيه دون استئذان، لم يكن من بين الأصوات الغريبة صوت يستطيع تمييزه، لكأن اللغة أصبحت أجنبية فلا يعلم منها حرفاً أو معنىً. أما رائحة المكان فكانت كريهة خادشة للأنف لا يسهل تمييزها من شدة تخالط روائح الأجساد والمعقمات والمطهرات المخزونة واللاذعة والقديمة.

تدافعت التساؤلات نحو رأسه كأنها أسراب من الطيور العطشى وهي تهبط باندفاع نحو واحة مياه صغيرة، بقي على هذه الشاكلة ما يقارب نصف ساعة لا يقوى على الكلام، بل إنه لم يرَ ما يستدعي الكلام أو يثبت جدواه.

ولم تزل الحيرة والاضطراب عنه غير أنه حاول التغاضي عما يدور حوله ليستطيع التفكير وترتيب الأولويات، فاكتفى أن يكون كلامه داخل رأسه حتى ينتهي هذا الوضع الغريب، وسيجري داخل رأسه جميع حواراته دون مشقّات. لم يحتج وقتاً طويلاً ليتخذ قراراً بهذا الشأن.

ليس حلماً إذاً بل شيء واقعي آخر، شيء أعمق. ولسبب من الأسباب، حلّ نوع مختلف من الواقع مكان الواقع الطبيعي، نوع من العوالم الافتراضية، لكن أليس من المفترض أن توجد حوله كتابات ليستطيع قراءتها؟ فقد كان في اعتقاده، إن كان باستطاعته – في عالم الأحلام – أن يقرأ عبارة أو كلمة لأي شيء مكتوب على جدار أو ملصق مثلاً، ثم يشيح النظر ويعود ليقرأه من جديد، ليجده قد تغيّر أو تشوّه شكله، على الأقل هذا ما كان يعتقده يحدث في الأحلام، وهذا ما كان يشرحه لأخته الصغرى أيضاً حينما تراودها كوابيس.

حلماً كان أم يقظة، لا يهم، فلم يكن يستطيع الاستمرار بالتفكير ما دام الدوار يعصف بمكنونات دماغه، وبالكاد يمكنه تحريك جسده المضطرب. وإنه في كل حال لا يستطيع أن يفكّر بهذه الشاكلة، ففلسفته الخاصّة بالتفكير تختلف بعض الشيء عن الآخرين، وقد كان كلما عزم على أمر أو شغله شاغل، لا يكتفي بالاستيقاظ والجلوس والتفكير ببساطة، بل لا بدّ له من أن يعتمر قبعته كيفما اتفق

وينتعل خفيّه وينطلق ماشياً يجوب الطرقات، مبتعداً عن سكناه، يميناً نحو المدينة أو يساراً باتجاه طريق التلّ، أو حتى يعود أحياناً إلى معمل الحديد والصلب؛ ليكون همّه الوحيد أن يسير في الطريق الترابي ليفرغ رأسه من أفكاره، ويصبح عقله فارغاً هلامياً. وحينذاك فقط يستعيد هدوءه ويغوص في الخواء، ويترك كل ما لا يطيقه يتساقط على حافتي الطريق مثلما تتساقط الأوساخ من سيارة النفايات المحمّلة فوق طاقة استيعابها، ويبقى هكذا جوّالاً حتى يفرغ عقله من الأفكار، ثم يقفل راجعاً إلى منزله من جديد.

- نا ماني آبايو، جيبال، كيو مان هاي.

همهم بصوت مسموع وهو شبه واعٍ لما يقول حتى أنه تمنى لو لم تخرج تلك الهمهمات بعد أن غادرت شفتيه، استيقظت هالة وفزعت نحوه ما أن سمعت صوته وقالت:

- لا بأس، لا بأس. كل شيء سيكون على ما يرام، ارتحِ الآن ولا تتعب نفسك.

ضغطت بكلتا يديها على يده القريبة منها بدون تردد، كانت عيناها تترجيان أي كلمة لها معنى تخرج من حنجرته. قفز مازن بدوره أيضاً واستدعى الطبيب المناوب، وما هي إلا دقائق حتى جاء الطبيب، وقف قبالة المريض، وشرع يتحدث كأنه يلقي إعلاناً دستورياً:

- لا بدّ له من مراجعة طبيب مختص، فشفاؤه أمرٌ غير مستبعد.

كان واضحاً على الطبيب التعب والإجهاد، فلم يكن يكترث بمريضه أكثر مما يستدعيه الأمر، وكأن الوقت قد تجاوز خفارته أو أنه

يمتلك من الحالات ما هو أصعب من حالة علي، لذلك فقد تصنّع ابتسامة صفراء ليعزي بها هالة وقال:

- لا تخافي يا سيدتي، ستكون الأمور على ما يرام.. وأضاف بصوت خفيض: أو هذا ما يبدو لي.

أما علي فقد كان يتابع الحديث وكأنه يتلقى إشارات غير مفهومة، أو أنه لم يكن يسمع إلا أصداء أصواتهم، أما الأصوات فقد كانت في ضفة أخرى أو عالم آخر لم يتعرف إليه قبل هذا الوقت.

ولأول مرّة منذ حادث الليلة، بقي علي معن هادئاً يصغي بعناية واهتمام بالغين وهو ما عدّه مرافقوه تحسّناً ملحوظاً، إلا أن عينيه ما زالتا مفتوحتين وجاحظتين تتراقصان يميناً وشمالاً، وما زالت تعابير وجهه تترقب خطورة الموقف. ودّعهم الطبيب المناوب وأسرع مبتعداً عنهم بعد أن سمع أصوات الممرضين ترتفع في مكان آخر قريب:

- أعتقد أن مريضكم يستطيع الخروج الآن، رافقتكم السلامة.

خرجوا من المستشفى برفقة السلامة! أو هذا ما كانوا يتأملونه، لولا أن وقائع الأحوال لم تنتهِ بتلك الشاكلة، فقد تغير قرب باب المستشفى كل شيء!

## (4)

قرب باب المستشفى تسمّر في مكانه كالصنم مذهولاً، فغر فمه وعينيه وهو يتفحص ما حوله كأنه يراه أول مرّة «وكان فعلاً يرى ما حوله أول مرّة». ولم يكن يدّعي أو يتصنّع شيئاً حينما وقف بلا حراك كطفل يهمّ بالبكاء.

كل حواسه وهواجسه ومخاوفه تسرّبت مجدداً وبانت على ملامحه الخارجية كخليط من الاضطراب والرهبة، شعر بالاختناق داخل صدره، وكان يسمع كعدّاء ماراثون بسهولة سريان الدمّ وهو يتدفق سريعاً متلاطماً من قلبه حتى أعلى صدغيه. أخذ الرعب والوجل منه مأخذاً كاد يدفعه إلى ترك المكان والجري بكل قواه إلى حيث لا يدري على أمل أن يتخلص مما هو عليه حالياً.

نستميح القارئ العذر قليلاً للوقوف عند هذا المشهد على أمر بالغ الأهمية لكي نستوعب ماذا حلّ بعلي معن قرب باب المستشفى قبل المضي والإيغال قدماً بسرد أحداث الرواية؛ فمن أجل تماسك الحبكة وضمان إمتاع السرد الروائي، لا بدّ من تقديم مجموع الأحداث بشكل مراحل وفصول، لتتهيأ ذهنية القارئ وتتجزأ الأفكار بالتدريج، ويخف التراكم النفسي الذي تخلّفه حدّة الانطباعات وتعقيداها. وإن عوالم التخيّلات السردية لا تمنح الراحة والإمتاع، إلا إن كانت تحتوي على جانب لا بأس به من التعقيد والتناقض والتورية، ليزول الغموض ويفهم القارئ ما أراد أن يفهمه، ويستعد لمسايرة الأحداث والمشاهدات بجانبٍ حسي لم يتهيأ له إيجاده في عالمه الواقعي.

ويمكن أن ننحّي جانباً كل ما ذكر في السابق وننسفه، لأنه لّما يعتبر له اعتبار بعد الآن، وللضرورة أحكام، والحالة الحاضرة تفرض علينا ما لا نستطيع أن نتجنب معه المماطلة والملاغزة، وقد يكون حال السرد مختلفاً تماماً لو كان كشأن أغلب الروايات المتسلسلة التشويقية والروايات ذات الطابع البوليسي، التي تحبّذ في حبكتها أن تسوّف بفك الألغاز وتماطل بحلّ الأحاجي إلى حين الكشف عن القاتل الحقيقي في الفصول الأخيرة.

ولا نريد أن نستبق القارئ في الإشارة إلى الأحداث وسنكتفي بأن نشير إلى تفصيل واحد، تفصيل صغير جداً، بل إننا مرغمون الآن أن نشير إليه، وبالكشف عنه ستتغير معه النظرة فورياً وكليّاً عمّا كان يحدث في الصفحات السابقة. وعلى من يريد أن يفهم ما وقع بأمانة وجلاء فعليه أن يحتفظ في ذهنه أن علي معن، الشخص العراقي السابق التعريف، لم يكن يعدّ نفسه بعد الثالثة والنصف ليلاً في الثامن عشر من فبراير، هو نفسه الشخص العراقي بشحمه وعظامه، بل كان يعتقد أن أسمه الحقيقي هو «باك جن – سونك»! نعم، باك جن – سونك الكوريّ الشمالي، وقد أدرك باك جن – سونك – هذا في تلك اللحظة وقرب باب المستشفى – إن كل شيء قد تغيّر فيه، وأصبح منذ تلك اللحظة إنساناً آخراً، إنساناً آخر جملةً وتفصيلاً.

نعم، إن تغيّره وتحوّله إلى شخص آخر حقيقة مجرّدة لا جدال حولها، وإن كان وعيه وإدراكه وتخيلاته وذكرياته لا تزال هي هي، لم يطرأ عليها أو يتغيّر فيها أيّ شيء، لكن الجسد ليس جسده بالتأكيد، أو الأصح أن نقول إن جن – سونك هو الذي كان متطفلاً على جسد لا ينتمي إليه.

كان جن – سونك ينظر إلى كل ما في محيط نظره ويتفحّصه، وكانت عيناه تطوفان بحركة دائرية وتتنقل من المرأة ذات العباءة السوداء إلى الشاب، ثم تعود بالنظر مرّة أخرى إلى المرأة، وفي كل مرّة ينظر إليها يريد أن يحتجّ ويشكو، فيضطرب ويصمت، ولا يعلم كيف يشارك ما لا يمكن قوله بالكلمات.

تعرّف جن – سونك لأول مرّة إلى اللغة العربية بلهجتها العراقية، وتعرّف لأول مرّة أيضاً إلى صباح فبراير عراقي مثالي، بسمائه الجاحدة وبرودته اللاذعة وشمسه التي لا تكترث بتدفئة المكان، فقد كان عويل الريح يسبب له إزعاجاً وصداعاً كبيرين، لم يستطع مع هذا الصوت الممدود الحزين أن يركّز على ما حوله، فلم يختبر قبل اليوم مثل هذا العويل الشرقي المحمّل بالوحشة والآلام.

أما مازن وهالة فكانا يتبادلان أطراف الحديث بلغتهما غير المفهومة ويرمقانه بين الحين والحين بنظرات مسروقة. لاحظ كل منهما أن وجه مريضهما قد تيبّس من الدم نهائياً فكان كقطعة صفراء واحدة، ربما يرمش مرّة أو مرّتين، لكن وجهه عموماً خلا من التضاريس على غير عادته، وكان لسان حاله يقول:

- أين أنا يا ويلي؟ لست في كم – تشك، ولا في بيونغ – يانغ بالتأكيد، ولا حتى في سجون كوانليسو الشمالية، إنني بالأحرى لست في شبه الجزيرة الكوريّة برمتها.

كان مستغرقاً في أفكاره حين قاطع تفكيره ضوضاء سيارة إسعاف، وبقي صدى صوت سيارة الإسعاف حتى بعد تلاشيه يصفّر داخل رأسه، بل كان هذا الصوت هو الشيء الوحيد السائد في

رأسه، كل الأفكار والتخيلات تلاشت حينما غزته الضوضاء، وحينذاك فقط انحنى نحو هالة باستسلام وسألها هامساً:

- جيه يلومو باك جن - سونك إيبينيدا؟ جيكا أودي إينايو، هاسيكي بالا بريدا؟ بمعنى: إن اسمي هو باك جن - سونك يا سيدتي، أين أنا أرجوكِ؟ وحين تأكد أن هالة لا تفقه من كلامه شيئاً، أضطر أن يعود مرغماً إلى صمته المطبق ثانية.

ومنذ تلك اللحظة، أدرك جن - سونك - وحده بالتأكيد - فداحة الوضع وعمق المأساة التي يعيشها، فقد تغيّر كل شيء فيه. وإلا من ذا الذي يستطيع أن يفهم ما كان يجول في خاطره؟ وكيف يَفهم ويُفهم أنه الآن في بلد يختلف كليّاً عن بلده، ويتكلم لغةً تختلف عن لغته؟ والأصح أن نقول من ذا الذي يستطيع أن يستوعب - غيره - أن «باك جن - سونك» الكوريّ الشماليّ البسيط قلباً، يعيش داخل جسد «علي معن جاسم» العراقيّ البغداديّ الأبسط منه قالباً.

## (5)

كان علي أو جسد علي أو على وجه الدقة والتحديد جن - سونك قد هزل كثيراً في الأسبوعين المنصرمين منذ أن حدث ما حدث أول مرّة، ذلك لأنه قرّر الإمساك عن المأكل والمشرب والنوم والراحة، حتى أصبح أشبه بمومياء حديثة التحنيط.

وكان سبب إمساكه عن هذه الأشياء مسوّغاً وعذره مقبولاً بصورة ما، فلا يمكن لأي شخص مهما بلغ به الجلد والتحمل أن يتصوّر ما حلّ بجن - سونك بين ليلة وضحاها، ولا يمكن لأحد الإتيان بوصف وافٍ لما كان يفكر به ويشعر، وكيف كان يرى الأمور ويستوعبها حينذاك، وأصعب من هذا كله كيف كان بمقدوره التعايش مع حجم الهلع والرهبة التي عصفت بالأسرة والمحيطين به، فكان كلما يحاول الاستفسار أو يحاول أن يُخرج كلمة واحدة من بين شفتيه، يرعبهم أكثر ويزيدهم تعاسة ونكسة أكثر وأكثر، فكانت الحاجّة أم علي تولول وتندب حظّ ابنها العاثر كلما سمعته يتكلم بلغته الكوريّة غريبة الأطوار ذات الإيقاع السريع وكلماته ذات النهايات المبتورة.

ويمكن الفهم من كل ما سبق، ما هي مكانة علي معن وتقديره في تلك الأسرة، فقد كان سندهم ومعيلهم ومحور ارتكازهم، لذلك لا يمكن ضمان عدم انتكاستهم وتدهور استقرارهم إن حلّ به سوء وخطب في يوم ما، ولو جازت الكناية هنا، فإن لتركيب الأُسر تشابهاً كبيراً بتركيب خيام البدو، ذلك لأن الخيمة تستند على وتد ليضمن وجودها وديمومتها تجاه طبيعة

الصحراء القاسية، وحالما يسقط الوتد ويتداعى لا بدّ أن تتــهالك الخيمة تباعاً وتهوي.

كان جن – سونك يقضي الساعات أمام المرآة في غرفة علــي معن محاولاً استكشاف «جسده الجديد»، تمعّن في كل ندبة وكــل خصلة شعر وكل خال، فامتعض من حال هذا الجسد المخذول، ومن ذراعيه الضامرتين كذراعي فتاة، وارتعب من خشونة الصوت وحال الأسنان البائسة التي سبّبها التدخين، ونالت منه الإثارة حينما اكتشف حجم العضو العملاق الذي أصبح ملكه الآن.

كان يشعر بالرعب لدرجة أنه أراد أن يُطمئن نفسه بافتراض أن حياته ستستعيد نمطها السابق، أو أن لا شيء من هذا حدث من الأساس، وأن لا حياة قد انقلبت ولا مصيبة قد حلّــت، كــان مرعوباً من فكرة أن تكون حياته السابقة في كوريا الشمالية قــد انتهت إلى غير رجعة، وأن هذه الكارثة ستستمر مــن الآن وإلى أجل غير معلوم.

أيقظت تلك التأملات في داخله موجة من الذكريات اجتاحتــه فجأة من مكان مجهول، دفعته إلى أن يقف هناك قبالة المرآة أوقات لا يُستهان بها من الزمن بلا اختلاجة ولا حراك، كما لو كان قد أسلم نفسه لمهمة مقدسة، وكأن نواقيس قلبه أخذت تدقّ وتدقّ لتــوقظ ماضيه الحارّ في تلك اللحظة، وفي تلك الغرفة، أمام المرآة. فاستسـلم عقله منتقلاً من ذكرى إلى ذكرى، كحال يدٍ قوية تهزّ ميــاه بحــيرة راكدة. أعادت تلك المرآة إليه جميع الذكريات التي طالما حــاول أن يكتبها ونادراً ما حاول استرجاعها، ورسمت الذكريات عند تفكــيره غشاوة شلّت أطرافه وحواسه، وكان يعرف أنه سيصاب بالجنون أو

يشطّ في التفكير إن استمر على هذه الشاكلة. وعلى الرغم من أن الذكريات المحتشدة لم تكن على نسق واحد، وكان بعضها سارّاً وبعضها الآخر حمل الحزن في طياته، إلا أن الصور أخذت تنهال عليه كالطوفان ولا سبيل لإيقافها، وكان الوضع أشبه ببطل سينمائي يتفرج على شريط يمثل فيه دور البطولة وبأدق التفاصيل ثلاثية الأبعاد.

ويبدأ هذا الشريط بكلاكيت المشهد الأول حينما كان جن – سونك يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة وتحديداً في تاريخ الثامن من يوليو 1994، أما الذكريات قبل هذا التاريخ فكانت متقطعة وضبابية، وكان هذا التاريخ استثنائياً بلا شك، لأنه أشد حدث في طفولته وضوحاً وعمقاً.

كان جن – سونك طفلاً جسوراً مشاكساً وفوضوياً ماكراً، وعلى الرغم من نعومته وصغر حجمه إلا أنه كان يملك يدين طويلتين فوق العادة، طويلتين اسماً ومضموناً، وبعكس أخيه «هيوك» التوأم ذي الخلق واللباقة الذي يكبره بدقائق ثلاث فقط، أو بحسب قول والدهما «سُن – أون»؛ إنها ليست ثلاث دقائق بل ثلاثة عقود! وكان الأخوان لا يختلفان في شيء إلا في ما يتعلق بعمق العيون، ولو أن هذا الموضوع يبدو غريباً ويصعب شرحه، إلا أن المرء يستطيع أن يتمعّن مليّاً في عينيهما ليلاحظ أن عيني هيوك صافيتان نيّرتان، وعيني جن – سونك ماكرتان حائلتان. وحتى أن والدهما «مي – ران» التي تعمل مدرسة رياضيات في المدرسة الابتدائية نفسها التي يرتاداها، ما انفكت تخجل من جن – سونك ومن تصرفاته وغياباته ومن طباعه وسلوكه المتنمّر.

ومع هذا الاختلاف، فقد كان التوأمان في كل شيء متطابقين متماثلين، ولا يسهل التفريق بينهما وتمييز أحدهما عن الآخر البتّة، ولكم تحدّ الناس وراهنوا على أن يجدوا فرقاً واحداً بينهما لكنهم لم يفلحوا في ذلك وباءت محاولاتهم بالفشل. وفضلاً عمّا سبق، فإن ما يربط بين الأخوين لم يكن جسدياً وظاهرياً فقط بل كان رابطاً خفياً لا يمكن شرحه وتفسيره، كما لو أن أحدهما يتمم الآخر، أو كما لو أن ما يجري في عروقهما هو الدم نفسه وما ينبض في داخلهما هي الحياة نفسها، خاصةً في ما يتعلق برعاية أختهما الصغرى أوك - هِي، التي استحوذت على قلبيهما بلا منازع. وكانت أوك - هِي الصغيرة بمثابة تميمة الحظّ وحسن الطالع بالنسبة لكليهما، وكانت دلوعتهما المرحة ذات المقالب البريئة والجدائل الطويلة والصوت العذب الحاني.

وسواء كانا متشابهين أو مختلفين، لا يهم، فلم يكن هناك شخص يشابه جن - سونك في تسكعه قرب سوق محطّة القطار في جونكجن حيث كان سكناهم. وكان، بالرغم من امتعاض والديه، أحد المعالم الدائمة في سوق المحطّة. وكان لا يمرّ يوم إلا وتجده يصاحب عصابة جديدة في السوق، وينطلق هائماً معهم من مكان إلى آخر، هذا إن لم يكن هو الأب الروحي للعصابة نفسها، وكان يتقدم على بقية أقرانه ليعلّمهم قواعد الحيلة والسرقة والتسوّل والتدخين، فضلاً عن أنه المبتكر المثالي للمقالب التي يذهب ضحيتها أحد الباعة المساكين. ولذا كان يعدّ تاريخ الثامن من يوليو مفصلياً في حياته، لأنه اليوم الأول الذي شرع فيه سلسلة المقالب والتسكّعات.

استيقظ صباح ذلك اليوم متململاً متثاقل الخطى يمشي إلى المدرسة متأخراً عن حصته الأولى، تفاجأ حالما وصل إلى باب المدرسة ليجد زملاءه يركضون خارجين من المدرسة مجلجلين بصوت واحد:- عطلة.. عطلة..، فقد وافت المنيّة الزعيم الأعلى كيم - إل سونك ذاك الصباح، و لم يكن يدرك جن - سونك من هو الزعيم الأعلى؟ وما معنى الزعامة والحزب والثورة؟ جلّ ما كان يدركه أن لديه فرصة لا تعوّض ولا بدّ من استغلالها أبشع استغلال، فانطلق إلى سوق المحطة يركض ويلعب ويهتف مع أقرانه: عطلة.. عطلة.. تفاجأ حينما وصل السوق ووجده فارغاً لا يزخر كعادته بالصياح والمشترين، لم يكن يعرف ما السبب بالتحديد؟ ألأن الزعيم الأعلى قد مات؟ أم لأن الناس قد طرق الفقر والجوع أبوابهم؟ أم لكلا السببين؟

كان لا يزال ينتشر في سوق المحطة في جونكجن الباعة الجوّالة والعطارون، وعلى الرغم من قلة عددهم، إلا أن صياحهم وتزاحمهم ما زال له أثر ووجود. ويستطيع المرء أن يلاحظ تدهور واقع الحال بسهولة، فالأسعار ارتفعت والكثير من البضائع اختفت وعدد الزبائن قد شحّ كثيراً وأغلقت الكثير من المتاجر والمحال، وكان البؤس في كل مكان، ولعلّ من كان مطّلعاً على ما أصاب كوريا الشمالية من مجاعات في منتصف التسعينيات تخيّل حال السوق تلك الأيام، فعلى سبيل المثال، قامت الأسر الكوريّة ومن ضمنها أسرة السيد سُن - أون، وكإجراء احترازي، بتقليص عدد الوجبات اليومية إلى وجبتين في اليوم، وكانت وجبة الغداء هي الضحية من هذه المعادلة، وبمرور الأيام لم يبقَ على مائدة الطعام وجبة طعام، بل لم تبقَ لا مائدة طعام ولا سوق ولا باعة ولا جوالون.

ومن شدة جوع الصغير، لم يكن باستطاعته أن يقاوم رائحة كعكة الأرز الأخّاذة حين رآها تتبختر في أحد الأكشاك، ولم يكن قد تذوّقها منذ ستة شهور. وبعد تفكير ومخاض ليسا بالعسيرين، قرر جن - سونك انتشال واحدة من تلك الكعكات. ركض بسرعة خاطفة نحو البائع واقتنص منه كعكة من دون أن ينظر إلى الوراء، أخذ يعدو هارباً، ولم يقف عند نهاية الأكشاك ولا عند طرف السوق، بل ابتعد عن حدود المدينة حتى وصل إلى حقول الذرة وتوقّف عن الفرار. ركع مستنداً على ركبتيه مستسلماً من شدة اللهاث، اغمض عينيه بعد هنيهة وأخذ يأكل غنيمته متلذذاً. كانت ألذّ كعكة أرز تذوقها في حياته، وعلى الرغم من أنه لم يشاركها مع أخويه هيوك وأوك - هِي، لكنها بقيت ألذّ كعكة تذوقها وآخر كعكة أيضاً.

هل مضت عشرون سنة على هذه الذكرى حقاً؟ تصبب جبين جن - سونك عرقاً من تفاصيل الذكرى التي عادت كإعصار تسونامي جارف إلى عقله دفعة واحدة، ولوهلة صغيرة ظنّ أن الحادثة جرت بالأمس حينما جافاه النوم خوفاً من أن تكون والدته مي - ران قد اكتشفت أو ستكتشف أن أبنها قضى النهار بأكمله في السوق. لكن لم يكن هناك من داعٍ للخوف، وبتسلسل تدريجي للزمن، بدأ الوالدان يهملان صغارهما من شدّة العوز، واجتاحهم الجوع بكل قواه، ولم يكن حينها من داعٍ للكفاح والعمل ما دامت الأحوال تؤدي إلى فم متخشب ومعدة خاوية. ما أرعب الجوع إن اكتسح مدينة ما! يتصرف كالأخطبوط؛ الكل يتحول إلى فريسة للجوع والكل يتحول إلى مفترس، وتطغي الغريزة البدائية الأقدم،

غريزة البقاء. فتنتهي الحضارة ويزول التحضر، وتذبل الأواصر بين الجائعين، ولا يكترث حينذاك أحد للخطأ والصواب. وكهذا الحال ذبلت أسرة سُن - أون وذبلت أغلب العوائل في منتصف التسعينيات، وتغيرت معالم المحطّة وجونكجن وكوريا الشمالية برمتها.

بلغ اليأس من السيد سُن - أون حين استحال عليه أن يجد شيئاً يُطعم به أفواه أسرته، أن سافر إلى مدينة أخرى يبحث لهم فيها عن شيءٍ يأكلونه، أو هذا ما أوهم به نفسه أو أوهمهم به، لأنه لم يعد، لا بعد يومٍ ولا يومين ولا شهرين. قد يكون بسبب فشله في أن يجد شيئاً يؤكل أو بسبب قراره أن يتركهم وينفذ بجلده أو يكون قد مات وانتهى أمره. لا شيء ينفع أن يقال بعد أن تركهم، فقد ذابت أواصر الأسرة وتفكّكت. وأهلك التدرن عود أمهم مي - ران من جهة وهام صغارها في الشوارع من جهة أخرى، وأصبح صغارها من الأفواه الجوالة أو ما يُطلق عليهم بالكوتشيبي المشرّدين، يتسولون ويسرقون ويتحايلون مع العشرات من أمثالهم كأنهم جراد هائج يفرغون أي شيء يقع بين أيديهم، وحين يجنّ الليل تراهم يستلقون بين الدهاليز وينامون.

أما مي - ران فقد استلقت في سريرها واستسلمت إلى حتفها، شحب وجهها وهزل عودها وتخشبت رئتاها، بل، ومن قسوة الجوع، تشوّش عقلها وضعفت بصيرتها وجنّ جنونها. لم تنتبه إلى أن صغارها قد غابوا منذ أسابيع، ولم يزرها ويطرق بابها أحد، فكل واحد مشغول بسدّ رمقه دون سواه. قضت نحبها وحيدة واسترخت ملامحها بلا حراك ولا خلجة من حياة، ربما كان الشيء المفرح

الوحيد في ما قيل إنها لّما تعد تشعر بالجوع بعد الآن، وانتهى ببساطة كل شيء.

مات العشرات من الأطفال الكوتشيبيـــي في الطرقات حينذاك، وربما لا يسع تصوير المشهد وتخيّل قسوته، فأي عقل هـــذا الـــذي يستطيع أن يتقبل فكرة حفنة أطفال صرعى من شدّة الجوع والهزال، بجماجم متضخمة وبطون متورّمة وصدور مخسوفة إلى الداخل! فـــلا يكتفي الجوع بحصد أرواح الأطفال بل يلتزم بتشويههم، الموتى منهم والناجين، وكأنه معنيّ بأن يترك بصماته عليهم ويعلّق لافتـــة علـــى جباههم أينما حلّوا ويكتب فيها «الجوع مرّ من هنا». وهكذا فقـــد ارتعب جن – سونك وأوك – هِي من حال أخيهم هيوك، كان يبلغ هيوك من العمر أربع عشرة سنة حين احتضر أمامهما.

يا لها من ذكرى قاسية مثلت أمامه! ما زال يتذكر أوك – هِـــي وهي تحتضن أخاها وتبكي بلا انقطاع، كان جن – سونك يركض والدموع تمنعه من الرؤية جيداً، فبعد أن رأى أخاه على تلك الحـــال، أخذ يتوسل بالرائح والعائد بأي شيء يؤكل، بحث الأماكن وتقصّى المزابل عن أي شيء يضعه في معدة أخيه الخاوية، وحين عاد كـــان يحمل في يديه قطعة خبز منقوعة بالخلّ. لم يكن يدرك أن الأوان قـــد فات، وأن أخاه تركهما إلى غير رجعة. كان يضع قطعة الخبز في يد أخيه منتظراً أن يلتقطها ويأكلها، وكأنه في غيبوبة، حتى أنه لم ينتبـــه حتى استقلاّ القطار المتوجه إلى كم – تشك ليجد أخته مـــا زالـــت متعلّقة بأكمام قميصه. يا لها من ذكرى قاسية! ظلّ يحملها أو يكبتها حتى هذه اللحظة، لم يكن يريد أن يكون معنيّاً بها، و لم يكن يتوقع أن يسترجعها قبل الآن.

دخلت هالة الغرفة بهدوء تام على أطراف أصابعها، إلا أن جن – سونك انتفض مرعوباً منها، تفاجأت بصرخة غير متوقعة منه أو هذا ما كانت تظنّ أول مرّة، لكن الصرخة ما لبثت أن طالت وتغيّر نوعها وأصبحت أشبه ما تكون بالعواء. فقد كانت الذكرى ماثلة أمامه، وكان لا يزال في جونكجن لا في بغداد. لمعت قطرات العرق فوق جبينه وصار وجهه متشنجاً، إلا أن هالة هدّأت من روعه وأحاطت به بعناية كأنها تحيط بابنها عبودي حين يهمّ بعبور طريق مزدحم، ووقفت فوق السرير وأسدلت الستارة، ومن ثم اختطفت منه قبلة حانية وهمست في أذنه وقالت:

– نمْ يا عمري.. نمْ.. ما زلت تعبان.

لملمت بقايا الملابس التي كانت مبعثرة على أرض الغرفة بخفّة عالية. أضفى وجودها على جو المكان سكينة وهدوءاً بعد أن أصابته عاصفة هوجاء، وعلى الرغم من أن ما حدث قبل قليل أربكها وملأها رعباً، إلا أنها كانت مطمئنة ومستكينة الأعصاب لسبب مجهول، ربما لأن زوجها هدأ بعد أن رآها؟ وربما لأن الأمور جرت على هذا النحو ولم تتطور إلى شيء أكثر درامية وعنفاً؟ وربما لأن موعدهم مع الطبيب النفسي قد قرب تاريخه؟ لم تكن تعلم في حقيقة الأمر، لكنها كانت تتشبّث بأي شيء ينهي هذا العذاب الذي تعيش فيه، وعلى الرغم من أنها لا تؤمن بحقيقة العلاج النفسي ولا تعوّل على هذه المراجعة كثيراً، ولأنها لا تعتقد أن زوجها يعاني مرضاً نفسياً، ولا تستطيع أن تقول كل ما يجول في خاطرها، فقد أنهكها الانتظار والتشنج من النذور والسحور والبخور، ومن التابعات والحروز والطلاسم، ومن العرّافين والمنجمين والسحرة والروحانيين،

لأنها كانت تعرف، بصورة أو بأخرى، أن علياً لن يتخلّى عنـــها، لا عنها ولا عن عبوّدي ونونة، بل إنها تؤمن بأنه سيعود إلى رشده عمّا قريب. لا مناص من ذلك، فإنه لن يتركهم على هذه الشاكلة علـــى الأقل. ليكن ما يكن، إنها لا تصدق أي شيء مما يتقوّلون، بل تراهن على أن كل شيء سيكون على ما يرام.

**(6)**

اتكأ جن – سونك بعد أن كان مضطجعاً على حافة السرير، وضع يديه خلف رأسه وأخذ يحدّق بعينين ملتصقتين بثبات إلى السقف، أما هالة فقد كانت واقفة تنتظر أن يغيّر من حاله بدون جدوى، فقد مكث ساعة أو أكثر على تلك الوضعية، وكأنه يتعمد إهمال وجودها، أو ربما كان لا يريد أن يشغل باله بها بقدر انشغاله بعالم الذكريات البعيد في كوريا الشمالية.

استوقفته عشرات الأسئلة التي لا طائل منها، وغاص في دوامات لا نهائية من الذكريات منتقلاً من ذكرى إلى أخرى ليسترجع ما حدث معه ذلك المساء، ولو كان اليوم السابق للانتقال يوماً مملاً ورتيباً ليشغل به من ذهنه الكثير من المساحة والاهتمام.

وكانت أسئلة الماذا واللماذا والكيف والأين تزحف متسللة داخل رأسه وتتقافز علامات الاستفهام هنا وهناك كالبهلوانات. وعلى الرغم من أن محاولة التفكير في حدّ ذاتها شكّلت في نظره عبئاً ثقل عليه حمله، إلا أنه شرع يسأل نفسه مستفهماً عمّا حدث في اليوم السابق لهذا الحادث؟ وأين كان في تلك الأنحاء؟ وربما بجوابه عن هذا السؤال يجد دليلاً يتعلق به وحبلاً يربطه بالواقع العجيب، وربما تعود الذاكرة به وتسعفه باستحضار شيء ذي قيمة، فالأمر برمته يعتمد على قدر ما يسترجعه من ذكريات.

عاد ليتذكر أن الأصيل قد مضى حينذاك وحلّ المساء، كان الجو بارداً حينما اختفت الشمس وراء التلّ، وتذكر كيف اعتزم أن يستغل الليلة أشد استغلال لأنها الليلة الأخيرة التي سيقضيها حرّاً بدون فضول

أخته أوك – هِي، ولأن غيابها سينتهي وستعود من بيونك – يانك مع خطيبها في صباح اليوم الآتي.

تفحّص الأوراق المالية التي بحوزته وأيقن أن الأمسية ستكون على ما يرام، فمحفظته كانت تحتوي من الوَن الكوريّ واليوان الصينيّ ما يضمن له ليلة حمراء صاخبة، تشجع قليلاً وتناول عشاءً بارداً من معكرونة وملفوف الكيمتشي المخلل بالملح، كانت لديه خيارات أخرى لكنه لا يمتلك الحماس ليعدّ طعاماً آخر، فالتهم ما جادت به المائدة بطيب خاطر وشهية مفتوحة وخرج من سكناه لا يلوي على شيء. اتجه إلى إحدى دور السينما القديمة، كان «لنذهب إلى جبل كونغانغ» الفلم الوحيد المعروض في الصالات ذلك الوقت، ولم يكن يتوقع أن يكون الفلم ذا مستوى عالٍ، ولكن هذا الفلم بالذات يعدّ خياراً محبطاً ودون الطموحات، فلًا تستهوي جن – سونك قصة طبيب يساعد فتاة في العثور على أعشاب طبية، كان يريد شيئاً أكثر حماساً، وأكثر إثارة، وأكثر فجوراً على وجه الخصوص. ولذلك ذهب ليتسكع كما كان يفعل مع رفاقه كعادته في إحدى نوادي الكيساينغ، لم يكن يهوى تغنّج السيدات هناك بقدر ما كان يحبّذ مجالسة الرفاق وشرب الجعّة والسوجو معهم حتى تفرغ الجيوب، ولكن، ولسوء الحظ، لم يكن رفاقه الحلفاء وغير الحلفاء متوفرين لصحبته تلك الأمسية، فالكل مشغول بقضاء الأمسية مع أسرهم، فتلك الليالي تصادف احتفالات أعياد ميلاد الزعيم، والكهرباء موجودة دون بقية الليالي.

ذهب جن – سونك، بلا مؤنس ولا خليل، وحده إلى نوادي الكيساينغ، وجلس هناك مع القوّادين والسكارى والطامعين بجيبه،

لم يشعر بالراحة، فأفرغ السوجو في جوفه بنهم وتركيز شديدين، وحالما أحسّ بالطرافة توقف عن الشرب وقفل راجعاً دون سكر إلى سكناه.

يقع مسكنه الصغير ذو الغرفة الواحدة في المجمع السكني الجنوبي في ضاحية ميناء البحر الشرقي قريباً من التلّ، ولم يكن المجمع السكني سوى مكعبات سكنية متلاصقة وصغيرة الحجم، شبيهة بأعشاش الطيور، أو كما يطلق عليها سكّانها الحاليون بالهارمونيكا لتشابهها الكبير بآلة الهارمونيكا الموسيقية.

كان المنزل صغيراً وبسيطاً جداً، ولكنه ينبض بالحياة، وتعود حيويته كلها إلى أوك – هِي بالتأكيد. وعلى الرغم من أنه بالكاد يتسع لهما، إلا أنهما لم يشتكيا يوماً من ضيق مساحته وقلة محتوياته، ولم يتذمرا من فنائه الخارجي الضيّق وغزو الأعشاب الطويلة له، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحتوي على الأثاث الكثير، إلا أن كل شيء كان في مكانه وله غرض يؤديه. ففي أحد الجوانب توجد أريكة ومدفأة لا تبالي بتدفئة محيطها يقابلها تلفاز «أيوا» صيني قديم الطراز، وفي الجانب الآخر يوجد حائط خالٍ من كل شيء ما خلا صورة الزعماء الثلاثة، ويتوسط المساحة قنديلٌ غريب الشكل معلّق في السقف ومغطى بزجاجٍ متلفع بالسخام. وإن كان يغلب على وصف المنزل التذمر إلا أنه كان يتمتع بموقع وقرب مذهل من مقر عمل جن – سونك، ولم يحتج للوصول إلى حيث يعمل أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام.

ولا غبار على علاقات جن – سونك الواسعة ولا جدال عن طبيعته الاجتماعية في ضاحيته ومدينته، فكان يعرفه كل شخص في

كيم – تشك، وبدوره يعرف كل شخص ويعرف كل شيء عن كل شخص. وكان القاصي والداني يمتدح مناقبه ويعترف بأفضاله. ولا يمكن، بملامحه المميزة، أن يشتبه ويتوهم به أحد، بوجهه الدائري المحبب وشعره الحليق إلى مستوى جلد رأسه وبلوزته الصوفية البنيّة المحاكة يدوياً التي تعدّ علامة مسجلّة باسمه وحده.

يعمل جن – سونك حرفياً في المجموعة الجنوبية لمعمل الحديد والصلب. لم يكن عملاً بمعنى العمل المضني والدؤوب، بل كان أقرب إلى التسلية الصباحية وتضييع الوقت، فالقسم الذي يشغله معطل وشبه مقفل، والمواد الأولية غير متوفرة، والراتب متواضع، وكان حضور العاملين روتينياً وإجبارياً في الوقت نفسه، ولم يكن مسموحاً لهم ترك الوظيفة أو الامتعاض منها، أو الاستخفاف بها، وحتى لو كان مراقباً من قبل الحزب باعتباره عضواً في جمعية التولكوكتاي وفي اتحاد نقابات التجارة والعمل، إلا أن وظيفته في المعمل تعطيه الغطاء الأمثل للانشغال بأعمال أخرى.

كان يعمل أوقات المساء في تصليح الدراجات الهوائية، وكان بارعاً في ذلك، بل كان خبيراً بما يقوم به، ولم تكن خبرته مقتصرة على الدراجات الهوائية محليّة الصنع كالكالميجي والسيغول أو خردوات التشيبي، بل كان ماهراً في تصليح الدراجات الصينية وحتى اليابانية منها. وإن أردنا أن نكشف عن المستور أكثر، فإن جن – سونك لم يكن يقوم بتصليح الدراجات الهوائية فقط، بل كان بارعاً في سرقتها. ولمّا كانت الدراجات الهوائية نفيسة وثمينة في مدينته، وكان لمقتنيها الحظوة والوجاهة والذكر الحسن، ولأن أغلب الأسر كانت عاجزة عن اقتنائها، ويشهد على ذلك مقولتهم

الشهيرة: «أعيرك زوجتي لا دراجتي»! لذلك أصبح بمرور الوقت والخبرة زعيماً لشبكة كبيرة من اللصوص والنشّالين والسماسرة والمهربين الذين يقومون بالخفاء بعمليات بيع الدراجات المسروقة وشرائها.

كان يجد في عمله الأخير بالذات مركز الجذب في حياته، ولم يكن يراه خطيئة مشينة، ولم يحتقر نفسه على ارتكابه أفعالاً قد تبدو مخزية للغاية، بل على خلاف ذلك، فقد كان يمنحه هذا العمل من الارتياح وينتابه من النشوة ما لا يوفره شيء آخر في الوجود، بل كان يعدّ ما يقوم به شأنه الخاص، وحقه الشخصي في الحياة.

حسناً، لنترك حديث السرقات جانباً ولنعد إلى موضوع اليوم السابق لحادث «الانتقال»؛ إذ أستيقظ جن - سونك وحيداً في الصباح، بعد ليلة الكيساينغ تلك، وقد أخذ الصداع منه مأخذاً كبيراً، لم يكن يستعجله شيء في النهوض، فبقي في عشه الدافئ هانئاً كعادته ينتظر أن تعلو الشمس قليلاً وتصبح ذات فائدة. كان لديه كل الوقت في العالم، فصباح فبراير وبرودته القارسة في كيم - تشك لا يفيد معهما لباس سميك ولا نفخ يدين.

لم يمر وقت طويل قبل أن تتجاوز الساعة التاسعة صباحاً، بحسب ما يشير الافتراض الأرجح، وحينها استيقظ كليّاً على الرغم من أنه بقي مضطجعاً داخل فراشه.

وفي لحظة ما هناك، خاض جن - سونك تجربة غريبة وفريدة من نوعها، تجربة حقيقية بلا صورة بلاغية ولا تصوير، تغيّر لديه شيء في واقع الأمور، وربما لم يكن تغييراً في شيء محدّد ومعيّن، بل

توغلّ ودخول في شيء آخر، شيء لا يمتّ لهذا العالم بصلة، شـــيء أقرب ما يكون ببعدٍ أو طيف أو رؤيا لا نهائية خارج حدود الزمان والمكان.

فقدت الحواس من حوله وظائفها، فلا النظـــر ولا اللمـــس ولا الشم ولا أي شيء محسوس آخر يمكن إدراكه. لم يكن ينظـــر مـــن خلال عينيه، بل تحوّل كيانه كله إلى دمية من رخام، وكان ينظر من عيني تلك الدمية الزجاجيتين ويحملق إلى الفراغ بلا حاجة إلى حدقة ولا عدسة ولا شبكية عين. أحسّ أنه أفاق في حياة أخرى غير حياته، وكأنه يتنفس داخل عالم غير عالمه، في بُعدٍ ثقيل آخـــر، أو ظـــلام سحيق أجوف، فقد العالم من حوله قوّته ومفهومه ووزنه، وغاص في أميال جرداء مظلمة، أميال جرداء من العتمة. لم يكن هناك من شيء سوى العتمة، العتمة المطلقة، أو سديم سرمديّ أزليّ معتم بلا صـــفة ولا خصوصية ولا حركة ولا اتجاه ولا راحة.

ثم، وعلى حين غرة؛ أحسّ بتيار هـــواء جـــارف، ثم أحـــسّ بالأصوات تتداخل وتتصاعد فيما بينها، وبدأ يرى الفضاء وهو يلفّ كل شيء في كل شيء، فتقوّست من حولـــه الســـماء بســـرعتها، وكانت قريبة وبعيدة في الوقت نفسه. ثم أحسّ بالأضواء فالأشـــكال فالصور فالألوان، كانت صوراً حقيقية وواقعية لكن غريبة عنـــه، لا تمتَّ له بصلة، وليست من عالمه الذي يعيش فيه، بل من عوالم متباينة لامتناهية، وكأنه ينظر إلى موجز أخبار العالم في لحظات. يا له مـــن مشهد باهر وعجيب ما تجلّى لجن – سونك! كانت الصور تمرّ أمام ناظريه وعقله لا يزال عاجزاً عن فهم كنهها، ظهرت وتلاشـــت ثم ظهرت وتلاشت مرّة أخرى وهكذا دواليك؛ رأى طفلاً مشاكســـاً

يتسلق شجرة صفصاف عملاقة في غابة ما، ورأى سجناء يعملون على حفر خندق في جوف الليل، ورأى رجالاً وعساكر سود البشرة يحملون كلاشنكوفات في مواجهات مسلحة دامية، ورأى رجلاً سكرانَ يمسك بمومس من شعرها وهو يجامعها من الخلف، وآخر أشعث الشعر واللحية يهّم بشنق نفسه، وهناك يتجمع أناس يقومون بطقوس رقص دينية أو صوفية ربما، كأنهم دراويش يدورون حول انفسهم ملتفعين بالبياض ورافعين أيديهم إلى السماء، لم يكن باستطاعته الجزم بما كانوا يفعلون. بقي على هذه الشاكلة ينتقل ما بين العوالم في لحظات معدودة، ولكن هل كانت حقاً لحظات معدودة؟ فقد بهت الإحساس بمرور الوقت واللحظات، ولا معنى للزمن والأزل في ما كان فيه.

استيقظ بعد ذلك مرعوباً من عجيب ما أصابه، ووجد نفسه في سرير زوجي وبقربه امرأة وطفلان فيما يقارب الثالثة والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت بغداد. تفحّص ما حوله باستغراب، فلم يجد شيئاً يرتبط به ويربطه به. فقد صوابه، فكيفما حسب لا يمكن أن تعطيه حساباته جواباً مقنعاً عمّا كان يفعله في هذا المكان، ولذلك أخذ يستنجد ويصرخ وعيناه تحدقان إلى أرجاء الغرفة لأول مرّة في حياته:

- جيكا أودي إينايو، جيكا أودي إينايو.

# (7)

تشنجت قدم مازن نتيجة جلوسه على الكرسي البلاستيكي، حرّك قدمه ووقف قليلاً وتمشى بخطوات يسودها الملل نحو الباب الخارجي، ثم عاد تجاه الكرسي مرّة أخرى، أخذ يحدّق إليه بعدوانية، جلس مجدداً وما لبث أن انتفض ووقف من جديد، فمازن ليس من نوع الأشخاص الذين يطيقون الانتظار. ذرع الممر جيئة وذهاباً دون انقطاع، وأخذ يتفحص الوقت في هاتفه النقال كل دقيقتين أو ثلاث دقائق في بهو عيادة الطبيب النفسي.

يعوّل مازن كثيراً على هذه المراجعة، وكان ينتظرها بفارغ الصبر، وكان يعتزم أن يدخل قبل أخيه ليقصّ على الطبيب ما حدث معهم ويفضفض ما يجول في خاطره من أسئلة واستفسارات. والحق يُقال، إن مازن قد تغيّر كثيراً في الأسبوعين المنصرمين، لم يعد مازن القديم نفسه، كان يخرج ساعياً إلى قوت يومه بسيارة الأجرة في السادسة صباحاً ولا يعود بها حتى موعد العشاء، وما أن يعود حتى يطمئن على الأسرة ويجلس معهم ويمازحهم كأنه متلبسٌ بشخصية أخرى، ولم يعد يكترث كما كان في السابق بملابسه وتسريحة شعره، ولا يخرج مع أصدقائه إلا ما ندر، وكأن هذين الأسبوعين أضافا إلى عمره عشرين أو ثلاثين عاماً. كان يقضي يومه في قيادة السيارة سارحاً وهائماً بحاله وحال أخيه، ولطالما رسم في مخيّلته السيناريوهات وصاغ في ذهنه الحبكات، ولكنه دائماً ما يصل إلى النتيجة نفسها، ومفادها أن المسؤولية والملامة كلها يجب أن تصبّ عليه وحده، فلا بدّ أنه هو السبب الرئيس والوحيد لانتكاسة أخيه، ولا بدّ أن تدهور حالة

علي النفسية أعقبت الشجار الذي دار بينهما في اليـــوم الســـابق لحادث الانتقال.

كان مازن يعتزم الهجرة من تركيـــا إلى اليونـــان إلى الاتحـــاد الأوروبـــي وتحديداً ألمانيا، حاله حال كثير ممن هاجروا من ســـوريا والعراق وإيران وأفغانستان والمغرب العربـــي ذلك العام، ولم يكـــن لأحد أن يثني مازن أو يحول بينه وبين موضوع الهجرة والسفر حتى لو كان المعترض أخاه الأكبر.

- لا يمكنك أن تجعلني أعدل عن رأيي، فأنا مقتنع أكثر ممـــا تتخيل، سأهاجر يعني سأهاجر.
- هل أصبحت الهجرة غاية طموحاتك؟ هل يرضيك أن تبقى مشرّداً بلا مأوى ولا معين في ديار الغربة ما تبقّـــى مـــن حياتك؟
- إن كان الطموح أن أكون مشرّداً في أوروبا.. فبلى، أقبـــل ونصّ.
- يا ليتك تصبح مشرّداً هناك وتنتهي المشكلة، بماذا أجيـــب والدتك إن لم تُكتب لك السلامة؟ ماذا أقول لها؟ أريـــد أن تحلّ مكاني حينذاك وتقول لي ماذا أقول لها؟ هل ترضى أن تكون نهايتك غريقاً في عرض البحر مـــا بـــين العبّـــارات والنجّادات والمهربين والـــ..؟

قاطعه مازن وقال:

- كفى رمزيات ومثاليات أرجوك، يكفيني الموت غريقاً بعيداً عن هذا البلد على أن أموت متفجّراً فيـــه، علـــى الأقـــل سأموت هناك بإرادتي، بشجاعة، وليس كحال البعض...

- من تقصد بقولك يا شجاع؟ سأل علي وقد بانت ملامح الغضب على محياه.
- لا أقصد أحداً. ارتحت؟ ثم تعالَ وقلْ لي، ما ضيرك أنت إن أصبحت مشرّداً أو متسوّلاً أو حتى طعاماً للقروش، ما ضيرك أنت.. ها؟ وبأي شيء أختلف أنا عن المئات من الشباب والنساء والأطفال الذين عبروا البحار والغابات والحدود؟

استعاد علي بعض هدوئه وأجابه بحزم:

- إنسَ موضوع الهجرة يا مازن، يستحيل أن أطاوعك في ما ترمي إليه، امحُ الفكرة من رأسك نهائياً.

لم يستسغ مازن العبارات واستفزته كثيراً، فانتفض بوجه أخيه وصرخ:

- بل سأهاجر، سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك يا علي، فإن رضيت خيرٌ على خير، وإن لم ترضَ فاذهب إلى أقرب حائط واضرب به رأسك!
- هكذا إذاً؟ والحاجّة؟
- لم أعد أبالي، أنت و.. الحاجّة، نعم، أنت والحاجّة، رضيتما أم لا، إنه شأني ولا يعنيكم شأني، تعساً لكم، ولأسرتكم، ولهذه الحياة الفاشلة.

كان الأخوان يخوضان مثل هذه السجالات والجدالات في أوقات سابقة، لكن لم يصل أي منها إلى مثل هذه النهاية، فكلمات مازن الجريئة فصلت الخطاب، حتى أن علياً لم يتوقع أن يسمع من أخيه ذلك. كانت سابقة استثنائية بصورة ما، فلم يحدث مسبقاً أن

تجاوز مازن أو شتم بهذه الجرأة والأسلوب، ولم يعرف علي حينها بما كان يجدر به أن يردّ ويجيب، وربما كانت نوبة الثورة والغضب ملأته وجعلته بركاناً منتفضاً، وربما أراد أن يردّ على أخيه بنفس الانفعال والحدّة، أو أراد أن يزيد عنه ويوبخه أو يشتمه أو يقذفه بأي شيء يقع بين يديه، إلا أنه لم يفعل لا هذا ولا ذاك، فلم يناقش أو يحاجج بعد ما قاله مازن على الإطلاق، بل خلاف ذلك، فقد طبطب على كتف أخيه وأعطاه العذر بما قال وتعهّد له أن يقنع الحاجّة لتبارك له خطوة الهجرة، حتى أن مازناً لم يكن بحسبانه أن يكون هذا جوابه، أراد أن يعتذر له لكن عليّاً لم يعطه الفرصة، بل أنهى الحديث معه بهدوء غير متوقع، وقال:

- أريد منك أن تنتظرني فقط هذين اليومين، سأعرض السيارة للبيع وأعطيك ثلاثة آلاف دولار مصاريف منها، فأنا أعلم أنك لا تملك فلساً، سأقرضك إيّاهن إن كنت لا تقبل الهدية مني. لا بأس، لا تخف، ولا أريدك أن تغضب، فأنا أخوك الأكبر على كل حال.

ولذلك دخل مازن على الطبيب والتساؤل يشغله، هل تسبّبتُ في تدهور حالة أخي أم لا؟ وهل ما حلّ به هو الجنون؟ وبالرغم من أنه لم يكن يتوقع أن تكون غرفة الطبيب من الداخل كما كان يشاهدها في الأفلام، إلا أنه ابتهج حينما وجدها بشكل ما دافئة وأنيقة، وكان يبدو كل شيء فيها أقل تعقيداً مما كان يظنّ، وابتهج أكثر حينما وجد الطبيب أربعينياً بلا صلعٍ ولا مشيبٍ ولا يشغل فمه بغليونٍ ولا عينيه بنظارة.

وهبت الغرفة إحساساً غريباً لمازن أن ينقصها قطع أثاث، وما أن أمعن النظر إليها حتى تأكد أنها لا تحتوي على أريكة الشيزلون، فاستغرب أين يستلقي المريض ويبث شكواه؟ كانت غرفة مكتبية فقط، فيها ديوان، كرسيان، طاولة فليكست تركية الصنع يجلس خلفها الطبيب ومن خلفه هناك يوجد رف خشبي متواضع يحتوي شهاداته وما يقارب العشرين كتاباً طبياً ونماذج وتماثيل مقلّدة ومتنوعة؛ كهرمانة وهي تصبّ الزيت في جرارها الأربعين، كرة أرضية، تمثال أبي الهول، نفرتيتي، أسد سنغافورة بجسمه السمكي، برج خليفة، برج العرب، وكأن الطبيب يريد أن يقول بالقلم العريض متباهياً أنه قد سبق وزار هذه المعالم والدول.

قصّ مازن عليه تفاصيل ما حدث في الليلة المشؤومة وماذا حلّ بأخيه وما هو حاله الآن، وكذلك استرسل بذكر حياة علي الخاصة، وأسهب في شرح طباعه وعاداته، وتطرّق إلى أمور لم يكن هو نفسه يعتقد أنه يعرفها عن أخيه، وعرّج على واقع الأسرة وكيف يمضون يومهم، وكيف ذبل عودهم منذ انتكاسة ابنهم غير المتوقعة، فلم يستسغ أي أحد منهم شيئاً منذ تلك الليلة، وحتى إن طلب شخص من الآخر أن يتناول الطعام، لم يكن لينفع الطلب، فالكل لا يهوى أي شيء. استغرب مازن مدى معرفته بتفاصيل حياة الأسرة وحياة علي على وجه الخصوص، وكم كان مختبراً هموم أخيه ومشاكله بهذا القرب الهائل، وقد خطر له خاطر بأنه يدرك طباعاً وأسراراً ربما حتى زوجته هالة لا تعرف عنها شيئاً.

- أرجو أن أكون قد أفلحت في قصّ الحكاية وتوضيح الصورة، وأرجو كذلك أن تفهم أني لم أكن لأروي لك

التفاصيل، و لم اعترف أمامك بما يجول في خاطري، إلا لأن همّ أخي قد أضناني، وها أنا أمامك هزيلاً كالميت الحي منذ أن حدث ما حدث يا دكتور، بل لا تكاد تمضي لحظة واحدة دون أن يجتاحني شعور الذنب كالحمّى ليذكرني بما حدث في تلك الليلة، وبما حلّ وسيحلّ بأخي، وهل أنا السبب في جنونه أو لا؟

قطّب الطبيب حاجبيه مستغرباً فتغيرت ملامحه وقال:

- إذاً وحسب ما فهمت، فأنت تعتقد أن ما أصاب أخاك من جنون لم يكن إلا ردّ فعل على شجاركما؟ أو إنّه «اختار» أن يكون مجنوناً؟ إن كان ظنّك كهذا فسيكون كل ما أحكم به لا داعي ولا مسوّغ له، وباعترافك أنك السبب بجنون أخيك تصبح أسبابي وأقوالي لا قيمة لها.
- وهل هناك سبب آخر في جنونه؟ أرجو أن تنيرني؟ أتقصد أني تسرعت في ما ذهبت إليه؟
- بكل تأكيد قد تسرعت، فنحن لا نختار جنوننا بل نختار عقلانيتنا! إننا نتنافس لنبدو متعقّلين لا أن نبدو مجانين.
- وكيف ذلك؟
- إن الجنون ليس بحالة اختيارية، ثق بي، ربما يكون تسامياً مقدّساً يتطلع إليه العقلاء وينشدونه، لكنه ليس اختيارياً البتّة. هناك فرق كبير بين العقل والتعقّل، وبين العقلاء والمتعقّلين، ولكن لا يسعك التمييز في أمر الجنون. لا يغرّك حال الذين يطمحون للظهور بمظهر العاقلين والمتفهمين والحكماء، كلهم زاعمون وواهمون، و لم يكن الغرض من

وضع تصنيف الجنون واعتباره لوثة عقلية إلا لإقصاء عدة أفراد من مجتمعاتنا، وحين نادوا أن هؤلاء مجانين وأولئك مجاذيب، هؤلاء يجب عزلهم وأولئك يجدر إقصاؤهم، هل تعرف لماذا؟ لأنهم انتفضوا على واقعهم وحاربوه، إلا أنهم كانوا العقلاء الوحيدين الموجودين. بل يجب أن تثق بي إن قلت لك إن من لديه الجرأة على الجنون في هذا العالم أو الاعتراف به على الأقل، فإنه الإنسان الحقيقي المتفرّد، وليس هذا الكمّ المتراكم من المألوفين والمستنسخين وبليدي المشاعر.

إني متأكد من زيف العالم وتفاهته، كل شيء فيه مغلوط، من انحطاط وفي انحطاط وإلى انحطاط، وترى المتعقّلين يسيرون فيه رأساً على عقب. عميانٌ يقودون عمياناً آخرين، وكأنهم روبوتات مبرمجة مكررة تعمل أربع وعشرين ساعة دون دراية بماذا ولماذا وإلى ماذا؟ إنه عالم خانق ومخنوق، عالم مجبول من الشمع والصمغ والزيف، وكل الحاجات والضروريات قد وظّفت فيه لغرضٍ واتجاهٍ واحد.

- إلا المجانين؟
- على أقل تقدير فإنهم يفكرون خارج مداركنا ويتصرفون دون مراعاة لتأطيراتنا الرتيبة الساذجة.

ترك الحديث أثراً بليغاً في مازن فاستجمع أفكاره وقال:

- "الجنون وحده هو الذي يتسع للإيمان والكفر، للمجد والخزي، للحب والخداع، للصدق والكذب، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل؟".

ضحك الطبيب ضحكة تهكمية قصيرة، ثم سأل مازن مناكفاً:

- أراك تقرأ نجيب محفوظ جيداً؟

استنكر مازن ما اتهمه به الطبيب وكأنه أمر خادش للحيـــاء وقال:

- لا.. لا.. لا.. ليس الأمر كما تظن، إني حفظتها من لافتة في مقهى قريب من سكناي في الكرّادة لا غير.

تمعّن الطبيب في وجه مازن ثم تابع حديثه:

- قد يبدو كلامي لا قيمة له في هذه اللحظة ومبهماً، ولذلك أفضّل أن لا نسهب أكثر مما قيل. فليدخل مريضك الآن إن تفضلت لنسمع منه قبل أن يـــدفعنا كلامـــك إلى بعيـــد التخمينات ونقرر هل هو مجنـــون أم لا؟ فـــإن توصـــيفك وتصويرك وإسهابك يبقى قاصراً، ولا يغني عن السماع من مريضك ومن حجته واعتقاده، وربما نظلمه إن لم نســـمع منه. ألا تتفق معي في ذلك؟

- لا يوجد ما تسمعه منه يا دكتور، علي لا يتكلم لغتنـــا! وكأنه نسيها ولم يعد يجيد التعامل بها، يمكنك الوثوق بما أقول لك، أنا لا أصرّح وأدّعي معرفة أي لغة يتحـــدث، لكنها ليست اللغة العربية بكل تأكيد، ربما يتحدث لغـــة آسيوية أو روسية أو.. لا أعرف، لكنني متأكـــد أنـــه لا توجد في قاموس اللغة العربية كلمة يمكن أن نتشـــاركها سوية.

## (8)

- أنت لست علياً.

فتحت هالة عينيها وأخذت تنظر إلى زوجها بجدية ونبرة غير مسبوقتين، ثم أتبعت ما قالته بانفعال وكلمات متقطعة:

- انظر علي، أو يا.. من لا أعرف من بالضبط؟ يا هذا.. يا.. من يقبع خلف هذه العيون.

استجمعت أفكارها ثم أردفت:

- لا توجد جدوى من مراجعة الطبيب، أعلم ذلك، أنت لست مريضاً، لكن ماذا أقول لأخيك؟ وما حجتي؟ وكيف أقنعه بما يجول في خاطري؟ إن مازناً لا يتحمّل أن يُعترض عليه أو يعارضه أحد.

لم تصمد أكثر من ذلك، غرزت وجهها بين أصابعها وانهارت باكية بعد أن أظهرت انفعالات القلب المكسور، وقالت:

- من ذا الذي أخاطبه الآن؟ من أنت يا ترى؟ ها؟ فلنتفق، بادئ الأمر، على أنك لست بعلي زوجي؟ ولا ترمقني بهذه النظرات البلهاء، فقد طفح الكيل و لم أعد أطيقها.

لم يكن جن - سونك يعرف كيف يتعاطف مع هالة، كان وجهه يتحرك بإيماءات غريبة وحائرة لا تعطي انطباعاً محدداً، وكان كل ما يجري بينهما خارج نطاق خبرته واختصاصه، فمثله لا يجيد التعامل مع النساء، وعلى الرغم من أنه حاول مجاراة هالة وحذو حذوها فيما تفعل وتقول، فيبتسم حين يراها تبتسم ويصبح وجهه عابساً حين تبكي، لكنه لم يكن يفهم قطعاً ما يقوم به! ولذلك ارتبك أشد الارتباك حين انفعلت واغرورقت عيناها بالدموع، حاول أن

يدنو منها ويمسك يديها لكنها عاجلته ودفعت يديه عنها وانتفضت منه جافلة، وقالت:

- أبعد يديك عنّي، أنت لست بعلي، هل تفهم؟ ليظنّ من يظنّ بأني قد جننت وطار عقلي، لم أعد أكترث. أنا أعرف أنك لست بزوجي من كل شيء فيك، من كلامك ونظراتك وأسلوبك وتصرفاتك التي لم يسبق أن لاحظتها في زوجي قبلاً. إنك شخص آخر قطعاً؛ تتناول الطعام بطريقة مريبة، كأن لسانك يجرّب الطعام لأول مرّة أو كأن كفيّك تعلمتا لتوهما إمساك الملعقة! وعلي يحبّذ النوم على بطنه أما أنت فتتكوّر على نفسك وتجمع ركبتيك إلى صدرك، وعلي يستعجل الخطى في مشيه أما أنت فتسير كأنك شخص يدوس البيض بخطوات كسلى، وكأن الكون برمته لا يعنيك. وأنت لا تمسك السيجارة كما كان يمسكها، فهو يضع السيجارة بين إصبعيّ السبابة والوسطى هكذا، أما أنت فتقلب يديك لتحيطها بين طرفي إبهامك وسبابتك وتخفيها في باطن الكف. وثم.. إنك أعسر اليد! ألا تكفيك هذه البراهين؟

صمتت قليلاً ثم أردفت بصوت خافت:

- لقد عرفت أنك لست علياً منذ أن فزعت وانتفضت مني وأنا أتقرّب إليك في الفراش.

لا يمكن لأحد أن يتنبأ لماذا اختارت هالة تلك اللحظة بالذات لتكشف عن همومها وخباياها؟ ولماذا بدر منها هذا الانفعال والهيجان؟ وكيف تجرأت وصارحت زوجها بتلك الطريقة غير

المسبوقة؟ قد يكون السبب – وهذا ما صرّحت به – أن كيلها قد طفح وانفجرت بلا واعز ودافع، وقد ساعدها على ما قامت به خلو بهو الانتظار من المراجعين:

- ابقَ معنا ما شئت أن تبقى، لكن إيّاك أن تدّعي وتقول إنك علي.. اتفقنا؟

التحقت هالة وزوجها بمازن في غرفة الطبيب، وكان في دخولهما شأن آخر يدعو للرهبة، فقد هاج الزوج بدون سابق إنذار وأربك هالة ومازن والطبيب على حدٍّ سواء. فما أن دخلا حتى شقّ الزوج طريقه مسرعاً بشكل مفاجئ إلى الداخل كأنه يجري في سباق، حاول أن يمسك مازن به لكنه أفلت من بين يديه، انطلق مباعداً خطواته ومتجاوزاً الديوان فالكراسي فمكتب الطبيب، حتى أنه ارتطم بحواف الأثاث وتعثرت قدماه في كل الأرجاء.

لم يكن لأحد أن يتوقع حينذاك ما بدر منه أو ما كان يبتغيه، حتى أن الطبيب جفل من هجومه واتجه إلى جانب بعيد ليتفاداه، فقد ظنّه يعاني من سورة غضب أو حنق أهوج، إلا أنه لم يكن لا هذا ولا ذاك، فما أن وصل إلى الرف الموجود خلف المكتب، حتى اختطف الكرة الأرضية الموضوعة هناك بيد واحدة. كان يلهث ويضحك بعينين جاحظتين! وفي النهاية رفع رأسه وجال بنظره متفحصاً كل واحد منهم، وطفق يهتف جذلاً وهو يشير بإصبعه في الخارطة إلى كوريا الشمالية وكأنه يعلن بيان انتصار:

- تشوسون.. تشوسون.. تشوسون.

# الفصل الثاني

**نيس|فرنسا 18 فبراير 2016**

## (1)

وداعاً على أي حال، أنا ممتن كثيراً لكــل مــن يقــرأ هــذه الصفحات، إنه لشرف كبير وعظيم لي أكثر مما تتخيلون، فــأنتم لا تستطيعون تصوّر مدى تقديري وإجلالي لكم وأنتم تطلعــون علــى آخر كتاباتي، أو على وصيتي، ولو أنها لا تكاد تكون وصية حقيقية. فأنا، وبلا فخر، لا أملك شيئاً ذا قيمة لأوصي به، ربما أثاث المنزل أو سيارتي أو بقية الممتلكات يُعتبرن ذوات قيمة للوصية بهنّ. لكــن لا شيء يهمّ بعد الآن في أي حال. سأملأ هذه الصفحات جاعلاً هذه الليلة آخر ليلة لي في هذا العالم. ورسالتي هذه، بكل دقّة ومسؤولية، أجعلها رسالة انتحار بلهاء.

وجواباً على سبب اعتبار هذه الرسالة بلهاء، ليس بالشيء عسير الفهم، فأنا لا أتوقع أن تكون رسالة الانتحار ذات قيمة عالية لكــم، ربما تكون ذات أهمية لأسرتي ومعارفي ولصديقي الوحيد نيكــولا أو لمن يخصونني ويعرفونني. لكن ما عدا ذلك، لا أتوقع من أي شخص أن يحاول تعكير مزاجه بترهاتي وكتاباتي عن قصة حياتي، بل أكــاد أجزم أن ما أكتبه حالياً سيُطوى في غياهب الزمن والنسيان.

ففي الغد أو بعد الغد، سيكتشفون جثتي تتدلّى مثــل كــيس ملاكمة في سقف الصالة، فينقلونها إلى الطب العدلي وتحفظ مع كل

ما يخصّني في أكياس وصناديق بلاستيكية باعتبارهـــا أدلـــة جنائيـــة. سأتحول من إنسان سوي إلى شيء آخر؛ إلى جثة ضحية مشرّحة في الطب العدلي، وتتحول حالتي إلى قضية، وشقتي إلى مسرح جريمة، أما هذه الرسالة فتتحول إلى دليل ملموس. ولكونهـــا قضـــية جنائيـــة، فالممتلكات الشخصية للضحية «الذي هو أنا» سيتم الاحتفاظ بها إلى حين الانتهاء من الإجراءات القانونية الشكلية، وحتى تزول الشكوك ويبتّ القانون بأمري، ويثبت أن موتي كان عن طريق الانتحار بدعم من الأدلة وشهود العيان. بعد ذلك فقط، نعم. بعد ذلك فقط ربمـــا سيقرأ أحد ويطّلع على هذه الصفحات.

أنا أدرك أن ما أكتبه ليس ذا قيمة لأحد غيري، وحياتي مهمـــا كان من أمرها ليست ذات عبرة وعظة، بل إن ما أكتبه من اعترافات لا يسوّغ أي أسباب منطقية وعقلانية إلا لكي أغمر نفسي وحـــدي بإحساس السكينة والخلاص.

ربما يستفيد من كتاباتي طلبة علم النفس من الـــذين يهتمـــون بتجميع رسائل الانتحار ويبتغون دراستها، فلعلّ ما أكتبه يـــنفعهم في أبحاثهم عن تصرفي المبالغ فيه. أو ربما يطّلع عليها من يزاول أو يـــروم أن يزاول مهنتي ويعتريه الخوف والريبة من أن تكون نهايته مشـــابهة لنهايتي. أو ربما يستفيد منها الشخص الذي يعتزم كتابة رسالة انتحار مثلي فينسخها أو يعتبرها نموذجاً صالحاً للتقليد ولاســـتعارة بعـــض العبارات، يا لفشله! ويا لبؤس وخزي الشخص الذي يعتزم الموت ولا يجد ما يقول فيستعير عبارات الآخرين!

وأخيراً وليس آخراً، ربما ما أكتبه سينشر في مقدمة لكتابـــي في حال تمّت الموافقة على نشره، أو مقدمة لأعمالي إن تنضّدت يوماً ما

في مجلد واحد، وهذا الأمر من سابع المستحيلات.

ما أغرب ما تفوهت به وما كتبته قبل قليل! وما أشد تناقضه مع ما كنت أعتقد وأؤمن به! لأنه يبدو أني، ولسخرية القـــدر، مخطـــئ جداً. وإن ما أكتبه في نهاية المطاف لا يمكن فهمه بأنه عديم الجدوى ولا يمكن فهم رسالة الانتحار هذه بشكلها الكليّ فارغة بلهاء مثلمـــا توهمت بادئ الأمر. بل العكس، فالذين ذكرتهم وعددتهم ممن يهتمون بقراءة ما أكتب ليسوا بالقليلين، ولعلّ عدد من يهتمون بانتحـــاري يفوق بكثير العدد الذي يهتم بوجودي على قيد الحياة! بل إني أُجزم بذلك، وأكاد أتخيل الجموع تقف عند عتبة بابـــي يجلسون القرفصاء ويشدّون على يدي لإتمام الوصية، وأكاد أسمع آخـــرين يشـــتكون ويتأففون من طول الانتظار وهم يروحون ويجيئون متململين بانتظار نهاية مخاض وليدي الموعود!

عموماً، أنا آسف على كل شيء، آسف على إزعاجكم وعلى تحميلكم فوق طاقتكم، وآسف لكل من ألحقت به أثـــراً وصـــدمة وتعاسة من قريب أو من بعيد، آسف لكل من سوف يرى جســـدي معلّقاً في السقف أو يرى أنشوطة تلتف حول رقبتي، ورقـــبتي تميـــل برأسي إلى زاوية ما. آسف لمن يحاول إنزالي في ذلك الموقف، ولمـــن يتحمل ثقل الجثة وعناء إنزالها، آسف لمن يُبتلى بدفني ولكل شخص يروم أن يتحمل على كاهله ترتيب مراسيم الجنازة وتجهيزها.

أنا أعرف أنني سأسبب لكم التكدر والإرهاق. فضـــلاً عمّـــا سيصيبكم من هول خبر الانتحار من حزن وكرب وحداد ومـــا إلى ذلك. لكن ليس بيدي حيلة، فأنا حزمت أمري واتخذت قراراً نهائيـــاً بهذا الشأن. لا أنكر أن الذنب يعصرني لما أُسببه لكم، وأشد عليّ من

ذلك هو عجزي عن مساعدتكم. ليس بمقدوري عمل شيء سوى تحمل تكاليف الجنازة معكم، ولقد تركت في درج المكتب ثمانية آلاف يورو وأتوقع أن يكفي هذا المبلغ لجميع تكاليف الجنازة ويزيد.

الساعة الآن الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل تماماً بلا دقيقة متقدمة ولا متأخرة، أتعلمون كيف تأكدت من دقّة التوقيت؟ بالتأكيد لا تعلمون، فأنا أتعامل الليلة مع الدقائق الثمينة كحبّات الماس، ولكل دقيقة حسباها ووزها الخاص، فتراني أتذوّقها وأشمّها وأكيلها دقيقة دقيقة. وكل الليلة أُديرها بجدول زمني صارم بإشراف وتنسيق مباشر منّي وبمساعدة منبه هاتفي النقّال. أسيطر على كل شيء باحتراف وتركيز حتى يتمّ الأمر على أكمل وجه.

العشاء يكون في التاسعة والحمّام في العاشرة، وترتيب الشقة وتجميع أشياء إيميلي وتجهيز أوراق الكتابة وشرب بيرة أو قهوة أو مشاهدة التلفاز، كل هذه الأمور يجب إنهاؤها قبل الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل. بعدها سأشرع بكتابة رسالة الانتحار حتى يعلن المنبه حلول الساعة الثانية والنصف، وبعد أن أتأكد من أن كل جيراني نيام من حولي، وبدون أي تأجيل وتسويف أتوقف عن الكتابة حتى وإن كنت لم أنهِ جملتي التي بين يديّ أو كان في جعبتي المزيد لأقوله. فما جدوى التأجيل بعد ذلك؟ ولا شيء يستحق البوح به أكثر مما قيل. وعموماً، من ذا الذي يعبأ ويهتم في نهاية الأمر، ففي تمام الثانية والنصف بعد منتصف الليل سأترك ما في يدي وأطفئ الأضواء لأجعل كل ما حولي يذوب في الظلام، وبدفعة بسيطة من قدميّ للطاولتين اللتين أقف فوقهما، سأدلّي بجسدي في الهواء وأحسم كل شيء.

أصدقكم القول، إن محاولة الانتحـــار الســـابقة قـــد بـــاءت بالفشل لأني لم أضع جدولاً زمنياً صارماً كما أفعـــل هـــذه المـــرّة. نعم، لا تتفاجؤوا من ذلك، فإنها ليست محـــاولتي الأولى للانتحـــار، وفي كل مرّة أتلكأ وأماطل لأسباب متنوعة فتنقضي الليلة، وأنا مـــا أزال على قيد الحياة! حينها أقوم بتأجيل الموضوع برمتـــه إلى وقـــت لاحق.

وها أنا ذا، وهذا هو الوقت اللاحق، فتراني اليوم اعتزمت علـــى الانتحار بطاولتين الواحدة فوق الأخرى وأنشوطة تتدلّى من خطاف حديدي في السقف والسلام.

لا تسيئوا الظن بـــي وتستعجلوا الحكم علي رجاءً، فإن فكـــرة الانتحار هي أفضل حدث اختبرته منذ عامين أو أكثر. فما أن نجحت بتحويل أفكاري الانتحارية إلى خطط وأفعال حتى أحسست بشجاعة منعشة تغمرني، بل بنوع من الغرور والخيلاء، فتلاشت كل أفكـــار الخوف، واختفى الشعور بالقلق والقنوط واللاجدوى الذي يجثم على صدري، وأحسست بروح الشباب تعود من جديد، وأصبحت على أرض مألوفة ومستعداً لمواجهة أي تحدٍّ كان.

إن فكرة الانتحار هي الانتهاء الطبيعي لحياتي وليس العكس، لا أريد أن أموت بعمر الثمانين أو التسعين، عجوزاً خرفاً أقبـــع في دار المسنين أحسب الدقائق والساعات، وأندب الحب والحـــظ العـــاثر والشباب الضائع. لا أريد أن أموت مربوطاً بشتى المحاليل الوريديـــة موسوماً بقلبٍ متجلط ومعدةٍ متهرئة وبروستاتٍ متضخمة. مثلي لا يصارع في حلَبة الملاكمة ويقاتل هناك لا لسببٍ مقنع سوى الوصول إلى نهاية الجولة الأخيرة بأي وسيلة ممكنة حتى لوَ اســـتنفذت طـــاقتي

وتورّم وجهي وجسدي، بل إنني افضّل اختيار ميتتي بيدي ولا دخل للقدر فيها.

أما فكرة الحبل والطاولتين فليست فكـــرة انفعاليـــة وعرضـــية ومتسرعة البتّة، بل جاءت من ســـاعات وســـاعات مـــن البحـــث والتنقيب. ياه لو تعلمون كم قضيت مع هذه الأفكار من الوقت لفغر فاهكم وانصدمتم بلا شك! كل شيء كان مدروساً ومتقناً داخـــل رأسي؛ الزمان والمكان والطريقة والأسلوب. لذلك تجدونني اشترطت على نفسي شروطاً صارمة لإتمام المهمة بدون زلّة أو خطأ، فاشترطت مثلاً أن لا أشوّه وأخرّب معالم جسدي، وأن لا أختار مكاناً نائياً لا يعرفه أحد فيتعفّن جسدي ولا يوجد له قرار، وقد حرصت كـــذلك على أن لا يسبب موتي أي ضرر أو حرج لأي شخص آخر.

لذا تراني استبعدت كل طرق الانتحار الأخرى، كـــالحرق أو الغرق أو السقوط من علوٍ شاهق أو ابتلاع سم فئـــران أو مبـــيض غسيل أو صيدلية من العقاقير المهدئة أو رميٍ نفسي أمـــام ســـيارة مسرعة على سبيل المثال. ثم إنني لم أقوَ يوماً على حمل السلاح، فما بالكم إن استعملته بكل فجاجة واستهتار على جسدي؟ لا أخفـــي عليكم سرّاً أنني اشتريت مسدساً قبل عدة أسابيع، لكم أنا خجلان من الاعتراف بما اقترفت؛ فقد كنت طـــوال الطريـــق إلى متجـــر الأسلحة أفكر بما أنا فاعل؟ وأين أضع الرصاصة؟ في القلب أو الرأس أو الصدغ أو الفم؟ وأي مكان يكون فيه الموت سريعاً ولا يتـــرك مجالاً للخطأ والندم؟ اشتريته وحملته راكضاً كأنّي شـــخص يحمـــل جمرة أهمّ بالعودة إلى الشقة. شعرت حينها بالقشعريرة والاشمئزاز، ولوهلة احسست أنني اقترفت أقبح خطيئـــة في الوجـــود، أقـــرفني

السلاح حقاً، فتخلصت منه بكل بساطة واتخذت قراراً حاسماً بـأن تكون نهايتي بحبلٍ وطاولتين.

وها أنا ذا «فرانسوا ليو بروجييه» أقرّ وأعترف أمامكم، أنـني بكامل قواي العقلية سأنهي حياتي منتحراً في ليلة الثامن عشر من فبراير 2016 وبدون تدخل طرف ثانٍ مباشر أو غير مباشر وبدون علم أي أحد كان.

لذا وللمرّة الثانية أطلب منكم أن لا تستعجلوا الحكم عليّ، ولا تلبسوني ما ليس بـي من التهم، ولا تشخّصوني ما ليس بـي مـن أمراض، لست بليد المشاعر أو أخرق التفكير. وإنني لا أعاني إلا مـن عزلة جوفاء قاسية. نعم، إنها لا تتعدى أكثر من ذلك. عزلة جعلـتني أنسى كل ما حولي، وتلاشى معها الاحتياج إلى الاسم، ولم يعـد لي اسم وليس ثمّة ما يستدعي أن يُنادى بـاسمي. وتلاشـى الاحتيـاج للمرآة، ولم يعد لي وجه أو غرض منه، ولا ثمّة ما يستدعي من وجود انعكاس لأميّز به ملامحي.

عزلة جوفاء رغم معرفتي بأنني كائن اجتماعي لم يصمّم للعيش في العزلة، ورغم معرفتي بأن الحياة لم تكن في حدّ ذاتها مصـممة لي، بل للآخرين. وكأنها تتغذّى وتقتات دوماً بحضور الآخرين وتتضاءل وتذبل بغيابهم، وكأن العالم كله محاك بعضه ببعض كبلـوزة يدويـة الصنع. فلا نكون ما نحن عليه إلا بوجود غيرنا والعكـس صـحيح أيضاً.

لكن هذه القاعدة – يؤسفني القول – أن يكون شـاذّها أنـا، وهذه هي معضلتي، ومهما يكن فليس هناك من نظام لا يوجد فيـه استثناء، لا يوجد اختلاف في هذا الأمر، ففي داخلي عزلة تمتصني إلى

داخلي نفسه، ولا أكاد أشعر بشيء مما يدور حولي، وهكذا استأْنست الصمت والوحدة والإحباط المطبق، وهذا أقصى ما يمكنني احتماله وأقصى ما أطيقه من هذه الحياة وهؤلاء البشر وهذا الكوكب.

ثم ما الذي يرعبكم هكذا من الموت؟ أليس الملايين والملايين من البشر قبلي، منذ فجر التاريخ والإنسان الأول، تولد وتموت وتولد وتموت وتولد وتموت؟ فما الذي يخيفكم أن اضفنا كتلة خرقاء أخرى إلى هذا الركام؟ أ لسنا نتكدس تحت التراب الواحد فوق الآخر؟ فما الذي تغير يا ترى؟ أكاد أحسّ أن كل التراب والنباتات والكائنات تنبع من نفس ذرات الموتى، وتعبق بنفس رائحة الجيف المتحللة والهالكة التي نعرفها بيننا برائحة الموت.

لا تشمئزوا من أفكاري أرجوكم، فكل مبتغاي أن تعذروني على ما اقترفت وتتذكروني بكل خير، لا أطمح إلى أكثر من ذلك. اعتبروني فرضية قابلة للنجاح والفشل، اعتبروني ممثل مسرح يؤدي دوراً ثانوياً جداً وقد انتهت حواراته وخرج من خشبة المسرح وأُسدل الستار! اعتبروني كرة يانصيب في حالة دوران، وما زالت تدور وتدور داخل أسطوانتها، ولا تتعدى أمنياتها أكثر من أن يتلقفها الحظّ عشوائياً وتربح حيزاً في ذاكرتكم. وهذا أقصى ما أتمناه.

من يقرأ رسالتي يظنّ أنني هكذا دائماً، ولست سوى إنسانٍ كئيبٍ وملٍّ ونكد المزاج، لذا أرجو تنبيهكم لا غير، وأن لا يؤخذ كلامي على محمل السوء، فأنا عكس ما تظنون جملة وتفصيلاً. ويشهد على ذلك مهنتي، فأنا رسام كاريكاتور ساخر ومشهور.

أنا رسام كاريكاتور محترف وقدير، ما زلت أمارسها مهنة منذ خمسة عشر سنة تقريباً، وأنا عضو بارز في «NCS»[1] ورسوماتي ما زالت مرغوبة في عشرات الجرائد والمجلات. ربّما لا تكون شــهرتي ذائعة الصيت كتشارليز شولز وسكوت آدام وجاري لارســون[2]، لكن رسوماتي الكاريكاتورية ما زالت تملأ الصحف والجرائد مثــل أخبار فرنسا، وريفيرا تايمز، ومحررو ريفيرا، والجمهــور، وعشــرون دقيقة[3] وغيرها الكثير.

وعلى هذا المنوال كنت وما زلت منذ طفولتي، هزلياً ومتهكماً. لديّ مزاج ساخر لا سبيل إلى إصلاحه، ولا يشــبع المقابــل مــن الضحك على سخريتي وتعليقاتي حالما أشرع بالكلام. حتى تجــدني أسخرُ بعض الأحيان من نفسي. لكم كرهني شقيقاي لطبعي هــذا، ورفاقي أيضاً. طبعي هكذا فماذا أفعل؟ هزلي وســاخر، وكــأنني في تركيبتي وتكويني هزلي وساخر. حتى أن سحنتي ما زالــت معروفــة بغرابتها وبإثارتها للضحك والفكاهة.

لا أعتبر نفسي محظوظاً لكوني أتمتع بهذه الصفات، ولا لكــوني أمتهن هذه المهنة. على الرغم من أن المهنة منحتني نظرة تقديرية ممــن هم حولي، وعلى الرغم من أنها مهنة متجددة وعصيّة على الانــدثار ولا تنتهي صلاحيتها، والقراء ببساطة لا يــتغيرون، ولا يريــدون أن

---

(1) NCS; National Cartoonists society

(2) تشارليز شولز (1922) Charles Schulz وســكوت آدام Scott Adams (1957) وجاري لارسون (1950) Gary Larson مــن أشــهر مصــممي الكاريكاتور في القرن الماضي.

(3) French news, Riviera times, Riviera reporter, Le public, Twenty minutes

يكبروا أمام الكاريكاتور. مهما تراهم يبحرون بـــالعلوم والفلســـفة والإنسانيات وما خلف ذلك، إلا أنهم يعودون أطفالاً جوعى أمـــام كاريكاتوراتنا. أنا لا أنكر ما أعطيته من عمق في النكات وفي فلسفة الكتابات، ولا ما صرفته من جهد علـــى جـــودة الرسمـــة وخلـــق الشخصيات، ولا أنكر ما للخمس عشرة سنة من الرسم مـــن قـــدر وحوبة، إلا أنني لا أجد من علّة جليّة تشهد على نجاحي أكثر مـــن الاستمرارية والمثابرة، والقليل من الحظ.

ولكن ما أن غرقت في وحل الكآبة والأحزان، حـــتى عانيـــت الأمرّين، وأحسست بأنه لا يشعر بما أشعر به أحد ولا يعبأ بما يعتريني إنسان، وكأنهم تعودوا على رؤيتي بهلواناً أو فنان مايم أو قرقوزاً يبعث السعادة والمرح في وجوه الآخرين. كم تمنيت أن أقنعهم بأنني أكثـــر من ذلك لكنهم لا يريدون الاقتناع. كان المزاح على مـــرّ الســـنين حليفي وسلاحي وقوت يومي، ارتضيت أن أرتديه معطفاً أستر بـــه أسراري وعيوبـــي، هذّبته وصقلته فأصبح درعـــاً لـــذاتي ووســـيلة سيكولوجية للدفاع عن نفسي، وهذا هو كل ما أنا عليه، وهذا هـــو سرّ تركيبة فرانسوا بروجييه بشحمه ولحمه.

لست خبيراً بأمور الكتابة والرسائل والتدوين، وعملي أسهل من ذلك بكثير، بل إنه يقتصر على الخطـــوط والألـــوان والرســـومات والسكيتشات. لذلك لا أعرف بأي الأمور أبدأ؟ وأي شيء أذكـــره وأؤكد على أهميته؟ وأي شيء أتناساه وأتغاضى عن ذكره؟ بـــل لا أدري أي سخافة تدفعني لكتابة هذه الأشياء؟ لقد عدت وقرأت مـــا كتبت فانصدمت. كيف كتبت هذه الحروف والسطور والفـــوارز على حين غرّة؟ هل تراني أصدّق فعلاً بأنني كتبت كلاماً كهـــذا في

زمنٍ ما؟ ربما سأعيد صياغة ما كتبت من جديد لو كان لديّ المزيد من الوقت. سأشطب الزائد وأشذّب بعض العبارات وأعلّم على الحروف الباهتة. لكنني لا أملك الوقت حالياً، والدقائق تعدو بصورة لا يمكن فهمها ولا أستطيع بحالي هذه مجاراتها واللحاق بها.

أخي العزيز غوليوم، أختي نانسي، كيف حالكما؟ يا لها من بداية تقليدية جداً لبدء رسالة، وبما أننا ما زلنا ضمن القواعد الأولى لكتابة رسالة سأقول لكما إنني آمل أن تصلكما رسالتي وأنتما بأحسن حال مع أزواجكم وأهل بيتكم.

ما إن أتلفظ باسميكما حتى تثار في نفسي الذكريات، أشعر بالاختناق فجأة ويداهمني حنين طاغٍ ومتعجل إلى الريف حيث أراكما صغاراً تلعبان وترفضان في نفس الوقت أن أشارككما اللعب كعادتكما المتنمّرة معي. لا تستغربا أنني لا أزال أتذكر إلحاحي المستمر على أبـي ومطالبته بأن يعاقبكما ويأمركما بالسماح لي باللعب معكما. ولا أزال أتذكر كيف يجلس أبـي في الشرفة بلحيته المتجعدة والمهملة والصاعدة حتى وجنتيه. كان الوعي مسحوباً منه من شدة السكر لا يستجيب لي ويتجاهلني كعادته. يا لرائحة الكروم الفوّاحة التي عبقت بأنفي الآن! أمر رهيب، أليس كذلك؟ الهواء رحب والطبيعة ساكنة والكون واجم. لأي عامٍ تعود هذه الذكرى يا تُرى؟ لقد تقدم بنا العمر واختلطت التواريخ والسنون فأصبحت أشبه بكتلةٍ متحجرة واحدة.

عموماً، ولكي لا أطيل وأتحذلق أكثر من ذلك، سأقول لكما ما لم تسمعاه مني قبلاً؛ أنا آسف. آسف على إهمالي المتعمد لكما وآسف على قطيعتي المستمرة منذ وفاة أبـي دون سبب يستدعي

الإتيان به. أنا أخ ميؤوس منه ومستهتر، أعي ذلك. أنا الخطأ الوحيد في هذه الأسرة، لا أحتاج إلى تذكيري وإيقاظ غضبي الذي لا كابح له ولا رادع، ولذلك لا أطلب منكما شيئاً سوى قبول الاعتذار.

أما أهمّ شيء أذكره في رسالتي الأخيرة فهو أنت يا توماس؛ أنا آسف يا توماس. إليك اعتذار وأسف لا يشابههما أسف واعتذار، مهما تكلمت وتعذّرت وحاولت أن أبوح لك بما يعتريني وأنا اخاطبك الآن لما صدقت الكلمات، بل العكس، فكأنني أحس بالكلمات تخرج من فمي ركيكة، فجّة، هزيلة، لا تشبه ما في داخلي ولا تشفي غليلي.

كم يبلغ عمرك الآن؟ وكم بلغ عمرك حينما سمحت لك ماريان أن تقرأ هذه الرسالة أول مرّة؟ أنا آسف يا ولدي. فقد كنت لا تبلغ من العمر إلا عشر سنوات فقط وقت مماتي! وكيف تتوقع أن أصارحك بما أنا أعتزم فعله؟ وهل يصارح من يهّم بالانتحار أحداً غير نفسه؟ وهل من الحكمة أن يطلّع أحد غيري على نواياي؟

ينتابني الفضول أن أسألك؛ ماذا تعتبر فرانسوا بروجييه حالياً؟ وماذا تجيب الآخرين حين يسألونك عن أبيك؟ أما زلت تشعر بالخجل والخيبة والعار؟ هل تدّعي أنك لا تملك أباً أو تقول إنني لا أستحق أن أحمل صفة الأبوّة في كل الأحوال؟ لا تتوقع أن تجد في جعبتي ما أدافع به عن نفسي. وليس لدي من أعذار وترّهات لأملأ بها رأسك ورأسي لأقنعك وأقنع نفسي بما أنا عازم عليه، فكلانا يا توماس تحت طائلة الشكّ والسؤال، ولكل منا دوافعه وأسبابه، أما أنا فأعجز عن تفسير دوافعي وأسبابي، فأرجوك لا تسألني أسئلة

لا أعرف اجابتها. كلما أُكثر التفكير بك أدرك أن حياتك سارت دون إرادتي، بل إن حياتنا، أنا وأنت على حدٍّ سواء، قد انسلّت من بين أيدينا انسلالاً، وأصبحت وستصبح مغمورة بهذه النهاية السوداء.

أشتاق إليك أكثر مما تتخيّل خصوصاً في الآونة الأخيرة، لكأن جميع وجوه الأطفال الذين أراهم تُشعرني بالشيء نفسه وتُثير في نفسي حفيظة الحنين المغموسة بالوحدة نفسها، أضف إلى ذلك شعور الذنب الأبوي الذي يتعذر عليّ وصفه ووصف كنهه وماهيته.

لا أتذكر تفاصيل طفولتك على وجه الدقّة، ولا يسعف دماغي أن يسترجع متى نطقت أول كلمة لك، ومتى حبْيت؟ ومتى مشيت خطواتك المتعثرة الأولى؟ ولا أتذكر ما كنت تحبه وترغب فيه وما كنت تكرهه وتصرخ باكياً حال رؤيته، وأي لعبة كنت تفضّل اللعب بها؟ لكنّي أتذكر حادثة ضبابية واحدة، كان عمرك ثلاث سنوات حينها، كنت قد استيقظت ليلاً من حلمٍ مفزع على ما يبدو، وأخذت تبكي وتبكي. سمعت بكاءك وأضأت نور الغرفة، وجدتك مطوياً بجانب السرير ومرعوباً في الوقت نفسه، حملتك على صدري وذراعاك يطوقان رقبتي. ما زلت أذكر تلك الليلة إذ كنتُ فيها أباً بكل المعايير على غير عادتي، وما زلت أذكر رائحة شعرك الأشقر الغزير الشبيه بزغب العصافير، حملتك وذرعت بك الغرفة جيئةً وذهاباً، كنت أتمتم قرب أذنك بصوتٍ حانٍ رفيع:

**أرْما أرْما أرْماتا**

**سوسوكين سوسوكين أتامارا**

شعرت أن بيني وبينك رابطاً أشبه ما يكون بحبل السرّة يرفض أن ينقطع أو يتحلل أو يذوب، ولا ينبغي له ذلك وإلا ببساطة سأموت. نعم، هذا هو الأمر، داس الزمن على ذكرياتي الجميلة بخفّه الثقيل الكبير و لم يبقَ لي من الذاكرة إلا أشدها إيلاماً وتعذيباً.

تستحضرني الآن أشد الذكريات وجعاً يا توماس ألا وهي ذكرى فراقك، بل إنها المفترق الذي من بعدها أصاب حياتي الاضمحلال والذبول، كانت ماريان قد انتزعتك من بين يديّ انتزاعاً، هذه آخر صورة جليّة أذكرك فيها، كنت ترمقني بنظرة جوفاء تعود إلى عمرٍ أكبر من عمرك، حملتك أمك على صدرها وابتعدت عني، لكن عينيك كانتا مثبتتين إلى الخلف، نحوي، عينين فارغتين جامدتين. كنت صامتاً لا تنبس ببنت شفّة على غير عادتك، لكأنه لا يوجد شيء في هذا العالم ليُقال، وكأنك احتبست الدموع الطفولية في عينيك الزرقاوين الشبيهتين بعيني أمك.

ما زلت أرى نظرتك عن آخر ذكرى، نظرة حبلى بالعتاب والوجع على ما أظن. كنت صغيراً جداً لتخوض كل هذه المشاعر، لكن.. أصدقك القول، إنني لا أتذكرك ابناً لي إلا بصورة الطفل الذي يحملق إليّ بعينين فارغتين لا تحملان إلا العتاب والشكوى. حتى أن الصور والفيديوهات التي أرسلتها لي أمك ماريان أو التي نشرتها لك في مواقع الإنترنيت وأنت تلعب وتعدو وتقهقه، لم تنافس في شيء ما كنت قد رسمته لك داخل رأسي. كنت أراك طفلاً توّاقاً ملؤه المتعة والتوهج، يكبر يوماً بعد يوم في الصور والفيديوهات. إلا أن هذا الطفل، وأعتذر عن الاعتراف بذلك، لم يكن يعني لي شيئاً، وكأنه

ليس توماس الذي خرج من صلبـــي! وكأنه طفل آخر غريب، وإن ابني توماس لا يزال داخل رأسي متشبثاً بأمه ويرمقني بعيني العتاب.

عامان مرّا وأنا اعاني. خيّم الحزن والكمد تدريجياً بعد فراقـــك على سمائي، حتى أحسست أنني لم أعد أشـــعر بـــالخلاص مهمـــا حاولت، وعند ذلك عرفت مصدر خطأي، وعرفت أنّك سرّ حياتي، ومن دونك لا يبقى لحياتي معنى ولا غرض يستحق، وكأني من دونك لا أساوي شيئاً، خرقة أو وعاء مثقوب. بقيت عامين علـــى هـــذه الشاكلة أعاني إلى أن حدث معي شيء يوماً ما، شيء تافه، لا يكـــاد يكون ملحوظاً ومحسوساً لأحد، شيء بسيط كثيراً ما يحدث شـــيء شبيه له مع الآخرين. لكن الفرق الوحيد يكمن في ما وراء الشـــيء، وكيف يجرّ خلفه أشياء أخر لا يُحمد عقباها. وهذا ما حدث معي في أحد الأيام عندما كنت جالساً في مقهى كافيه مارشـــيه[1]، كنـــت مسترخياً ومقاطعاً ساقيّ ومنكبّاً على جريدة أقرأها، حـــين ناديـــت النادل وطلبت منه القدوم، وما أن جاء حتى شكوته رائحة تعبق مـــن قهوة الأسبيرسو المحترقة لا يمكن تجاهلها، رائحة دخانية مزعجة، كان من الغريب أن يحدث معي هذا الإشكال وفي المقهى الـــذي أرتـــاده تقريباً كل مساء.

كانت المرّة الأولى لهم أن يفســـدوا، علـــى غـــير المـــألوف، مشروبـــي المعتاد، تأسّف مني النادل وأكّد لي أنّــــه ســـيعمل علـــى اكتشاف سبب الرائحة، لكن ما أن عدت في اليـــوم الثـــاني حـــتى اكتشفت أن الرائحة ما زالت موجودة وفي الشراب نفسه، بل كانت هذه المرّة أخبث وأقوى، امتعضت كثيراً ممن يديرون المقهى وقتـــذاك

(1) Café Marché

لكنّي لم أشأ أن أزعج نفسي بالتذمر والشكوى وقررت عدم المجيء إلى المقهى من جديد.

وما لبثت أن أحسست أن هناك رائحة شيء يحترق في شقتي، رائحة كبريت خبيثة مماثلة لتلك التي كانت في المقهى، كانت قريبة إلى حدّ كبير، تفشّت تحت خلايا أنفي لتغمرني بالصداع والغثيان. تفحّصت موقد النار في المطبخ وتفحصت المواسير والرفوف وأزرار الكهرباء لكنّي لم أجد مصدراً محدداً للرائحة، كانت في كل مكان في الشقة، وليست في غرفة دون أختها، في الشراشف والستائر والأغطية، في الدواليب والسجاد وفي الحمّام، شممتها في ملابسي وقمت بتغييرها مراراً، فضلاً عن استحمامي مرات ومرات لكن الرائحة العنيدة لم تزل و لم تخفّ على أقل تقدير. بل إنني لاحظت أن الرائحة لا تعبق في مسكني فحسب بل إني أكاد أجزم أن المجمع السكني بأكمله، والمدينة القديمة كلها بل نيس بعظمتها تعبق بهذه الرائحة.

رائحة احتراق لاذعة دسمة تملأ الفراغ وتزداد زخماً يوماً بعد يوم، كانت خليطاً من احتراق البراز والقاذورات وغاز الأمونيا ممزوجة بالدخان وعفونة الهواء القديم. أقرفتني الطعام فلم يعد لي شهية لآكل شيئاً، كنت أشمها في كل شيء، في الأزقة والطرقات والأعمدة والجُدُر وأسفلت الشوارع وواجهات وشرفات المنازل ومحطات القطار وأبواب المتاجر وعلى ضفاف الساحات والبنايات والمقاهي في المدينة القديمة وبلاس ماسينا(1) وشارع رو دي فرانس(2) وجان

(1) Place Masséna.

(2) rue de France.

ميدوسان[1]، بل إنها كانت تملأ مساماتك يا إيميلي، آسف أن كانت الجملة قاسية وصريحة أكثر من المعقول يا إيميلي، فكلانا يعلم ما آلت إليه الصراحة المفرطة وكيف أنهت علاقتنا بفجاجتها وقسوتها. لكن هوسي بالرائحة المشؤومة هو السبب الحقيقي الذي منعني من النوم معكِ، بل إنها أحد أهم أسباب انفصالنا.

أنت مهمة في حياتي، لا أنكر ذلك، ولا تتوقعي أقل من ذلك. منذ طلاقي من ماريان وأنت لي الصديقة الوفيّة والعشيقة والودودة والأنيسة وحافظة الأسرار. لقد أحببتكِ رغماً عنّي وعنك، وأحببت شعركِ القصير وعينيكِ الطائشتين ونظراتكِ الذكية. لكن ماذا أقول؟ لا أدري، لا أريد أن أبالغ أكثر وأصرّح أن وجودكِ غمرني بالحياة أو أنساني فراقي لتوماس. كان حبك أقرب إلى المخدر المؤقت منه إلى العلاج الحقيقي، وحالما ينتهي ويزول مفعوله حتى تخرج الأعراض الجانبية كالصراصير من جديد وأحياناً تكون أشد وأقسى.

لقد استحوذت الرائحة على ذهني وأطفأت التفكير والمشاعر فيه، انهزمت من نتانة الرائحة، في أحد الأيام، مفزوعاً كحيوان محترق الذيل يركض دون وجهة وهدف محدد، صعدت ترامات وباصات ونزلت من ترامات وباصات لا على التعيين، فإذا أنا وصلت مارسيليا حين مساء، أخذت شهيقاً عميقاً في تلك المدينة وشممت هواءها لعلّ الرائحة تزول لكن دون جدوى.

أيقنت وقتذاك ما كنت أحاول إنكاره، وتأكدت من أن المشكلة لا تقبع في نيس أو مرسيليا أو فرنسا أو الكوكب بمجمله. وأن ادّعائي أن الكوكب تحوّل إلى كرة من غاز سام، وما الرائحة إلا نذير

(1) avenue Jean-Médecin.

بقرب نهاية العالم، كل ذلك محظ خرافة، ولن ينفعني النكران أكثر من ذلك، أن الرائحة ليست بعيدة إلى هذا الحد، بل هي أقرب بكثير؛ إنها داخلي، مغروسة في عروقي، لكأنها تنمو في ممرات الضلوع ومجـــرى الدم، وتتسلل كالنمل الأبيض إلى مساماتي، إنها رائحة عقلي الـــذي تشظّى وتبخّر خلال العامين المنصرمين، ولا بدّ أن أتعـــوّد رائحـــتي الجديدة وأستسلم لها.

أدركت أنني جننت رسمياً، وأن نهايتي آتية لا محالـــة ولا مجـــال للنكران، وليس هناك من أمل أن تعود الأمور إلى مجراها، وأدركـــت أيضاً أن أشياء كثيرة لم تكن كما يجب لها أن تكون، بل إن حيـــاتي هي الخطأ الوحيد في حياتي. فلطالما تصوّرت أن ما أعيشه هو محـــظ مسوّدة أولية لحياتي الحقيقية ولطالما تأملت في داخلي أن أعيد كتابـــة حياتي من جديد بعد عامين أو ثلاثة أعـــوام، وســـأرجع وأرســـم تفاصيلها بصيغتها النهائية. لكن ها أنا ذا انغمست أكثـــر وأكثـــر في مستنقع العفن والكبريت وكل ما خططت له من مشاريع وغايـــات تأجلّ إلى وقت غير معلوم، وها أنا ذا سأبلغ الأربعين من العمـــر في الربيع القادم. انتهت الأعوام بحسابـــي وعدت كلمح البصر بـــدون إنذار.

تذكّرت لتوي تغريدة كُتبت بعناية بالغة قرأتها قبل عدة أيـــام في موقع تويتر، طريقة صقل كلماتها أشعرتني أن كاتبها كـــان يعنـــيني بقوله، يقول فيها:

على كعكة الميلاد
بدلاً من الشموع
أربعون علامة استفهام

مهما أطلت النفخ
لن تطفئ الحيرة
# تانكا

أنا لا أعرف من تانكا هذا، ولا أدرك عنه الكثير، وكلما أردت أن أكتب في محرّك البحث كلمة تانكا لا يسعفني الحماس أن أقوم بذلك فأتغافل وأدعّي النسيان، وها أنا ذا ذكرته في وصيتي فتوجب علي أن أخصّه بكلمة شكر على كلماته الرائعة، فلم أجد كلمات أبلغ لتنافس ما قال وهو يصف حالتي في آخر دقائق لي.

نعم، إنها آخر دقائقي، لن أقول لكم المزيد فقد امتلأت لآخري حقاً واكتفيت، لا تعاتبوني لأني لم أقدم اعتذاراتي للرب، ولم أطلب منه المغفرة والسماح، لقد مللت من هذا الهراء الديني، صدقوني – وآسف لهذه اللغة غير المستساغة – لكن أقسم لكم أنه لا أثر للدين في نفسي، ولولا ذلك لما أصبحت كما ترون شبحاً بائساً حرفياً وعلى حافة الانهيار.

شهورٌ طوال أقف أمام كنيسة القديسة جان دارك[1] الميرينغية البيضاء، أتوسل له بعذراء أورليان أن يكشف عن عذاباتي وهمومي لكنه لم يعر لي انتباهه قط ولم يشغل باله بي. لطالما احتججت له أن يرحمني من المضايقة والأوجاع، وأن يكافئ عبده قسطاً من ملكوته السماوي، لطالما بكيته مراراً وتكراراً وسألته أن يخلصّني من حياتي ويمنحني ثوابه الأبدي. لكن هيهات، كنت لا أسمع منه شيئاً سوى صداي.

(1) Saint Jeanne d'Arc.

لا أعلم ماذا أقول أيضاً، آسف. لقد أزفّ وقت الوداع، يكفي لغواً وإسهاباً فارغاً..

أطلب منكم ومن الرب بالتأكيد المغفرة والسماح.

وداعاً.

فرانسوا بروجييه

## (2)

وضع فرانسوا بروجييه القلم جانباً، أحسّ بألم في ظهره فاتكأ على الكرسي وأغلق المنبه وهمّ بالوقوف، أطفأ الضوء ليضفي شاعرية على عمله الجنوني، صعد فوق الطاولتين بدون تردد وتفكير مطوّل. وضع الأنشوطة حول عنقه، ثمّ...

ثوانٍ فقط ويدفع الطاولة التي يقف فوقها بقدمه، أغمض عينيه، وإذا هو يخوض تجربة غريبة وفريدة من نوعها، وكأنه دخل في بعدٍ آخر ليس ضمن البعد الحسيّ والملموس لعالمنا. كان في كامل إدراكه ووعيه، بل إن الشيء الوحيد المألوف بين يديه هو إدراكه نفسه، وكان واعياً ومتحفزاً أكثر من أي وقت مضى.

ليس بالضرورة أن يكون السؤال هل هو واعٍ أو غير واعٍ؟ هل هو يقظ أو نائم؟ هل هو ميت أو حي؟ في لحظة لا يعلم بطولها وقصرها، فقد كانت خارج حدود الزمان والمكان. كان وحده، بل كان يخلو حتى من نفسه، وقد تلاشت من حوله بقية الأشياء، فكأنه لا أثر لها في أصل الوجود، وكأن من خلفه ومن أمامه الأبد أو الأزل أو العدم أو اللاشيء أو سمِّ ما تحب أن تطلق عليه وتسميه.

فقد العالم الذي يعيش فيه مفهومه ووزنه وكينونته، وغاص في سراب مظلم عميق وكثيف، لا نهاية للسكون والظلام فيه، الظلام هنا أساسي وثابت وواقع بحْت لا شكّ فيه، وليس افتراضاً ولا تجريداً ولا حالة ينعدم فيها الضوء مثلما ينظر إلى الأمور بسطحيتها. وجد نفسه يغوص داخل فراغ مقفر ومظلم أشبه بفم بئر بلا قرار، فلا صوت ولا لون ولا هواء هناك.

أميال جرداء من العتمة.

ثم، وفجأة في مشارف ذلك العالم الموحش، باغته شعور بوجود ثغرة دقيقة نفذ منها بصيص ضوء صغير، كان توهج الضوء بسيطاً وضئيلاً لكنه قوي كفاية ليزعج العين ويؤلمها، أحسّ بعدها بتيار هواء جارف، ثم تداخلت الأصوات واستعادت الحواس وظائفها. تحسس ورأى وشمّ وميّز التشابهات والاختلافات. ثم ما لبثت أن أصبحت الخيالات صوراً سوداء وبيضاء ثم تلوّنت فتحرّكت فأصبحت حقيقية ثم أكثر واقعية، كانت الصور واضحة لا مراء فيها، بل إن فرانسوا بروجييه كان جزءاً لا يتجزأ منها.

دخل في عوالم من كل أصقاع الأرض، عوالم متباينة وراسخة في الوقت نفسه، كان يتنقل بينها كأنه شخص يحمله قارب متجه دون إرادته نحو شلال، ظهرت العوالم وتلاشت ثم ظهرت وتلاشت مرّة أخرى وهكذا دواليك؛ طاف في حيوات وأسرى بين حيوات على امتداد خطوط الطول والعرض بلا حدّ ومحدود.

رأى نفسه طبّاخاً آسيوياً يعتمر قبّعة مصنوعة من ورق مقوى ويقلّب بمقلاته في أحد مطاعم الأكلات الشعبية، ساعد مجموعة من الصيادين المتعبين من إفراغ حمولتهم في شاطئ جزيرة لاتينية، شارك في حفلة ماجنة لطلبة يترنحون على أنغام أغنية إيطالية في نادي ليليّ صاخب، وجد نفسه بعدها ينود برأسه مع حفنة من اليهود بخشوع مبالغ به وقت الفجر عند حائط المبكى.. وهكذا تتابعت العوالم، واحداً تلو الآخر، وما أن انتهت التجربة فجأة حتى وجد نفسه في مشهد مجنون آخر لا يشبه واقعه في شيء، فلم يكن فرانسوا بروجييه في شقته ولا الحبل حول رقبته حين انتهت رؤياه.

وجد نفسه متوثباً في أكوام ترابية وراء ساتر في منتصف جبهة قتال ما، كان الوقت ينذر بحلول أول خيوط الفجر، ولا يزال ضوء القمر يملأ الأرض بالوهج الناعم الأبيض ولا يبدو في كبد السماء من غيوم تقوى على تغطية الضياء. كان يحمل في يديه رشّاش كلاشنكوف، وكانت أصابعه تضغط مسبقاً على زناد الرشّاش بتلمّس متشنِّج ومتحفِّز وعجول.

وجد نفسه في خندق ترابي ضيّق بالكاد يتسع له ولزميله الذي يطلق من رشّاش بجانبه أيضاً. نعم، لم يكن وحده، كان هناك شخص أسود البشرة إلى اليسار منه ويرتدي زيّاً عسكرياً غريب الشكل واللون مثله تماماً.

لم يكن ذهن فرانسوا بروجييه يستجلي أن يكون هناك خطأ في تسلسل الواقع، ولم يكن يستوعب ويهضم الأمور الجديدة ولم يعدّ ما يفعله ذا قيمة، كان ذهنه يبحر في الخواء، وكانت أصابعه تطلق النار كيفما اتفق مكملةً مسيرة ما وجدته فيه. لذلك أخذ يضغط الزناد على الرغم من أنه ليس من محبّي الأسلحة ولا من مقتنيها، وعلى الرغم من أنه بالكاد يعلم أن ما كان يحمله رشّاشاً، وعلى الرغم من عدم إدراكه لماهيّة السبطانة وماهيّة حجرة الانفجار والأخمص والمخزن؟

هل كل ذلك خيال من أخيلته؟ شيء مصطنع؟ أو لا؟ كانت الأحداث أكثر في وضوحها وتفاصيلها من أن تكون محض خيال، وأكثر في شموليتها وغرابتها من أن تكون حقيقية. ولا يمكن أن يكون المشهد عبثياً أو اعتباطياً بل كانت المواجهة قتالية دامية لا مناص منها، ويؤكّد ذلك التماعات النار في الجهة المقابلة، وأزيز الرصاص المدوّي فوق الرؤوس.

سريعاً نفذت الرصاصات، وهذا ما لم يكن في الحسبان، ألمّ بـه الرعب والرهبة وخرّت رجلاه و لم تعودا تقويان على حملـه كأنما وصل إلى كوكب آخر تختلف فيه الجاذبية والموازين. تهاوى في مكانه وجلس القرفصاء، كان يرتعد دون توقف واستبدّ بفمـه الجفـاف فأصبح متخشباً كالبلّوط. اختلطت على أنفه الروائح فكانت مزيجـاً من الهواء المفعم بالغبار المتصاعد ورائحة الاحتراق والـدم ودخـان البارود.

من البديهي أن لا يعرف فرانسوا بروجييه شـيئاً عـن تلقـيم السلاح، فضلاً عن قرفه واشمئزازه من ملمس السلاح وحمله ورائحته. لكن كل ذلك بات مختلفاً في تلك الأجواء. وكان همّه الوحيد هـو الخلاص من هذا الموقف الخطر وكأنه ليس نفسه الشـخص الـذي اعتزم الانتحار قبل دقائق قليلة. ارتعب من أن يندفع العدو نحـوه إن اكتشف رشاشه الصامت، وكيف له الاسـتمرار بـلا دفاعـات واحتياطات، وما هوّن عليه شيئاً سوى رشاش زميله الذي ما يـزال يناوشهم بالرصاص بحركات سريعة ودفعات صـغيرة وتسـديدات مباشرة وخبيرة.

هكذا استوعب فرانسوا بروجييه أنه في جبهة قتال، شعر أن كائناً خرافياً تلبّس به وبات يملك حواساً جديدة، وشرع عقلـه بالتفكير بما لم يكن مألوفاً لديه من قبل؛ أين أنا؟ وماذا أفعل هنا؟ وهل من المفترض بـي أن أختبئ أو أنبطح أو أهـرب أو أبقـى مرابطاً؟

انصدم حين أدرك ما حلّ به، كأنه دخيل على جسد غـيره، تمعن في حسده الجديد واستعجبه، كان ضعيفاً ومسلولاً ومتحرشفاً

أشبه بحيوان زاحف، وكان يرتدي ملابس عسكرية متهرئة صفراء وينتعل خفّاً لا يناسب ملابسه، وفضلاً عن كل ذلك كان ذا لون زنجي فاحم شديد اللمعان. أدرك من طبيعة الجوّ العام للمكان والملابس والسلاح والوجوه من أن المنطقة تابعة بشكل ما إلى القارّة الأفريقية. حاول بمرارة أن يسترجع الفاصل الزمني المفقود وقتئذٍ ليكتشف كيف انتهى به الحال في هذا الموقف لكن دون جدوى، بحث عن هاتفه النقّال لكنه وجد في المقابل هاتفاً رخيصاً ومحفظة لم يرَ مثلها قبل اليوم، خارت قواه واستسلم وبدأ شيئاً فشيئاً يذبل دون أن يعلم لذلك سبيلاً، غطى وجهه بين يديه وشرع، كطفل تائه، بالبكاء.

ظنّ في بداية الأمر أن التعب قد أخذ منه مأخذه، لكن الأمر كان دون ذلك، فقد أحسّ بدفء وثقلٍ غير اعتيادي في بنطاله، كان قد ضربه شيء في فخذه في اللحم أسفلَ الحوض وأدرك وقتذاك أنها رصاصة. لم تسبب الرصاصة له ألماً لكن الدمّ لا يريد أن يتوقف بسهولة بالرغم من أنه لم يندفع اندفاعاً لكن غزارته أغرقت البنطال وصبغت الأرض من تحته بالأحمر القاني.

غلبه الرعب وتمنى أن يكشف عن الجرح ويكتشف مدى سوء حالته ويعقمه ويضمده، ولكن من الصعب تحقيق ذلك. نظر إلى زميله ليرتجي منه المساعدة لكن زميله قد اختفى من مكانه، بحث حوله فوجده مرتدّاً على بعد مترين إلى الخلف وممدّداً على ظهره ومتهاوياً، كان زميله يحدق صوب السماء، ولو لم تطرف عيناه لظنّ أنه من عداد الموتى. زحف نحوه ودنا منه فوجده صامتاً، كان يحتضر، وعلى الرغم من أنه يأنّ ويتأوه لكنه لم يحرّك عضلة واحدة.

فكان بلا شكّ يلفظ أنفاسه الأخيرة. سمعه يهمهم بأصوات يتيمة وغير مفهومة، بحث عن جرحه فوجده في منتصف منطقة البطن، كان ظاهر بطنه يعلوه ثقب رهيب يمتدّ منه طوفان من الدم غطى ملابسه في لحظات.

حاول أن يحمله بجهد لكن فرانسوا بروجييه كان منهك القوى أيضاً، تمنى أن يعطيه شيئا من الماء ليبلّ ريقه لكن لا أثر للماء من حوله، ولم يكن من حاجة للبحث لأن فمه انفتح وانغلق طلباً للهواء، وانتفض جسده انتفاضات عنيفة، وانطبقت بعدئذٍ شفتاه وهمد تماماً.

انسحب فرانسوا بروجييه وزحف أعزل دون ساتر أو سلاح أو تغطية نار. تقهقر إلى الخلف متمنياً الخلاص. سمع صوت انفجار قريب، وشبّت بعد ذلك نار في الجهة المقابلة القريبة من شرك حديدي لمعتقل أو شيء من هذا القبيل. بدأ الهواء بالاهتياج وتطايرت رقائق الدخان الأبيض هنا وهناك. كانت الرؤية عظيمة ليس بفعل ضوء القمر الذي كان يضيء المسافة المحيطة مما حوله فحسب، بل بفعلِ الضوء الباهر لألسنة النار التي جعلت الأشياء تبدو أكثر وضوحاً ورعباً وواقعية، اصفرّ وجهه حينما شاهد منظر الصرعى وهم يملأون الأرض وكمية الخراب، كل شيء بات مسخماً ومترّباً ومحترقاً من حوله، وكأنه ملفوف بسديم من الدمّ والدخان والتراب.

ومن دون سابق إنذار، قفز على بروجييه رجل ضخم طويل القامة تبدو على وجهه ملامح الجلافة والصلابة. من أين خرج هذا على حين غرّة؟ لا أحد يعلم. كان شاباً زنجياً فاحم البشرة هو

الآخر، وكانت عيناه تتوقدان بشرر من الغضب والكراهية، وكان أملس الوجه والصدر نصف عار، ووجهه مزخرف بالشلوخ الصغيرة متوزعة بالتساوي بين جانبي خديّه وحول فمه لتعطياه شكلاً شبيهاً بالقبائل الأفريقية المندثرة.

تصارعا بعنف ووحشية وكل منهما يحاول قهر الآخر، فمرّة يقع هذا تحت الآخر ومرّة العكس، حتى انقض باهتياج على فرانسوا بروجييه وطرحه أرضاً بكل قوة دون أن يدع له فرصة للحركة والإفلات، أخذا يتقلبان فوق التراب، لكن عدوه يمتلك قوة وصلابة أكثر منه، بل كان يبدو وكأنه يدخر قواه للنهاية خلافاً لصاحبنا الذي كانت قبضته لا يُعوّل عليها.

أراد فرانسوا بروجييه أن يمسكه مسكة محكمة لكنه أفلت منه وأخذ يضربه ضربات متتابعة على وجهه وصدره وبطنه. استلّ بعد ذلك سكيناً من غمده بسرعة فائقة، فجفل فرانسوا بروجييه من منظر السكين. لم يكن في حسبانه أن يحسم العراك بهذه الصورة السريعة، جثم الرجل فوقه وأخذ بيديه الضخمتين يدفع سلاحه تجاهه. وعلى الرغم من أنه أخذ يقاوم ببسالة إلا أن الرجل عزم على إنهاء الحال سريعاً للكفّة الراجحة.

وأما ما حدث بعد ذلك فقد كان ضبابياً باهتاً وليس واضحاً بصورة دقيقة في الذهن، ولا يتذكر فرانسوا بروجييه منه إلا أطيافاً تلوح في ذاكرته لا يمكن الاعتماد على صحتها:

الرجل الأسود يجثم على صدره.. سكين تطبق عليه بإحكام وفي طريقها لا محالة لذبحه.. صوت قرقرة.. عدوه يتراخى فجأة.. شخص آخر ينتزع السكين من يد عدوه ويرميها بعيداً.. يسقط الرجل

بجانبه.. أحد ما يركل العدو بقدمه.. أصوات هنا وهناك.. ثلاثة أشخاص أو أربعة يحملونه، ومن ثم فقد الوعي وتلاشت الأصوات وأبكمت، فكأنها لم تكن في أصل الوجود.

## (3)

لتلخيص ما حدث، وبدون لفّ ودوران وإضاعة الوقت في الديباجات؛ إن فرانسوا بروجييه قد خاض تجربة فريدة من نوعها في بوابة أو بعد لا طبيعي لينقله من جسده في نيس جنوب فرنسا إلى جسد ياي ود واك آبور في جبهة قتال في ملكال حاضرة ولاية أعالي النيل جنوب السودان، وتكاد تكون هذه التجربة هي عينها التجربة التي نقلت جن – سونك من كيم تشك في كوريا الشمالية ليحلّ في جسد علي معن في بغداد وسط العراق.

ومن الواضح أن كلاًّ من فرانسوا بروجييه وجن – سونك قد دخلا في اللحظة الزمانية نفسها وفي نفس البوابة الغامضة وهكذا حلّا في أجساد مختلفة مكانياً وتكوينياً عنهما، فتبدّل العالم المحيط فجأة وتغيرت أمورهما جذرياً، ولكن ماهيتهما بقيت هي هي لم يطرأ عليها أي تغيير ملاحظ ومدرك.

الفرق الوحيد الذي حصل والذي يعدّ من أكثر الأشياء إبهاماً، هو تقبلّ المصير بصورة غير متوقعة من فرانسوا بروجييه، ويمكن ملاحظة أنه تعايش بسرعة مع ما حلّ به وكأنه شيء محتّم لا رادّ له ولا بدّ منه على عكس جن – سونك الذي جنّ جنونه خلال أيامه الأولى في بغداد! ربما يكمن السبب في أن فرانسوا بروجييه كان مستعداً لإنهاء حياته مشنوقاً قبل لحظات، أو ربما لأن جن – سونك قد عاش طوال حياته في ترهيب ورعب من المجهول ما أضفى على شخصيته وجوهره طابع الخوف والاضطراب.

في أي حال، قد لا يكون كاتب السطور قد أوضح حتى الآن العلّة والسببية والكيفية التي آلت وأدّت إلى كل هذه التغييرات، إلا أن القارئ بلا شكّ قد توضّحت لديه الصورة لجميع تفاصيل تلك اللحظات المهمة.

## ملكال/جنوب السودان نهار 18 فبراير 2016

**(4)**

"... وندين ونستنكر الاعتداء الجبان على المدنيين في مخيمات اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، ونحمّل اليونيميس[1] المسؤولية الكاملة عن فشلها في حماية المدنيين العزّل هنا في ملكال، ولا شك إن هذه الانتهاكات تحتاج إلى تكاتفنا جميعاً من أجل وضع حدٍّ لكل من تسوّل له نفسه النّيل من وحدتنا. في الوقت الذي ندعو فيه بل ونطالب الجهات العليا واليونيميس بالتدخل السريع بتشكيل فريق تحقيق ميداني مختص ليأتي بأقصى سرعة ممكنة إلى ملكال لتقصي الحقائق ومعرفة المسؤولين عن هذا الاعتداء السافر وتقديمهم إلى العدالة، كذلك نناشد المجتمع الدولي والمنظمات غير الحكومية لتهيئة كل مستلزمات إنقاذ المدينة من الخراب الذي حلّ بها وتوفير الدعم الإنساني من مأكل ومشرب وملاذ وأدوية وكل ما تحتاجه...".

سمع فرانسوا بروجييه صوتاً خافتاً مشروخاً يأتي من بعيد، كان صوتاً يتكلم بإنجليزية مهجّنة بلكنة أفريقية، تهاوى إلى مسمعه الصوت البعيد مثل همسات خافتة أو كأنه يخرج من صندوق مغلق، وظلّ صدى الصوت يتردد مراراً كما لو كان في نفق، أراد أن يفتح عينيه فلم يستطع، كان دائخاً متقلقل الرأس، وكان يرى كل شيء ضبابياً

(1) (UNMIS) United Nations Mission In Sudan.

أمامه، وببطء وكأن عقله المحنّط قد بدأ ينشط ويحيى ثانيةً، ارتفع الصوت شيئاً فشيئاً، وأصبحت الصورة أشد وضوحاً. حتى تشكّلت أمامه صورة الشخص المتحدث صاحب التصريح السابق واقفاً أمام الكاميرا.

كان الشخص متوسط العمر هزيلاً وزنجياً أيضاً ذا وجه متقلص ورأس أشيب وبدلة رسمية رثّة بنيّة اللون، وكان متحفزاً ومهتماً لما يقوله للإعلامي المحاور له، على الرغم من أن خلف الكاميرا يقبع بالإضافة إلى المصوّر عدد ليس بالقليل من الفضوليين والأطفال الذين بالكاد يتمالكون أنفسهم من الضحك والاستهزاء.

كان المكان عبارة عن قاعة طويلة في سُدل أو مخيّم واسع هائل الحجم متهالك السقف ثقيل الهواء من ازدحام الرجال والنساء والأطفال، ومن الكادر الصحي والمرضى، الذين لا يفصلهم عن الأصحاء سوى خرقة بالية من القماش الأبيض.

وكان الجو أشبه بجو مهرجان أو سيرك أو معتقل كبير، بل قد تفشل كل المخيلات الخلاّقة والتصوّرات الخصبة من إعطاء الوصف الدقيق للضوضاء المهولة والهواء الفاسد الذي يملأ المكان بمحفزات الغثيان.

وكان كل من حوله، ومن ضمنهم هو نفسه، فاحمي السواد كبشرته. وكانوا يتدافعون داخل المخيّم كسحاب من الحشرات. الرجال متخبطون لا تعلم لهم علّة وسبيلاً، والنساء يرتدين رداء ملفوفاً حول أكتافهن بألوان لا تتناسب مع أوضاعهن، بعضهن سابلات أيديهن لا يحملن شيئاً، وبعضهن يحملن طفلاً أو طفلين أو سلّة أو قدراً أو حصيرة ملفوفة أو صرّة من الملابس فوق الرؤوس.

وكانت تقف هنا وهناك مجموعة من أربعة أو خمسة أشـــخاص يتكلمون فيما بينهم بحوارات غريبة ولغة أجنبية، ولم يكن بروجييـــه يدرك من لفظ الحديث ولا يميز من الأقوال، وأخذ ينتبه إلى تطورات أحاديثهم فقط ولم يعنه شيئاً مما يقولون. لكن ذلك لم يمنعه من مراقبة أفراد هذه المجموعات وتلك، بل زاده ذلك هوساً من أن يتطلّـــع إلى كل شيء فيهم؛ إلى هياكلهم وسحنتهم وأحجامهم وملامحهم، وإلى غرابة أزيائهم وشذوذ سلوكياتهم وإفراطهم في الكلام.

شعر فرانسوا بروجييه أن البشر هنا يتصرفون التصرفات ذاتهـــا، ويتشاورون ويضحكون ويتكلمون بالمواضيع عينها، وانتابه من ذلك شعور عميق بالوحدة، كأنه الشخص الوحيد الـــذي لا ينتمـــي إلى المشهد، بل كأنه يتفرج إلى فلم سينمائي أو تقريـــر تلفزيـــوني أو إلى نشرة أخبار، فلم يكن يعتقد إن لهؤلاء المساكين وجود حقيقي قبـــل هذه اللحظة.

كانوا يجتازون المكان ويدخلون ويخرجون وأفواههم مشـــغولة بالحديث بأصوات واضحة ونفّاذة، ويتصايحون في حـــديثهم دونمـــا سبب. وبين الحين والحين يقطع حديثهم مكبّر الصوت بوتيرة نداءات لا تتبدل أشبه بالإيقاع المكرر لأسماء من كل صنف ونوع، أطباء أو ممرضين أو أن تكون محض توجيهات لنزلاء المكان.

أما المرضى القابعون بجواره فقد كانت تغلب على وجوههم علامات اليأس والإرهاق، وكان الذباب يحـــوم حـــولهم دون أن يتضايقوا، بل إن بعضهم كانوا مضـــمّدي حـــروقهم أو مجبّـــري أطرافهم وآخرون عراة أو أشباه عراة وما زال الـــذباب يطـــوف حولهم بلا استئذان.

من البديهي أن لا يكون لفرانسوا بروجييه أي فكرة واضحة عمّا حدث في الليلة الماضية وما يحدث حالياً في مقر حماية المدنيين في ملكال، فقد كان هو – أو الشخص الذي كانه – يدافع مع قوات حفظ السلام عن مخيمات اللاجئين من اعتداءات غير معروفة الهوية والمصدر.

اندفعت الدماء إلى رأسه وشعر برغبة ملحّة في التقيؤ، أسند رأسه إلى حافة السرير، فليس من السهل أن يتأقلم دماغه ويتكيّف بسهولة وسلاسة بين ليلة وضحاها. ورغم اضطجاعه على السرير إلا أن جسده بدا منكمشاً ومضغوطاً. تحسس لزوجة السرير الجلدي الملتصق بظهره المتعرق، كان عارياً تماماً إلا من لباس داخلي بائس، وكان فخذه يؤلمه مما أعجزه عن الإتيان بأي حركة زائدة، وما زالت رجله معلّقة كيفما اتفق في الهواء بخرقة من القماش. وزدْ على ذلك أن مسرح الحدث يختزن غرابة تجبره على الاقتناع من استحالة الحركة وعمل أي شيء.

وعند هذا الحدّ تقدّم خيال شبحٍ نحوه واقترب منه، مثُل ووقف أمام السرير فكان شاباً عشرينياً هزيلاً، وجل فرانسوا بروجييه وارتعب لوهلة منه حتى تكلم الشاب وضحك بابتسامة كشفت عن فمه المليء بالأسنان، وتحدث معه بلغة شيلكاوية كأنه يعرفه:

– أبي نجالدونق؟ ايكاداكج[1]؟

كان منظر الشاب ظريفاً ومحبوباً يستحوذ على الوجدان، وقد بدا في ضوء المخيم كابن آوى يتقافز فرحاً لاستيقاظ مريضه المصاب واستعادته لوعيه، ولم يكن هذا الشاب – في الواقع – سوى حماه

(1) كيف حالك يا صاحبي؟ هل أنت على ما يرام؟

الصغير «أكول»، كان فرحاً مستبشراً من استيقاظ نسيبه، إلا أن فرانسوا بروجييه لم يشاركه الغبطة والحماس على الإطلاق، وبقي كما هو ينظر نحوه بترقب وشزر. وكيف له أن يعلم من الذي يقف أمامه ليشاركه الغبطة وكيف يعلم لغات الشلك والنويّر والدينكا والعربية وأنيواك والمورلي والكوما والبرون.

كان قلق أكول في محله حين توقع شيئاً غير صائب حدث لنسيبه، فقد وجده شارداً متشنجاً لا يتفاعل معه على غير عادته. لم يرتح إلى ما رآه فتصرف وهرع مسرعاً إلى الطبيب واستدعاه. وما أن جاء الطبيب حتى تفحصه بسرعة دون أن يتحدث إليه، ودون أن يستأذنه في شيء، وكأن المريض لا رأي له الآن. تنقّل الطبيب بين يمين السرير ويساره ليعاينه بدراية وخبرة غير متصنعة، جسّ نبضه وقاس درجة حرارته وفحص بؤبؤي عينيه بمصباح صغير وراقب استجابتهما للضوء ونظر إلى ما تحت جفنه الأسفل وقام بإخراج لسانه وحرّك رقبته، ثم تمعّن في يديه وتفحص ما استطاع من أعصابه.

بقي فرانسوا بروجييه صامتاً ومستسلماً طيلة مدّة الفحص، حاول أن يخمد إحساس الهلع الذي تعاظم في داخله لكنه لم يستطع، ولم يجد حيلولة من أن يسأل الطبيب باللغة الفرنسية أو الإنجليزية لعلّه يفهم ما يدور حوله، وقال:

- أتتحدث الفرنسية أو الإنجليزية يا دكتور؟

توقف الطبيب لحظة خاطفة ليستوعب مصدر الصوت، وما أن رأى أن المتحدث المريض نفسه حتى أجابه بنبرة صوت معدنية:

- بالطبع يا نجل أتحدث الإنجليزية، كيف أساعدك؟

كان الطبيب يزوّق كلماتـه ويطعّمهـا بـبعض الكلمـات الشيلكاوية، لكن فرانسوا بروجييه لم يعـر لـذلك انتباهـاً. تـابع استفساره بصوت ضعيف يختلط فيه الاستهزاء والتهدّج:

- أين أنا؟
- لماذا؟ ألا تعلم أين أنت يا نجل؟
- كلا!
- ولا حتى اسمك؟
- لا، إنني أتذكر ذلك، لكن ذاكرتي تخونني في مـا يتعلّـق بوصولي إلى هذا المكان.
- لكنّك تتذكر الأحداث التي سـبقت وصـولك إلى هـذا المكان، أليس كذلك؟
- أتذكر أنني كنـت في مسـكني.. ثم في قتـال مـا.. ثم استيقظت.. فوجدت نفسي ها هنا..!
- وهو كذلك، تحتاج إلى بعض الوقت لتستعيد عافيتك ليس إلا.
- أستميحك العذر لسوء التفاهم الواقع بيننا يا دكتور، إلا أن وجودي في مسكني شيء ووجودي ها هنا شـيء آخـر. يبدو أن فكرتي لم تصلك كاملة حتى الآن يا سيدي، إنني لا أنتمي إلى هذا المكان؛ إن أسمي هو فرانسوا ليو بروجييـه، أعمل رسام كاريكاتور، ولا أقطن في هذه الأنحـاء علـى الإطلاق، أنا أسكن في سان موريس في شارع ألفريـد دي موسيه[1].

(1) Avenue Alfred De Musset, Saint Maurice.

فسأل الطبيب متهكماً:

- وأين يقع هذا الشارع يا تُرى؟
- في نيس؟

لم يبد على الطبيب أنه فهم فتابع حديثه:

- في فرنسا؟ أين أنا يا دكتور لا تقلقني أكثر مما أنا فيه؟

ضحك الطبيب متوقعاً أن يبادله المريض المزاح، إلا أنه لاحظ تعابير وجهه الجدّية فتأكد له أنه لم يكن يمزح قط، ولاحظ أن لغة المريض الإنجليزية متمكنة أكثر من لغته، وأن هناك شيئاً في صوته يجعله يؤمن أنه لا يدّعي ما يقول، فارتأى أن يفحصه مرّة أخرى بأناة وإسهاب أكثر، ولم يرد أن يستعجل التشخيص، فنادى له طبيباً آخر سأله نفس الأسئلة التي يصعب الإجابة عنها، ثم جاء طبيب آخر وآخر وآخر، وتحدثوا مع بعضهم عن حالته بلغة لم يكن يفهمها، وكان ينظر إليهم متوسلاً، وبعد أن أنهوا الكشف السريري وأخذوا منه عينات دمّ وإدرار عاد إليه الطبيب الأول وسأله قائلاً:

- ما اسمك مرّة أخرى؟
- فرانسوا بروجييه.
- عمرك؟
- تسعة وثلاثون عاماً.
- وما جنسيتك؟
- فرنسي.
- متزوج؟

- مطلّق.
- هل تعرف هذا الشخص؟ وأشار إلى أكول.
- بالطبع لا أعرفه!
- وهل تستطيع أن تتذكر اليوم والتاريخ؟
- الخميس، الثامن عشر من فبراير، 2016. هذا آخر تاريخ أتذكره قبل أن...
- وهل تستطيع أن تقول لي أي شيء تعرفه باللغة الفرنسية لو سمحت؟
- مثلاً.. سيكوا سي بورديل[1]؟
- وماذا تعني؟

فأجاب مستظرفاً:

- من الأفضل أن لا أجيبك عمّا تعني!

كان أكول يراقب المحادثة مصدوماً وغير مصدق كيف نزلت هذه القوى العجيبة على نسيبه ليتحدث بهذا التمكّن والسلاسة بلغة أجنبية؟ وتطلّعت كذلك وجوه نهمة توّاقة، يستمعون إلى المحادثة الخرافية بين الطبيب ومريضه ويلتقطون أي جديد يصدر منهما، وتجمع آخرون خلف سابقيهم يمطّون رقابهم ويرتجون أن يشاهدوا ولو بريق هذا الإنسان الأسطورة، وتجمهر المارّة الفضوليون يسألون الأسبقين ماذا هناك، يهمهمون ويدمدمون، فدونما شكّ أن المحادثة هذه ستصبح حديث الساعة في المخيّم.

وانبثقت كذلك من بين الزحام امرأة متوسطة العمر يبدو من سحنتها أنها تعرف المريض حقّ المعرفة، لا بدّ أنها زوجته. كانت

---

(1) C'est quoi ce bordel.

صغيرة الحجم كبيرة الحواس والملامح، وكانت الشرايين الزرق تـــبرز من رقبتها، وكانت ترتدي عصابة حمراء تجعل وجهها أصغر مما يبدو بكثير. شقّت الجموع ودنت من سرير المريض تتمتم وتدمدم ضاحكة مستبشرة. لثمت فرانسوا بروجييه بقبلة صغيرة على جبينه وجلســـت على مقربة منه، وتكوّم بجانبها صبيان وبنات صغار فـــور جلوســـها بجانب المريض.

لا أحد يعلم كم كان عدد الموجودين والمتنصتين، لكنهم ليسوا بالقليلين، وكلما كثر العدد كثرت الأقاويل تباعاً وحيكت الأساطير حول البطل العائد المثقل بالجراح الذي وهبته السماء معجزة ليتحدث بلغة جديدة ومتقنة مثل لغته الأم. ولا شك أن هذا الخـــبر الطـــازج سينتشر كالعدوى الوبائية في زمن قياسي في كل المخيمـــات. خـــبرٌ متخمٌ بالغموض، خسارة كبيرة إن لم يبالغ في حكايته ويهوّل بهـــا، وعلى الرغم من أن هذه الحكاية العجيبة ستثير القلاقل والبلبلة الـــتي كان ياي آبور أو بالأحرى فرانسوا بروجييه في غنى عنـــها. فكـــان يجهل ما يفوته وراء الكواليس، وقد أبهرته كثرة الأعـــداد المتجمعـــة وأعجبه حال وجوههم الكالحة، فقال بلهجة متهكمة يشـــاور بهـــا الطبيب:

- هل غزانا الزنوج أو ما شابه يا دكتور؟ وإذا لاحظت فأنـــا أبدو بشكل ما مثلهم.
- ما زلت أرجو أن تكون محقاً في خيالاتك يا سيدي، إلا أنه يؤسفني أن أخيّب طموحاتك وأبلغك إن الأمر يختلف قليلاً عمّا تتوقع.
- ماذا تقصد؟

- لا شيء مؤكد حتى الآن، لكنني أعتقد أنك تعاني من «شِراد عقلي»! لا أعرف، هذا الرأي سابق لأوانه، ولكي نتأكد من التشخيص لا بدّ من إجراء فحوصات مكلفة، وتحاليل مختصّة، وصورة رنين مغناطيسي لدماغك، وهذا الترف لا تجده حتى في جوبا للأسف الشديد.
- لم أفهم شيئاً مما تقول!

أجابه الطبيب بصوت خالٍ من أي تعبير كأنه يريد أن ينهي الحوار برمته:

- سيدي الفاضل، أنت لست فرنسياً في شيء. أسمك ياي واك آبور، أنت جندي شيلكاوي في قوات حفظ السلام من فشّودة، إنك متزوج ولديك...

وأخذ يعدّ بسبابته الأطفال الجالسين على الأرض، لكنه تململ في لحظة ما وفضّل أن يسأل الشاب الواقف بجانبه فأجابه:

- آبيجو واتا.
- لديك خمسة أطفال يا سيدي، وأنت تعيش حالياً في ولاية أعالي النيل في جنوب السودان، في ملكال، وتحديداً في مخيمات اللاجئين، وتحديداً أكثر في قطاع «إيثباتكوي»... هل... فهمت...

وقبل أن ينهي الطبيب جملته الأخيرة التي أتمها بينه وبين نفسه، وقع دويّ انفجار مهول ومخيف، أجبر الجميع أن يتركوا المريض والمحادثة وكل شيء ويتجهوا إلى الجانب الآخر ليشاهدوا ما حدث في الأرجاء. حلّ بعد ذلك ذعرٌ ولغطٌ وصراخٌ وهلعٌ مباغت. وكان الكل يرتطم بالكل، لم يستطيعوا رؤية شيء مما حدث، لأنهم ما أن

عزموا النيّة على التوجّه نحو مكان الانفجار حتى انبطحوا على الأرض مذعورين...

فقد وقع انفجار ثانٍ أقرب وأعنف من الانفجار الأول بكثير!

## (5)

ولا بدّ أن نبيّن هنا بعض الأمور عن ماهيّة صاحب هذا الجسد، ياي ود واك آبور، قبل أن نشرع بالحديث في شيء آخر لتكتمل الصورة التي سبق أن رسمناها لدى القارئ دون الحاجة إلى الأحاجي والفراغات، ذلك أن التقدير الذي يتمتع به ياي آبور ليس جديد العهد كما يتصور بعضهم، بل قد جاء نتيجة سببين رئيسين؛ يبرز أولهما من اسمه الذي أحرزه وصنعه بنفسه في مدينة ملكال، فكان شخصاً محبوباً مسالماً وشجاعاً باسلاً. لم يقبل أي منصب من المناصب التي عُرضت عليه من الأحزاب المشروطة، وعلى الرغم من أنه يعتبر شيلكاوياً دوماً، فقد كان يعرّف نفسه بأنه ابن أعالي النيل، ويقول إنه نصير الوحدة والسلام.

وكان مؤيداً بشدة للمصالحة بين القبائل من أجل المضي بالحياة، ورغم أن سلوكه العام كان فردانياً لدرجة أن أحداً لم يعتبره موالياً له، حتى الشيلكاويون كانوا يرون فيه متملقاً لبقية القبائل، وأما زملاؤه في قوات حفظ السلام فكانوا يقولون إنه لا ينقصه شيء ليكون زعيماً، وكان جميع من في المخيمات يكنون له المحبة والاحترام باعتباره مثالاً حيّاً لأبناء جلدتهم المرابطين في خدمة ملكال، وأكثر أنصاره تبجحاً كانوا أقاربه وأنسابه الكثيرين، وكان في نظرهم رمزاً للكفاح من فلاح مجتهد إلى عامل محترم ومرابط معروف.

وأما تقديره الثاني فيبرز بسبب انحداره من أصل ونسب مرموقين من فشّودة، وكان والده كالاً مقتدراً ومبجّلاً وذا حضور متسلط في كودوك وما حولها من قرى وأطيان. فرض والده احترامه على بني جلدته، وكانت سيرته النجيبة وتوقيره للغير وكرمه غير المحدود وراء

سمعة بلا شوائب في مملكة شلّو بين ضفتي النيل الأبـيض الشـرقي والغربـي وبين المومو شمالاً والتونكو في أقاصي الجنوب.

كانت أسرته مشهورة باحتراف الزراعة أباً عن جد، وقد قضى ياي آبور شبابه في تلك الأراضي الواسعة التي تتجـاوز مسـاحتها أربعين فدّاناً «أي ما يقارب السبعة عشر هكتاراً». وكانوا مشهورين جداً بزراعة الدخن والذرة والسـنط السـيّال، وبتربيـة المواشـي والدواجن، بل إن أسرتهم كانت متفـرّدة بزراعـة الـدخن مـدّة الثمانينيات، وكان بقية الفلاحين يستشيرون والده الكال ليمـنحهم سرّ مضاعفة المحصول وزيادة الإنتاج، إذ كان باستطاعته تمديد مواسم الزراعة في عروتيها، الربيعية في بداية أبريل والخريفيـة في منتصـف يوليو، وكان بخبرته العالية يستطيع استحصال ست حشّـات مـن الدخن في الموسم الواحد على أقل تقدير.

إلا أن الكال كانت لديه نقطة ضعف واحدة وهي النساء، فكان لا يقوى على سحرهن وخيالهن، ولم يكن يتـوانى عـن اتخـاذهن زوجات، ما دامت بركات الأب نيكانق تجود عليه، وما دام ذلـك يرضي ويبجّل أُسرهن.

إلا والدة ياي آبور «جنى» شذّت عن القاعدة، لأنها لم تكـن ربيبة أسرة عريقة في شيء، كانت محدودة الذكاء وخرساء لم تنطـق كلمة حتى مماتها. ورغم أن بينها وبين الكال قرابة من نوع ما إلا أنه تزوّجها عن صغر لأجل أن تساعد في أمور المنزل والزرع والماشـية، ولم تتعد في نظره مستوى الخادمة الدؤوب. وفضلاً عـن بسـاطتها وسذاجتها فقد كان يُنظر إليها في أعين البعض كفأل سيئ أو لعنـة مشؤومة لأنها لم تمنح زوجها الطفل إلا بعد أكثر من عشرة أعـوام،

وحتى الذين علّلوا سبب تأخرها كانوا قساة، فقد نسبوا عقمهـــا إلى لعنة حرمتها الخصوبة وأصابت رحمها بمرض مستحيل التشخيص.

عاشت جنى حياتها مكسورة بمرارة عقمها، لم يترك الكال على حاله طبيباً ولا شيخاً إلا وعرضها عليه، وجرّب معها كـــل أنـــواع الأدوية والأعشاب والعطور والأبخرة دون أن تجدي نفعـــاً، ودون أن يتغير شيء. وما كان حملها بياي آبور إلا بعد أن يُئِس مـــن رحمهـــا وكان قد تزوج زوجها عليها زوجتين. زاد نحولها ومرضـــت بعـــد الولادة بمدّة قصيرة ووافتها المنية في سن صغيرة ولم تترك لياي آبـــور أخاً شقيقاً.

وعلى الرغم من أن له من الأخوة غير الأشقاء عشـــرة وغـــير الشقيقات ثلاث عشرة، إلا أنهم كانوا يفضلون النظر إليـــه كـــابن الخرساء المكروه لا أكثر. وكانت طفولته مجـــرّدة مـــن الـــذكريات والمغامرات السعيدة، ولم تتعدّ أغلب الذكريات من أن تكون لحظات خاطفة وباهتة، كاللعب والركض واستراق السمع علـــى أحاديـــث الكبار أو قطف وجمع ثمار الدّليب.

إلا أن أشد الذكريات وقعاً على نفسه حدثت في أمسية قبـــل ثلاثين عاماً، طاف ياي آبور فيها مع أخيه الصغير أطـــراف شـــاطئ النيل الأبيض، رغم نهي الكال عن الذهاب وحدهما إلى هنـــاك، لأن قاع الجرف غادرة ولا تستجيب لها القدم، لكنهما وصـــلا الضـــفة والعرق يحرق عينيهما والبعوض يلسعهما دون رحمة، لم يكن هنـــاك أحد في تلك الساعة، شرعا يغسلان وجهيهما بماء النهر البارد، وخلعا ثيابهما وجلسا على الأرض يتراشقان الماء ويتأملان صفاءه المتـــألق. اعتقدا أن لا أحد يأتي الآن وقبل أن تكتمل الفكرة قفزا في الماء وهما

يتحاشيان إزعاج أوراق نبتة النيل، كانا يصرخان ويقهقهان، وما أن خرجا حتى وجدا والدهما فوقهما والغضب مستحوذ عليه، وبّخهما وقتذاك أشد توبيخ. لكن المسبّة والملامة وقعت وكالعادة على ابن الخرساء، وسيكون بديهياً المخطئ الوحيد في أي حال. أما الكال فقد كان مدركاً للاستهجان وواعياً لجديّة الموقف، وكان لا بدّ له أن يضع حدّاً للقدح أو أن يسفّر ابنه إلى مكان آخر.

وفي التسعينيات، تدهورت الأحوال في الأرض وكثرت أوقات الجفاف، وتقلب المناخ وأصفرت المحاصيل وتوقف نمو نباتاها، وبالنتيجة فإن الأسرة ضعفت إمكانياها وتدنّى عائدها وبدأت غلالها ومواشيها بالمرض والذبول. واستغل ياي آبور ذلك الوقت وسأل أباه أن ينتقل للعيش مع عمّه في ملكال ليمتهن التجارة.

وما أن انتقل إلى ملكال، حتى أصبح مؤتمناً على أموال عمه، وكسب في وقت مثالي الكثير من المعارف والأصدقاء. فلم يكن ياي آبور يعاقر الخمر ولم يدخن ولم يزنِ أو يقامر أو يبيع سلاحاً. وحافظ على سمعته الطيبة حتى أصبح مثالاً يُحتذى به في النجابة والسداد. والتزم بتجهيز المخازن بسرعة تعلمه وروحه المطاوعة السمحة. وعلى الرغم من أن الأوضاع في ملكال لم تكن تبشر بالخير، إلا أن ذلك لم يثبط عزيمته قط، وبقي على هذا المنوال متفائلاً ومثابراً.

وهناك تزوج ابنة عمه نيانو، التي وهبته من الأولاد ثلاثة؛ أوكاج وأموم وواني، ومن البنات اثنتين؛ لينا وكيمو. وكانت زوجته نيانو قوية وعزيزة النفس، وكان بمقدورها اللّف بنساء ملكال سبع لفات. بقيت طوال حياها وفيّة ومساندة لزوجها، حتى حين طلب والدها أن ينتقلا للعيش معهم في حيّ الجلاّبة، لم تطاوع أباها. وفضّلت، كما

ابتغى ياي آبور، أن تقطن بيتاً صغيراً يتحملان تكلفته في الملكية.

وفي نهاية الأمر، لم يبقَ من تلك الحكاية إلا تواريخها. ومنذ أن حدث الانفصال، وعقب اشتداد الصراع القبليّ ونشوب الحرب الأهلية في ملكال وعموم جنوب السودان، لم يبقَ شيء على حاله، بل أصبح الكل تحت وطأة السلاح. ولم تكن الحرب مرحلة مؤقتة ليتوقع لها النهاية والزوال، كانت الحرب أسلوب حياة. إذ هُدمت البيوت ونُهبت الممتلكات وضاعت شذر مذر في الدوليب والجلّابة والملكية والريّ، ولم يعد من سوق ليتاجر فيها، وتحوّل المقتدرون من أبناء ملكال إلى جنود ومسلحين، وهجر الباقون ما بين المخيمات والمساعدات. ومات من مات وفرّ بجلده من كان الحظّ إلى جانبه ما بين جوبا وناصر وبور، أو إلى خارج البلاد.

أما ياي آبور فقد ضاع جميع ما بناه وما جناه في لحظة واحدة وتحوّل إلى هشيم، ولم تعد الأشياء الاعتيادية التي كانت تمرّ أمام ناظريه اعتيادية في شيء، واضطرّه الوضع أن ينضمّ على مضضٍ للعساكر ويلتحق بقوات حفظ السلام، وأسكن في المقابل أسرته وإيّاه في المخيمات، وأصبح في النهاية محض رقم في سجلات اليونيميس التابعة للأمم المتحدة.

ومن الإنصاف إن أردنا الدقّة والموضوعية في ما أسلفنا قبل قليل، فإنه لم يكن شخص ياي آبور الذي يقطن المخيمات وسجلاتها، بل فرانسوا بروجييه. وربّما «انتقل» ياي آبور هو الآخر في تلك الليلة ليحلّ في جسد آخر وعالم آخر وحياة أخرى.

## الفصل الثالث

**بغداد/العراق 26 فبراير 2016**

**(1)**

لم تكن مراجعة الطبيب النفسي في نهاية المطاف عديمة الفائدة والجدوى كما كانت تتصور هالة، بل العكس تماماً. فقد أدركت خطأها، وتلاشى امتعاضها بعد أن شاهدت ما فعل زوجها في عيادة الطبيب، بل لم يبق لديها شكّ أن علياً هذا ليس علياً نفسه، ولا بدّ أن يكون هناك شخص آخر محبوس خلف جسده لا يستطيع التواصل معهم، وهكذا انفردت بجن - سونك حالما عادوا إلى المنزل وكاشفته بالحقيقة، على قدر ما استطاعت، بعد الكثير من الإيماءات والإشارات والتلويحات، وأفهمها وأفهمته أنه من كوريا الشمالية وهو الآن في العراق.

أما الطبيب النفسي فقد أبدى رأياً مغايراً تماماً وشخّص حالة علي تشخيصاً لا يتناسب مع ما توصلت إليه هالة من معطيات، وقال لهم: إن علياً - مبدئياً - يعاني من اضطراب ذهاني حاد، وإن هذه السلوكيات المشوشة واللغة المبهمة التي لا يمكن التكهّن بمحتواها تعود إلى اضطرابه الذهاني. وأضاف أن حالته تحتاج إلى استقصاء ومتابعة أكبر للوصول إلى تشخيص نهائي سليم، وأن الحالة أيضاً تحتاج إلى صبر وتفهم أعمق من قبل الأسرة في الوقت الراهن، ومن أجل أن يتّم ذلك كان من المهم أن يوصي الأسرة أن تأخذ له شهراً إجازة مرضية

على أقل تقدير، وطلب كذلك منهم الالتزام خلال هذا الشهر بتوفير العقاقير وإعطائها في مواعيدها.

وقد اتفق مازن كلياً مع الطبيب في أمر التشخيص. ولم يكن بيديه حيلة، ومن ثم ماذا تبقّى لكي لا يستسلم ولا يعترض على ما قيل؟ كان يائساً محبطاً أشبه بملاّح احترقت سفنه دون إرادته، وليس أمامه شيء سوى التقدم واكتشاف البقاع الجديدة. وكأن مازناً يحاول في موافقته الطبيب أن يوفر حالة سلام داخلي بين عقله وقلبه، أو يحاول إقناع نفسه بصورة ما بأن ما قاله الطبيب حقيقة لا غبار عليه. كيف لا والطبيب يتحدث ويجيب بلباقة واثق ومتمرس بلا تعجّل وارتباك، وإن إجاباته نابعة من خبرة عارف وممارسة ضليع.

ومن جانب آخر، شرعت هالة بابتكار منهاج يومي حافل لها ولجن - سونك، وقررت أن لا تضيع دقيقة واحدة بما أن هذا الشخص الدخيل سيبقى معهم في المنزل منذ الآن وإلى أمدٍ غير معلوم.

وعلى الرغم من أنها لم تتأقلم بسهولة مع الوضع الجديد، فقد صاغت بعض القواعد الداخلية لتهيئة المعيشة سوية، واتفقت مع جن - سونك مثلاً على أن يفترش الأرض للنوم ليلاً، وأن لا يعود إلى فراش الزوجية بعد الآن، وشدّدت على أن لا يدخل ويخرج من الغرفة من دون علمها المسبق. ولكون أمور المنزل تقع على عاتقها وعملها اليومي في المنزل لا يرحم وقتها، فقد ارتضت ببعض اللحظات المسروقة هنا وهناك لتكتشف أكثر عن أمر هذا الشخص الغريب الذي يسكن زوجها، لذلك كانت تستيقظ أول الصباح وتعدّ الفطور للأسرة، وتقوم بترتيب المنزل وتوضيبه وتنظيفه وتباشر

بإعداد الغذاء، ومن ثم توقظ الطفلين وتقوم بتبديل حفاضتيهما وتطعمهما وتلبسهما النظيف من الملابس، وحين ينتهي كل ما سبق تبدأ بالتواصل مع جن - سونك.

كانت طريقة التواصل والتحادث بينهما معقّدة ومتردّدة وخجولة بادئ الأمر، هذا إذا سلّمنا أن هذه المحادثات يمكن اعتبارها محادثات، فلم تساعد الألفاظ التي يستعملونها في الحديث بينهما على التفاهم، و لم تتعد أحاديثهم أن تكون بسمات وإشارات وتلويحات وإيماءات. بل إنهما كانا في بعض الأحيان يرسمان صوراً على الورق لشرح مقاصدهما، أو يبحثان عن صور وخرائط في الهاتف النقال ويتواصلان عبرها. و لم تكن هذه الطرق بالتأكيد تكفي للاستمرار في التواصل، فضلاً عن تبادل الأفكار والمعلومات.

ولهذا حاولت هالة أن تستعمل المترجم الفوري بين اللغات وكانت تأمل أن تجد بينهما لغة مشتركة لتبادل الأفكار، فكانت تكتب الكلمة من جهة باللغة العربية وتخرج في الجهة الأخرى على شكل رموز وخطوط محيّرة باللغة الكوريّة، واكتشفت بعد ذلك إن اللغة الكوريّة الشماليّة «التشوسونو» ليست هي نفسها اللغة الكوريّة «الهانكوكيو». وعملاً بالمثل القائل: إن الحاجة أمّ الاختراع، فإن هالة اكتشفت برنامجاً قاموسياً للترجمة يقوم بتحويل الكلمات بين الكوريّتين، وبذلك يستطيع جن - سونك بنفسه استكشاف الاختلافات في الكلمات واللكنة والألفاظ، ثم يقوم بدوره بترجمتها إليها باللغة العربية.

نعم، لقد أصبح الموضوع أكثر تعقيداً وخارج عن مدى استيعابهما وإدراكهما، وكانا كلما اتفقا على شيء ينصدمان بما

يخرجان به من نتائج مختلفة، ولم يكن بين أيديهم من حلّ آخر. فهالة تسعى إلى معرفة ماذا حلّ بزوجها وأين هو الآن؟ وهل هو بخير أم لا؟ وجن – سونك أيضاً يسعى ليعرف من هو صاحب هـذا الجسـد؟ ولماذا حدث معه هذا الأمر بالذات؟ وغيره وغيره من شاكلة هـذه الأسئلة الكثير، فكان يحثّ أحدهما الآخر ويساعده على إيجاد الحلول رغم إحساسهما المستمر بالتيه.

وشيئاً فشيئاً، تجاوز جن – سونك مخاوفه مما حوله واستوعب ماذا يكون بين أفراد الأسرة ومن يكون كل فرد منهم، ولا يمكـن نكران دور هالة الكبير بمساعدته في ذلك. ومع الوقـت، أحـس جن – سونك بينهم بالاندماج والألفة، وإذا نظرنا بهـذا المنظـار فيمكن اعتبار أنه أصبح أسير عاداتهم، فقد آلفهم وتعـوّد علـيهم وأحب تعوده عليهم، وكان يحسّ دونما سبب بأنه مسؤول عنـهم وعن حمايتهم ورعايتهم. وكان يعشق الطفلين خاصـةً ويسـتمتع بمحاكاة حركاتهما وملاعبتهما. ومن أجل أن يتعايش بينهم أكثـر فقد نصحته هالة بأن يكثر من الاخـتلاط بهـم ويتماشـى مـع تصرفاتهم، واشترطت عليه أن لا يتكلم بلغته الكوريّـة الشـمالية أمامهم، لحين إيجاد حلّ ما لهذه المأساة.

وحدث ذات صباح أن نزل جن – سونك من الغرفة ووجـد الحاجّة أم علي تفترش الأرض وهي تضع نظارتها السميكة على عينيها وفي حضنها صينية لتنظيف الأرز قبل طبخه. وما أن رآهـا جـن – سونك حتى جلس بجانبها واحتضنها وشرع يساعدها في رفع الدنان والأحجار الصغيرة والشوائب من الأرز. ومن دون شك فإن هالة هي صاحبة فكرة المواساة برمّتها ليُطمئن الأم العجوز ويطبطـب علـى

كتفيها. ولكن المسكينة انصعقت من قدوم ابنها وتأثرت كثيراً لتحسن حالته - كما كانت تظن -. فبقيت ممسكة بيديه و لم تفلتهما بسهولة من شدّة الحبور. لاحظ جن - سونك التجاعيد والخطوط المرسومة على وجه العجوز، وأهاجت ملامحها السمحة لديه شفقة وعطفاً غير مسبوقين، وبدا له وكأن وجه هذه العجوز يمثّل الطيبة البشرية بحدّ ذاتها.

ولكن حدث أمر غريب لا يمكن تفسيره بالكلمات، فقد تعانقا وأخذا يبكيان وينحبان دونما رادع وسبب، وربما كان التقاء مشاعرهما، وإطلاق العنان لهما، يحيّر حتى من تعمّق وتبحّر في فهم طبيعة النفس البشرية، إذ إن للطبيعة شؤوناً في مثل هذه المواقف، وللنفس البشرية عمق ولغز من الصعب أن ندركه أو حتى أن نتبجّح بإدراك جزء بسيط منه. وكما لو إن كلاًّ منهما كان مربوطاً بالآخر بخيط من الدموع. وفي حمأة هذه اللحظات الشاعرية تبسّمت العجوز ابتسامة حزينة وعيناها مغسولتان بالدموع، وكان لسانها يلهج دون دراية بالصلوات والدعاء.

عاد التواصل بين هالة وجن - سونك على الطرفين بالفائدة، فمن ناحيتها لم تقصّر في مساعدته بشيء، وشرعت تعدّ له اللذيذ من الأطباق العراقية حتى أنه بدأ يتعود الطعم والمذاق، وشارك هالة انبهاره بطبخها أكلات لم يجرّبها فمه من قبل كالدولمة والتبسي والتشريب. صحيح أنه كان يحكم على الطعم باللسان الذائق لا باللسان الناطق، إلا أن هالة كانت تفهم أنه معجب بما تطبخ من طعام. وكذلك أتقن جن - سونك سريعاً مسك الملعقة ومزج الأرز بالمرق وشرب الشاي في قدحه الصغير بخفة ومهارة.

وفي أحدى المرّات، تناهى إلى مسمع هالة صوت جن – سونك وهو يدندن أغنية بلغته الأم، كانت أغنية صوت قلبـــي لـــ «را يو – مي». تبيّنت مصدر الصوت وسعت تجاهه، أنصتت جيداً إلى إيقـــاع اللحن الهادئ. وما أن تأكدت مما كانت تسمع حـــتى جمـــدت في مكانها وتذكرت صوت زوجها. توجهت إليه وتوسلته أن يترجم لها كلمات الأغنية، أحرجها تكرار الطلب مخافة أن لا يفهم مقصـــدها، لكن جن – سونك لم يخيب ظنها وترجم لها الكلمات:

من أعمق خلجات قلبـــي
أقول لك أمي
بكل صدق وأمانة
ليرتاح الضمير
ولأنك الأم الحانية
إن قلبـــي النازف لا يندمل جرحه
إلا من عطفك ودفئك

وفي حمأة ما يدور حولهما من أمور عصيّة على الفهـــم، وجـــد جن – سونك أن علاقته بهذه المرأة قد تطورت دونما وعـــي وإرادة، وأصبح كل منهما يتطلع للتحدث مع الآخر. وعلى الرغم من أن وجه هالة لا يدفع إلى أفكار غير لائقة، بل يوحي شكلها بعفّة وطهر غـــير متصنع، فإنه سقط دون دراية في دوامة هوس وهاجس وغرام، ولا بدّ له من أن يشتهيها بطريقة ما ويشتهي أن يضع أصابعه حول رقبتها أو أن تسبح يداه في شعرها وغير هذه الأمور من خواطر الغراميات.

ولا بدّ من الإسراع والإشارة هنا وبأكبر إيجاز ممكن أن جن – سونك لم يكن من النوع كثير العلاقات مع النساء، وكل ما يدّعيه

ويختلقه لأصدقائه وزملائه في العمل في كوريا الشمالية ما هـــو إلا محض تهويلات ومغامرات خيالية، وكل قصص الغـــرام والليـــالي الحمراء مع البغايا والمومسات والخليلات الملتهبات والهائجات وهنّ يلهجن باسمه صارخات مثارات من لحظة دخوله مخدعهن إلى لحظة خروجه هي محض أوهام من صناعته واختلاقه هو وحده. لـــذلك كان من المستحيل عليه أن يميّز ماذا تكون مشاعره اتجاه هالة، وهل هي مشاعر اشتهاء فقط أم حب وهيام صـــادق؟ أم هـــي مجـــرد اختلاجات توحّد، أو لحظات شبق أو فضول أو ضعف؟ أو هل هي مجرد إعجاب وتقدير، أم تعلق وشغف، أم هي مشـــاعر انشـــداه وحبور؟ أوليست شيئاً يستحق الذكر على الإطلاق، سيّان لديه كل هذه الكلمات وكل هذه المشاعر والأحاسيس، ولا دليل لديه ليميّز بينها، وكيف لشخص ناقع بالحرمان مثله أن يعـــرف مثـــل هـــذه الأمور.

أراد جن - سونك أن يثبت لهالة أنه ها هنا موجود وذو فائـــدة أكثر مما كانت تظنه، وأخذ يقف معها موقفاً يشبه أن يكون موقـــف من يحميها ويخاف عليها، وقد لاحظت بدورها ذلك ولم تعلّق عليـــه شيئاً، وبالأحرى كانت تخفي وجلاً خفياً من جانبه بشكل ما، إلا أنه تجاهل تصرفاتها وشرع يكسر الحاجز بحجة قتل الوقت الرتيب، وأخذ يقدّم يد العون والمساعدة في كثير من الأمور، كترتيب الغرفة مثلاً أو إعادة الأشياء المتناثرة من ملابس ولعب أطفال إلى مكانها في الرفوف أو الدواليب، وكان لا يتهاون بالإسراع هارعاً ليقوم بتهدئة وحمـــل الصغيرة حينما تنشغل هالة بأمور المنزل. وكذلك أبهرتهـــا مهارتـــه بتصليح باب الغرفة الذي كسره مازن حينمـــا اقتحمهـــا في الليلـــة

المشؤومة. حتى أن جن – سونك بدأ يخجل أن يدخن داخل الغرفة والمنزل بصورة عامة حينما أحسّ أن دخان سجائره يترك رائحة خادشة للأنف تجعل الهواء مستحيل الاستنشاق. وفي كل مرّة كان يبهرها بخدماته وأفعاله الحسنة وهي تقوم بالمقابل بمداراة سرورها عن وقع أفعاله بالخجل لا غير.

ولكن في المحصّلة، لم تملأ هذه الأفعال من برنامجه اليومي و لم تغنِ بأثر يُذكر عن الشعور بالرتابة والانتظار والملل، وكانت الساعات تمضي داخل المنزل كأنها تثاؤب طويل، و لم يكن يعمل أكثر مما سبق ذكره مما كان يراه أمامه. وانتبهت هالة إلى ذلك وقررت أن تشغل وقته أكثر فغيّرت إعدادات هاتف علي النقال ولغته ليكون كورياً بكل ما للكلمة من معنى، و لم تفد هذه الحيلة أيضاً، رغم ما للهاتف من مقدرة رهيبة على قتل الوقت وتضييع النهار بتصفح المنشورات ومقاطع الفيديو التي لم يكن يدرك جن – سونك مثلها من قبل، إلا أنها لم تساعد في حقيقة الأمر إلا قليلاً.

لذلك كان يخرج أوقات المساء للتسكع كما كان يحبّ أن يفعل سابقاً في كيم – تشك، وكان يرافقه أغلب الوقت مازن أو هالة أو أي شخص آخر، ما دام لا يخرج وحده. وفي أثناء تسكعهم في الطرقات، استكشف جن – سونك بغداد وهي تنتصب أمامه على حقيقتها، واكتشف البون الشاسع بين عالمه الكوريّ والعالم الذي يسكن فيه حالياً، وبدأ يشعر أن هذا العالم يبهره بشكل غير مسبوق، وباغتته فرحة دافئة وهو يرى كيف أنجلى جوّ الغموض والأسرار الذي كان يكتنف مدينة بغداد، وأبهره نبض الحياة في وجوه البغداديين وتسارعهم المفرط في الشوارع والطرقات.

لم يكن جن – سونك قد اجتاز شوارع في حياته خارج العالم الكوريّ قطعاً، إذ كان هذا العالم الجديد، الذي يحدّه القلق والزحـــام والضجيج، والإسفلت الصاعد والخاسف، وروائح التعب والسخام، والجُدُر الكونكريتية التي بلي الإسمنت والملصقات عليها. كان ذلـــك كله حدّاً محرماً بالنسبة إليه. وكان باهراً أيضاً، لذلك كـــان جـــذلاً كالسكران حين اختبر أول زحام مروري يعلق فيه، وأول حـــادث طريق شاهده. يا للعجب، كم كان وجهه مضحكاً وهو مثار فـــاغر الفمّ حين ينظر إلى التماع الذهب على قبتي الكاظميين والمنائر العالية، وكيف كان يشمّ عبق الكتب المخدّر في شارع المتنبـــي، وكيف لم تصدق عيناه هوس الشراء المستشري في الشورجة وصخب التجـــارة المحموم هناك، وتعجب من سعار الحداثة وتصنّع الرخاء في المنصـــور وعملقة قصور الأثرياء فيها.

أما وجوه البشر في بغداد، فقد كانت متجهّمة ومتكدّرة أكثـــر من وجوه الكوريّين، وألوان بشرتهم مغبرة وكالحة تشبه لون الخشب البنيّ الداكن إلى حدٍّ كبير. وكانت عيونهم مكفهرّة وغـــائرة تمـــنح شعوراً مزعجاً للناظر، بل لم يكن هناك شخص له عينان مفتوحتـــان بالكامل، وكأن ضيق الحدقات هو الشائع وليس العكـــس. وهنـــاك أخذه الاستغراب من عجيب كلامهم، فكانوا يبلعون الهواء ويحاولون مداراة صعوبة لغتهم بالمأمأة والأصوات العالية، أو استعمال حلقهـــم دون الحنجرة والحبال الصوتية.

كان يخرج برفقة مازن للقاء الأصدقاء ليشربوا الشاي ويدخنوا النارجيلة في المقاهي أو يأكلوا الكـــرزات والفشـــار في الطرقـــات. وبالطبع كان يبقى طوال الأمسيات تلك ينتبه إلى شـــفاه المتحـــدثين

صامتاً لا ينبس ببنت شفة مهما بلغ الحديث أقصى درجات الحماسة والحركة، وكانت تمتعه هذه الأجواء بصورة ما، إلا أن هوسه الأكبر كان ينصبّ على مشاهدة واجهات المحال والقيصريات في شوارع الكرّادة إذ كان يحس دونما وعي هناك بالغبطة والترحاب.

ولأول مرّة منذ حادث الانتقال شعر جن - سونك في أعضائه خفّة وفي رئتيه نقاوة، حتى إن مازن انتبه إلى تحسن حالة أخيه الملحوظة في ليلةٍ ما، فانشرحت أساريره واستبشر خيراً لذلك، كان يتأمل أن ينتهي شروده وذهانه العقليّ في القريب العاجل، لذلك طلب منه وترجاه أن ينفتح معه بالحديث أكثر وأن لا يصمت كل هذا الصمت المحبط. لكن جن - سونك لم يكن يفهم ما يُطلب منه فيقوم بمجاراته ببلاهة الابتسامات. وفي وقت متأخر في تلك الليلة حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد اتصل رقم دوليّ بهاتف مازن: ألو.. ألو.. لكن لم يكن في الجانب الآخر غير الصمت جواب. فاستدرك مازن:

- ألو.. من معي، سأغلق الخط؟

أجابه صوت أنثوي رقيق هذه المرّة بلغة فرنسية جذابة:

- مازين؟ تو كونّي آلي؟[1].

- ماذا؟

عاد اللاجواب من جديد، وما زال مازن يسمع لغطاً بعيداً خلف سماعة الهاتف بأصوات لم يستطع فرزها وتمييزها، توجّس خيفة من أمر هذا الاتصال. أخفى ارتباكه وأخذ يردد بعصبية وبنبرة صوت أعلى من ذي قبل: "ألو.. ألو.. ألو..".

(1) Mazin? Tu connais Ali

- ألو! تبدّل الصوت هذه المرّة ليحلّ صوت رجل جديّ وحازم.
- نعم؟ من معي؟
- مازن؟
- نعم معك مازن، تفضّل من معي؟
- أنا علي أخوك..
- من؟
- انتبه لي مازن. ما أقوله سيصدمك بشكل أو بآخر، لكنّها الحقيقة رغم كل شيء؛ أنا علي أخوك. نعم، أقسم لك إنها الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة. إنني الآن في فرنسا، من الصعب أن أشرح لك ذلك بمكالمة هاتفية واحدة، ألو.. ألو...

شحب وجه مازن من فظاظة المتصل وطبيعة كلامه المستفز، وظنّ أن الأمر لا يتعدى أن يكون مقلباً صبيانياً سخيفاً، فصرخ في الهاتف غاضباً:

- من معي؟
- يجب أن تتفهم يا مازن أرجوك، أنا علي أخوك أقسم لك بغلاّة نونة، وأما الشخص الذي معكم الآن ليس أنا، إنه.. إنه شخص فرنسي، أليس كذلك؟ أليس اسمه فرانسوا بروجييه؟

تلبّس الغضب مازن وانقبضت ملامح وجهه وجوماً فأخذ يزمجر ويتوعد بكلامٍ لا يمكن ذكره وتدوينه. أغلق الهاتف بوجه المتحدث وهو يحبس أنفاسه غضباً. اشتدت قبضته وعضّ على لسانه وأخذ

يسير بخطوات عجلى بلا وعي واتجاه، أما جن – سونك فقد استغرب الأمر واستعجل السير مستدركاً صاحبه ليلحق به دون أن يعلم من سبب للاستعجال المفاجئ. انتبه مازن على أثر ذلك إلى أن "أخيه" لا يزال خلفه، وكان قد نسيه تماماً، فتوقف واستدار وأخذ ينظر بشزرٍ إليه ويتأمله متفرساً، سأل:

– مَن تكون أنت؟ أحقاً أنت فرنسي؟

إلا أن الطرف المقابل لم يجب كعادته، وبقي دون أدنى تفاعل مصراً على بلاهته واستغرابه.

حالما عادوا إلى المنزل خامر جن – سونك ارتباك من وقع هذه الأنباء، فكان يبدو ذاهل الهيئة شارد الذهن يفكر في أمور لم تكن في حسبانه، فإنه لم يتخيل مطلقاً أن يكون علي معن في جسد آخر غير جسده، لكن ما إن أفهمته هالة بأن وراء الاتصال الهاتفي علي نفسه وهو الآن في فرنسا، حتى طار صوابه وتغيّر لونه واستطال وجهه وأخذ يفكر بأمور مرعبة سنعرج عليها بعد قليل بالتفصيل. أما وقع الخبر على هالة نفسها فكان صعب التفسير لكونه مزيجاً من الخوف والقلق والارتياح، فالخبر بصورة أو بأخرى يعدّ خبراً مفرحاً ومبشِّراً ما دام علي الآن بخير وبصحة جيدة في أي حال.

كان يقضي جن – سونك الساعات متجهماً متغضِّناً وعيناه جامدتان هائمتان، وكان يسأل نفسه أسئلة تتبعها أسئلة لا طائل منها ولا يمكن أن يتوفر لها جواب؛ فما دام علي معن الآن في جسد شخص فرنسي فمن البديهي أن يكون شخص آخر في جسده في كوريا الشمالية؟ فمن ذا الذي يسكن جسده الآن؟ وما جنسيته؟

وهل هو شخص حسن أم سيئ؟ وهل هذا الشخص يعامل أوك - هِي باحترام وإحسان أم أن جنونه قد جنّ كما حدث مع جن - سونك في تلك الليلة المشؤومة حين خنق هالة دونما قصد وتدبير؟ وهذا غيض من فيض الأسئلة التي اصطخبت في ذهنه عندما أعاد استقراء الأحداث والوقائع الأخيرة.

كان يلعن ويستغفر دون أن يعلم ما الذي حدث له بالضبط سوى ما يصوّر له دماغه من أفكار، فتجده تارة يشكو الظلم الصارخ الذي حاق به وأنزل عليه العذاب، وتارة تجده يسأل نفسه؛ ماذا فعلت لتعتليني هذه المقادير؟ أكان من العدل في شيء أن يحلّ بي هذا العذاب وهذا الألم؟ أكان هذا في نظام الحياة ومقاييسها؟ وإلى متى سيظل هكذا هائماً تلاحقه الخيبات؟ وهل يقضي عمره الباقي يرثي مصيره ويندب حظه العاثر؟ وكان في بعض الأحيان يسوّغ ويسلّم أمره إلى سوء مقادير الحظ والقدر التي اختارته دون سواه ولعنته بسبب ذنوبه وأعماله المشينة ودناءاته الحقيرة والخسيسة! أو قد يكون ما يخوضه اختباراً سماوياً ليمتحن مدى صبره على العذاب والبلوى، لكنه ما انفك يسأل نفسه السؤال الشائع الذي يحتوي جملة «لماذا أنا بالذات؟»، ولماذا دون سواه من كل العالم؟ ولماذا جسد هذا الشخص العراقي الغريب؟ ومن ثم ما الحكمة من كل ذلك؟ هل هو إعجاز ربّاني لحكمة جبارة مجهولة؟ أم هو خطأ علمي ومختبري؟ أم وباءٍ مستشرٍ؟ أم مؤامرة سياسية عالمية خرقاء؟ وكان كلما حاول تفسير شيءٍ من خفايا الحادثة وكيفيتها وأسبابها لا تؤدي محاولاته إلى شيء يستحق الذكر، وفي كل مرّة كان يصطدم بجدار آخر لا شق فيه ولا منفذ.

انتابه إحساس بأنه لا شيء وأنه لا مكان له في العالم، بل إن العالم قد لفظه إلى غير رجعة وأصبح يعيش وسط متاهة فارغة صمّاء غير ثابتة؛ دروب متداخلة في دروب، وكل المفترقات والدهاليز لا تؤدي به إلى شيء ملموس سوى هذه المرأة الماثلة أمامه، المرأة التي هي دون شك زائلة كهذا العالم الخيالي مستحيل المنال. وهنا فقط شعر بعدم الانتماء والضياع، وبدأ الهواء ينتهي من الفضاء المحيط به واستسلم إلى داء الوحدة والغربة والحنين، فاشتاق إلى الهارمونيكا وبساطة الحياة وانسيابيتها فيها، إلى أخته وجيرانه وعمله وكيم – تشك وكوريا الشمالية بأكملها. ومن المقدّر أن يكون ما حوله وهماً فارغاً إن بقي يحنّ إلى بلده وحياته الماضية، إلى الوطن والأهل واللغة والدفء والمسكن.

أما الأسرة فقد تغيرت كثيراً بعد الاتصال، صحيح أنهم فضّلوا عدم إخبار أمهم بالأمر وتصنّعوا عدم وجود شيء جديد يحدث، إلا أنه ليس عسيراً أن يلاحظ المرء وجود سر خفي يطوف في الأرجاء، وينفضح السر في تقاسيم وجوههم وفي التكلّف الواضح في كلامهم وتصرفاتهم. حتى أن معاملتهم لجن – سونك قد تغيرت تغيراً ملحوظاً بعد الاتصال، وتحوّل في نظرهم دون مبالغة إلى كائن طفيلي غريب، بل يمكن اعتبار أنهم تحرجوا من وجوده ومن دخوله إلى غرفة علي بلا استئذان، ومن ثم ارتدت النساء الحجاب في حضوره، وشيئاً فشيئاً سحبوه وافترشوا له الأرض لينام بقرب مازن في الصالة لحين عودة ابنهم الغائب.

إلا أن الجميع، ومن ضمنهم جن – سونك، اعتبر هذه المكالمة بشرى خير، وربما في أيام معدودات يعود كل شيء إلى ما كان عليه،

بل ربما يعود علي الليلة أو الليلة التي بعدها، من يعرف؟ وحالما يعـــود من فرنسا سالماً غانماً سيسترجع سيادته على أسرته ليتكفلهم ويعـــتني بهم من جديد، بل إنهم ربما قد ينســـون كـــل هـــذه الـــدراما ولا يسترجعون منها أي ذكرى.

لكن مهلاً، أدرك جن – سونك الآن أنه مرعوب من أن تصبح هالة في رغبة شخص آخر. ثم خامره ارتباك، أنه يتصرف مع هالـــة تصرّفاً محرماً، وأن ما قد يبدو غريباً من تصرفاته، كان ردّ فعل نـــابعٍ من الغيرة، نعم الغيرة. فمثله لا يطيق أن يرى هالة في تفكير شـــخص آخر، أو تفكر هي نفسها بشخص آخر. الآن فقط أدرك أنه تعلّـــق بهالة حدّ الجنون، وأصبح علي معن في نظره لا يتعـــدى أن يكـــون دخيلاً مغتصباً غير مرغوب.

## نيس/فرنسا

22 مارس 2016

**(2)**

"هزت ثلاثة تفجيرات قلب العاصمة البلجيكية بروكسل، اثنتان منها في المطار والثالثة في إحدى محطات المترو. ما أسفر، حسب حصيلة غير نهائية، عن مقتل حوالى ثلاثين شخصاً وإصابة أكثر من مائة آخرين. هذا وقد عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن الفرنسي في باريس، حيث جمع رئيس الحكومة في قصر الإليزيه مع وزراء الداخلية والدفاع و...".

لاح المكان مقفراً تقريباً في تلك الساعة، كانت مقاعد مطعم المستشفى تبدو فارغة فراغاً مؤسفاً، ما خلا سيدة شابة تجلس وحيدة في ركن تشرب قهوتها قبالة طاولة نيكولا جان – لوك وإيميلي، وكان هناك ثلاثة أشخاص من عاملي المطعم ينظرون بعدم اكتراث إلى شاشة التلفاز وهي تعرض أحداث تفجير مطار بروكسل.

- هل اقتنعت بكلامي يا نيكولا؟ فأنا ما زلت محتفظة برأيي، بل إني شبه تأكدت أن فرانس ليس بمريض، وها نحن قد اتصلنا بالعراق كما رأيت وسمعت المحادثة بنفسك، ألم يصدمك حديث فرانس واسترساله معهم باللغة العربية؟ العربية يا نيكولا؟ ألا يبدو لك أن هذه الحجج تستحق أن

يُعاد النظر بأمرها على الأقل؟ ألا تشكّ للحظة واحدة بأن ما يقوله فرانس قد يكون صواباً؟ لا أشترط عليك أن تقتنع بالضرورة، لكن ألا يساورك القليل من الشك على الأقل؟

- علامَ يساورني الشك يا إيميلي؟ كفّي عن النطق بالحماقات، كيف تريدينني أن أقتنع بفكرة خرافية كهذه؟ ألا تنصتين إلى كلامك؟ هل حقاً تعتقدين أن فرانسوا غادر جسده وهذا الذي يسكن خلف جسده حالياً شخص آخر وعراقي الجنسية فوق كل هذا؟ هذه الأشياء ممكن أن تصدق في الأساطير والخرافات فقط يا إيميلي، وأنت وأنا لسنا ممن يؤمنون بالخرافات.
- وماذا سيجني فرانس من هذه التمثيلية؟ لا شيء، بل كيف له أن يختلق عالماً آخر لا يوجد إلا في مخيلته ثم يصدق ويتحقق قوله وادعاؤه، ومن ثمّ نكتشف أن عالمه المختلق كان حقيقياً وملموساً كعالمنا هذا؟
- يمكن اختلاق أي شيء إن كان العقل هشّاً وغير حصين، كعقل فرانسوا على سبيل المثال. لا تجعليني أسهب في الحديث أكثر مما تحدثت، فليس كل ما يُعرف يُقال.
- مع ذلك، ما زلت أفضّل أن نخرجه من المستشفى، والآن يا نيكولا الآن. وفي حال عدم تحسن حالته أو تدهورها نقوم بإعادته إلى المستشفى مرّة أخرى.. ها؟ ما قولك؟ لقد ذقت ذرعاً بما نكابد نحن وإياه.. أرجوك.. أرجوك، ألا تشعر مثلي بالذنب لكوننا رميناه في ردهة مجانين؟
- ها أنت تعودين إلى النطق بالحماقات!

- أعرف أن الأمر يبدو كذلك بالنسبة إليك، لكنها ليست حماقات، صدّقني، ولست أرغب في تبديد طاقتي في الحديث عن ذلك، بل إنني أتكلم جدياً تماماً. كان إجراماً مني ومنك يوم أدخلناه مستشفى، وسألوم نفسي على ذلك حتى نهاية أيامي.

عند هذا الحد، ما زال نيكولا جان - لوك محافظاً على هدوئه النسبي، بالرغم من أن المتعارف عليه عند لقائه بإيميلي أن تنتهي أحاديثهما إلى عراك وملامة وبغضاء، وكأن هذين الاثنين لم يُخلقا ليكونا على وفاق. وبالرغم من أن إيميلي تتمتع بجاذبية وجمال منقطع النظير لا يمكن لأحد إنكاره ومن ضمنهم نيكولا جان - لوك بطبيعة الحال. ولولا بعض التجاعيد الخفيفة حول عينيها، فإن من المستبعد أن يكتشف المرء أنها قد تجاوزت الثلاثين. كانت ممشوقة القوام واضحة القسمات مفصّلة الأعضاء تسلب العقل دون عناء، وكانت كلماتها تبدو مقدسة مسموعة وطلباتها أوامر، بل إن ما تنطق به قد يعتبره بعض الرجال من المسلمات البديهيات، وكانت دائماً ما تصف نفسها بالمغناطيس الذي يجذب الرجال من حولها، لكنها كذلك تضيف إلى هذه العبارة كلمة فاشلين فتكون العبارة كاملة «مغناطيس فاشلين» لأولئك الرجال ذوي التواريخ الفاشلة والزيجات السابقة.

وكان نيكولا جان - لوك قاسياً معها لأنه الصديق والخليل والزميل الأقرب لفرانسوا بروجييه، لم يكن رئيس تحرير مشهوراً في نيس، في حين أن صيته وسمعته تسبقانه في الوسط الصحفي والإعلامي في فرنسا كلها، وقد قطع في مسيرته المهنية شوطاً متقدماً

حتى الآن، وبالمقارنة بسمعة إيميلي المهنية كإعلامية، فقد كان يسودها الشكّ والأقاويل والغموض. وكان نيكولا يعدّها قد أسهمت في انتكاسة صاحبه بعد أن تدهورت حالته النفسية عقب انفصالهما، بل ربما يكون ما يشاع عن إيميلي حقيقة لا تلفيقاً في كونها إنسانة أنانية ومادية ولا تهتم بأحد آخر سوى نفسها.

كان نيكولا يرشف قهوته ويمطّ رقبته ويميل برأسه يميناً وشمالاً كعادته حينما لا يكون مقتنعاً بالحديث، وكانت إيميلي تعرف هذا عنه فحاولت التغاضي عن تصرفاته لتتفادى معه الشجار، وما إن نطقت كلمتها وتطرّقت إلى شعور الذنب والمسؤولية تجاه فرانسوا بروجييه حتى تغيّرت ملامح وجهه وازداد وجوماً وعقد ذراعيه أمام صدره ورمقها بنظرة يسودها الازدراء والتهكم وقال:

- هل ما أسمعه حقيقي يا ترى؟ كذّبيني يا أذنيّ وأوهميني يا عينيّ. فإن إيميلي الجبّارة تشعر أخيراً بالذنب وبتأنيب الضمير!

لم تنصدم إيميلي من الهجوم، فهذا ديدنهم في كل حديث. ولكنها حاولت أن تقاوم غصّة النحيب القابضة على حنجرتها، خفضت صوتها احتراماً للأشخاص الجالسين وأجابت:

- بالطبع أشعر بالذنب، ماذا كنت تظنّ؟ إنك على الأرجح لا تتخيّل ما يعنيه هذا، اعذرني أن كان عسيراً عليّ أن أتقبل ما يحدث لفرانس، وسواء صدقتني أم لا فأنا أشعر بأنني مسؤولة عما حدث له بشكل أو بآخر.

- بشكل أو بآخر.. ها؟

تنهدت إيميلي تنهيدة أسف ثم قالت:

- ليس الأمر كما تعتقد، ولعلك معذور في قساوة حكمك، لكن فرانس ليس عدواً لي، كفانا عراكاً ولننطلق من الوقائع التي بين أيدينا ولنتفق على أن فرانس لم يتقدم قط إلى ما يتجاوز مستوى طفل صغير، وأنا وأنت ندرك ذلك جيداً، إن فرانس ليس أكثر من طفل يخربش على أوراق ويرسم كاريكاتور! ولا ترمقني بهذه النظرة المتهكمة كأنك لا تدرك هذه الحقيقة من قبل.
- وكيف استنتجت أنه.. لا يزال طفلاً؟
- زوت آلوغ! لماذا تأخذ من كلامي المرادفات وتبني عليها أوهامك البازلتية المسبقة؟ هل تراك تستمتع وأنت تقلّب كل كلمة للنظر بما تحتوي تحتها؟ فأنا لست إيميلي القديمة التي تحاجج وتجادل ليل نهار، ولا أريد أن اثبت لك من منّا المصيب ومن منّا المخطئ. يكفي شاهد واحد من أبناء جيلي ليفهم ما أرمي إليه، ولا أطلب أن يكون الشاهد عاملاً في هيئات التحرير أو له باع في واقع حال الناس، جلّ ما أطلبه شاهد في مثل سنّي ليقول لك إننا كبار راشدون، وإن طفولتنا انتهت منذ اليوم الذي نكون به اجتزنا أطواراً ثلاثة، ثلاثة فقط، ونكون بعد ذلك محض راشدين إلى الممات. وأما فرانس فأؤكد لك إنه لم تستهوه هذه الأطوار مثلنا، لذلك حتى وإن كنت تراه أمامك رجلاً اكتسحه الهرم والمشيب، إلا أن روح الطفولة والصبا لا تزال عذراء في قلبه، وهذا رأيي الخاص بطبيعة الحال، وأدرك تماماً إنك لا تأخذ آرائي على محمل الجدّ.

يؤسفني أن أخبرك بأننا، أنا وأنت، متماثلان متشابهان متناسخان وراشدان. استقتلنا لنكون كالآخرين، راشدين. انطحنّا وتغربلنا وأُدخلنا الفرن حتى اعتُرف بنا كباراً رسمياً! وفرانس دوننا نحن الذين مررنا بأطوار الكبر الثلاثة، أتريد أن تعرف الأطوار يا نيكولا؟

اهتاجت إيميلي كثيراً من وقع هذه المحادثة، وحاولت إكمال حديثها لولا أن صوتها تحشرج وتحاملت على نفسها. ندم نيكولا جان - لوك لما أقترف معها وشرع يهدئها ويستميلها بابتسامة خفيفة:

- أريد أن تهدأ أعصابك أكثر مما أريد أن أعرف هذه الأطوار!
- لا يوجد أحد غيرك لأفضفض له بالبوح والكلام. يا لسخرية الأقدار، عدوي اللّدود هو نفسه أنيسي الوحيد! أما زلت تريد أن تعرف فلسفتي المتواضعة عن الطفولة والكبر؟
- لا بأس.
- أعتقد أننا ما نزال أطفالاً حتى نفقد القدرة على اختلاق المتعة والإمتاع، وتذبل خاصية التخيّل ويهرم فينا الخيال، وهذه الحقيقة يعلمها أغلبنا، أليس كذلك؟ فتتحول عيوننا حينها إلى جهاز لكشف ما هو واقعي ومنطقي من الأشياء فقط ولا تهتم عيوننا إلا بالواضح المتعارف عليه وتغربل الشواذ، وبذلك تفقد الأشياء حضورها وملمسها ووجودها، وتفقد الجماليات هيبتها وتتحول الأشياء إلى كتل باهتة بالية بلا روح ولا حياة ولا ثقة تغنيها، ولا

يستفاد بعد ذلك من هذه الأشياء إلا للاستعاضة والتشبيه، هذا ما أقصده يحدث في الطور الأول.

رفعت إصبعاً حين أتمت الجملة، وأكملت حديثها بعد أن رفعت أصبعاً آخر:

- وفي الطور الثاني، نفقد الشعور بالاكتفاء من كل شيء يدور حولنا، وفي كل مرّة نعتاد على فعل أمر ما، نفقد معه الشعور بأي سعادة وسرّاء لأننا فقدنا ذلك الشعور الأساسي بلذّة الشيء أول مرّة. يجب أن تدرك أن التجارب تبقى جذابة ما دامت لم تُجرب بعد أو ما دام لا يزال يُحلم بتجربتها. وما أن تتعود وتتنمّط عيناك عليها حتى يبهت الشعور بالرضا والاكتفاء والقناعة، ونشرع بسلسلة أمنيات خائبة لا طائل تحتها، ويتجلى ذلك فينا حين يبدأ أغلبنا بتمني الهروب من حياته إلى حيوات أُخر، بل إن بعضهم يتحمس كثيراً ويتخيّل كيف سيكون حاله في حياته الأخرى، ومن ثم ننطق عبارتنا الشهيرة الرعناء «أتمنى البدء من الصفر». أليس كذلك؟
- كذلك، وفي المرحلة الأخيرة؟
- وفي المرحلة الأخيرة تختلط لدينا المفاهيم وتهزل المبادئ التي تعلمناها ورضعناها في أيام الطفولة والصغر، ونصل حينها إلى قناعة تامة بأن الأرض بمن فيها لم تكن إلا أكذوبة، ولم تكن هذه القوانين والأنظمة والدساتير التي قدسناها وأوليناها خوفنا واحترامنا يوماً إلا محض كذب وهراء وضلال. وحينها يصطبغ كل شيء بلون رمادي باهت،

وتفقد فكرة الخير والشرّ بريقها ولا تتجاوز وقتها أكثر من مظهر وحضور اجتماعي مطلوب. ونفقد القـــدرة علـــى التفريق بين الأبيض والأسود، وبين المُصيب والمُخطئ، وبين الخير والشر، وبين السنافر وشرشبيل، وبين شارلوك هـــولمز وموريارتي، وبين....

- وبين فرانسوا وإيميلي؟
- عموماً، إنني تجاوزت كل هذه الخلافات الآن، وهذه الأمور العالقة بيننا لا تعتبر ذات أهمية كبيرة ما دامت حياة فرانس على المحك، وما دام قد وصل به الحال إلى أغوار الجنـــون والانتحار.

تأسف نيكولا لما بدر منه فقال:

- ربما أكون قسوت في حديثي معك كثيراً، سامحيني يا إيميلي، فكلانا يعلم جيداً إنك لست الملامة علـــى مـــا حـــدث لفرانسوا.

أجابته بغصّة حزن واستسلام:

- ومن يكون المُلام غيري؟

التزم نيكولا الصمت عدة ثوان وكأنه يستعيد ذاكرتـــه، كـــان مطأطأ الرأس مشغولاً بمسح دائرة رسمتها القهوة على سطح الطاولة، رفع رأسه وقال:

- كلانا يعلم جيداً أنك لست الملامة، ولا يسعني أن أقـــصّ عليك كل ما حدث مع فرانسوا عقب انفصالكما. جلّ ما أستطيع قوله إنه كان مهووساً برائحة دخان أصابته بالجنون، واعتقد أنك تعلمين بذلك الآن؟ لقد كانت نوبات الهـــوس

هذه مسعورة ومرعبة جداً. لا أعلم كيف أصوغ الحكاية بشكل أفضل، لكنه كان يهتاج كالمخبول طوال الوقت، لم أكن أعلم ماذا كان يريد بالضبط وما لا يريد، ففي لحظة أجده أمامي وفي لحظة أخرى أجده قد اختفى، هكذا كان.. وهكذا انهزمت وتركته! وبعد ثلاثة أيام فقط، أبلغتني السلطات بأنهم وجدوه يدلف في رحاب الجنون هائماً بالطرقات، وأن القصة تشمل أيضاً محاولة انتحار. ومنذ ذلك الحين، أصبحت أنا الملام يا إيميلي، أنا الملام لا أنت، أنا الذي يجب أن يشعر بالذنب والخجل وتأنيب الضمير، وما من شيء يمكننا القيام به بهذا الصدد.

- يمكننا إخراجه من المستشفى.
- نعم، يمكننا ذلك.

لم تكن إيميلي متيقنة من شيء، لا من سلامة ذهن فرانسوا بروجييه ولا من ادعاء علي معن، لكنها قررت أن تجاريه بما يصبو إليه، و لم تجادله أو تشكك أو تتهكم به على الإطلاق، بل قامت بإخراجه من المستشفى وعادت به إلى شقته. وكانت ترتجي أن يكون ذلك كفيلاً بشفائه. وتحصنت معه كذلك في الشقة في سان موريس. فلعلها تتفهم من حالته شيئاً، ومع مرور الأيام شرعت تعتني به كما لو كان مريضاً، وكانت تتسوّق وتشتري البقالة ولوازم المطبخ وتقوم بإعداد المائدة والطعام وتناوله مهدئات الأعصاب اذا ما اضطربت حالته أو تعذر عليه التأقلم مع الوضع الجديد.

جرت بعد ذلك عدة اتصالات بين علي معن وأخيه مازن في العراق، وكانت الأسرة العراقية مسبقاً قد شرعت بالاتصال لتستفهم

وتستعلم عن الشخص الذي يدّعي أنه علي معن. وبعد أحاديث مسهبة مفصّلة عن حادث الانتقال وحيثياته وعمّا جرى في الليلة الأولى وما بعدها من الليالي، أصبح الأمر مستساغاً أكثر من ذي قبل من جانب مازن وهالة في العراق ومن جانب إيميلي ونيكولا في فرنسا.

وكان الجميع مدركين ذلك الوقت أنهم لا حول لهم ولا قوة في الأمر بتاتاً، وإن كان لديهم المزيد من الشكوك والتوجسات والانطباعات ما جعلهم يجدون مشقّة في استيعاب وفهم الكثير من التفاصيل، فإنهم لن يستطيعوا أن يعزموا أمرهم في شيء ولا يملكون سوى أن ينصاعوا مصغين مطبقي الأفواه لرواية هذين المجنونين «علي معن وجن – سونك» وما حدث لهما في تسلسل الوقائع ذلك الوقت وتحديداً ليلة الثامن عشر من فبراير.

ومن البديهي أن يقع الجميع تحت طائلة الحيرة والتساؤل، وكانوا مضطربين اضطراباً شديداً، إذ إن خيال الأعمّ الأغلب منهم قد امتنع عن استساغة هذا الكمّ من الادعاءات، وكيف يستسيغ المرء ويتقبل قصصاً لاواقعية هكذا ببساطة؟ وكيف يسلّم العقل بانتقال علي معن إلى جسد فرانسوا بروجييه؟ بل والأدهى أن يحلّ جسد جن – سونك محل جسده! لكن ذلك لا يمنع أن تكون هناك إشارات عدّة لا يمكن تجاهلها تثبت صحة ادعاءات هذين المجنونين وتقرّ برجاحة روايتهما. في النهاية لا مناص من التسليم بالرواية كأمر واقع، ولا مناص من مجاراتهما – على الأقل في الوقت الحالي – حتى تُفنّد الشكوك وتُدحض الإشكالات.

نسارع هنا ونشير بأكبر إيجاز ممكن إلى أمر آخر قد شغل بال الجميع في تلك الأيام، وأخذ من أفكارهم مأخذاً جعلهم يضربون

أخماساً بأسداس دون جواب واحد، فكان الكل يتأملون حدوث شيء ما، أي شيء، مهما تبلغ تفاهته، فقد تعبت أذهانهم من الفرضيات والنظريات، والبعض كانوا طموحين جداً وأخذوا يعلّقون آمالاً عملاقة على شيء واحد لا غير ألا وهو «فرانسوا بروجييه»، بل اعتبره بعضهم - ومنهم هالة مثلاً - السرّ الذي يكمن خلفه حادث الانتقال برمته، بل قد حمّلوه تبعة كل ما وقع حتى الآن، فالكل يلهجون باسم فرانسوا بروجييه؛ أين يكون الآن فرانسوا بروجييه؟ ماذا حلّ بفرانسوا بروجييه؟ لماذا لم يتصل إلى الآن؟ هل هو مريض؟ هل لقي حتفه ولمّا يُكتشف جثمان له بعد؟ وهل سرّ هذا الانتقال بأكمله يقف وراءه هذا الكاريكاتوري؟ فكان هذا السؤال الحتمي هو السائد كلما أتوا على ذكره، واستخلصوا أن الوقت ما يزال مبكراً لتقديم الاجابات، إلا أن الحقيقة التي تشتعل في دواخلهم ولا يجهرون بها صراحة ولا يجرؤون على الاعتراف بها؛ إنهم في حقيقة الأمر لا يتوقعون الكثير منه ومن كل أخباره، بل قد آمن البعض أنه قد مات لا محالة، وتبقى الفكرة التي اتفق الكل على صحتها وآمنوا بها أن فرانسوا بروجييه يقبع الآن في جسد جن - سونك في كوريا الشمالية وبذلك تكون الحلقة مكتملة متكاملة ويكون «جن - سونك الكوريّ الشمالي في جسد علي معن العراقي الذي يكون بدوره في جسد فرانسوا بروجييه الفرنسي والذي يكون بدوره في كوريا الشمالية في جسد جن - سونك».

هكذا كان الجميع يتخبطون في محاولة لإيجاد إجابة عن هذه الأسئلة، وكانت أشد الفرضيات جرأة تتهافت بمجرد أن تطرح مواضيعها الشائكة والجنونية، وربما كانت مثل هذه الأطروحات

تقلقهم وتقضّ مضاجعهم لكنهم يخفون عن عقولهم ذلك رعباً من أن تكون صائبة. فما العلامات والقرائن التي تبيح افتراض إن فرانسوا بروجييه يقبع الآن في جسد جن - سونك؟ ومن ذا الذي يضمن مثل هذا التصوّر؟ وما الذي يمنع من أن يكون هناك شخص رابع في الحلقة أو خامس أو سادس وهلمّ جرا؟ فضلاً عن هذا كله، فإن عجلة الزمن تمضي، والأيام يأكل بعضها بعضاً، وفرانسوا بروجييه إلى الآن لم يبلغ منه خبر ولا مرسال، بل إن غيابه يصبّ على النار زيتاً! وكلما مضى بالزمن شوطاً ومصير هذا الإنسان بقي مجهولاً كلما تهوّلت وتعملقت الفرضيات حوله وتحوّل بعضها بالتدريج إلى وقائع مسلّم بها، وهكذا بلغ تشبّث البعض بأفكاره مبلغاً ظنّ حينها إن فرضياته فوق مستوى الشبهات.

وعلى غرار هذه المعطيات، عكف علي معن وإيميلي في البحث عن أي خيط دليل في شقة فرانسوا بروجييه قد يدلّهما على سبيل يرتبط بهذه الحادثة، فمضيا يذرعان الغرف من ركن إلى ركن ونبشا الشقة عاليها سافلها وتفحصا اللوحات والصور والمخطوطات والكتب المركونة على الأرائك والرفوف وتقصيّا الأماكن الخفية وغير الخفية وكسرا الأدراج والخزائن المقفلة، أي - بين قوسين - لم يتركا مكاناً لم يفتشاه أو تجد فيه بصماتهما، حتى أن إيميلي قامت بقراءة رسالة الانتحار مرات عدّة، وحاولت تفكيك جزئياتها وبحثت عن أي مدخل سري بها أو عن طريقة معينة لقراءة ما بين السطور وتقصّت كذلك جميع حسابات فرانسوا الإلكترونية والمصرفية وكل ما يوجد في حاسوبه أو هاتفه النقال علّها تجد ما تصبو إليه نفسها، لكن دون جدوى، إذ لم يفض ذلك البحث إلى شيء يذكر.

## (3)

جلسا في مقهى البيسترو وقتاً طويلاً دون أن يقولا أو يتفوها بحرف أو أن تمتد أيديهما إلى قائمة الطعام، كان علي معن قد أنهى مكالمة مع زوجته دون أن يضيف أي تعليق، وفي النهاية هزّت إيميلي كتفيها هزة خفيفة بدت وكأنها إقرار بأنهما لا بدّ أن يتكلما بأي شيء بدلاً من وضعهما الأخرق وحالهما الشاذ الذي هما فيه، فابتسمت وقالت:

- هل تعلم أنني أخلط إلى هذه اللحظة بينك وبين فرانس، حتى إن حركاتك وإيماءاتك تتناسب فعلياً مع حركاته ومظهره! ذلك صحيح، لدرجة أنني أتوهم في مواضع عدّة مع من أتحدث، وهذا يربكني ويقلقني للغاية، بل ويجعلني أتردد وأحسب حساباتي عندما أريد أن أشرع بحديث.

ابتسم علي ابتسامة بلهاءِ وقال:

- لماذا؟
- ألم تلاحظ أنني أخلط باسمك وأناديك باسم فرانس في مواضع عدّة؟ وحالما أتنبّه لما اقترفت من خطأ حتى أعود مرّة أخرى وأناديك باسمك الصحيح.
- إنني لست فرانس، أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

عند هذا الحدّ وجدت إيميلي الذريعة لمفاتحته بما يشغلها:

- كيف حالهم؟
- عذراً؟
- آسفة، هل يضايقك الحديث عنهم؟
- من تقصدين؟

- هالة والأطفال.
- لا، أبداً، لا يضايقني، ولكنني أحسبك تفهمين جليّة الموضوع.
- لا أحسب شيئاً، وهناك طريقة واحدة لأتبين الموضوع برمته؛ ألا وهي البوح.
- لا أريد أن أتحدث وأزيد من عذاباتك، فإن معرفتك بما أفكر به قد يجعلك في حال أسوأ مما أنت فيه الآن!
- لماذا؟ ألا تثق بي؟
- ليست المسألة مسألة ثقة.
- لكنّي أتمنى أن تحكي لي أكثر عن زوجتك.
- وهل ما قصصته على مسمعك حتى الآن ليس كافياً؟
- لم تقصص عليّ شيئاً يستحق الذكر والمعاينة، أنا لا أعرف حتى الآن من تكون بالضبط وبماذا تفكر؟ وممّ تخاف؟ ولماذا تخاف؟ هات ما عندك، لِمَ التشكك؟ وإلا فكيف أتمكن من التفكير في ما تفكر أنت فيه؟
- في ذهني أفكار، أفكار كثيرة، بل إن جلّ ما ترينه أمامك الآن هو أفكاري لا أنا، فدماغي لا يتوقف عن التفكير لحظة واحدة، لِمَ لا يخترعون للدماغ زرّ إطفاء بدلاً من هذه الاختراعات؟.. يشير إلى هاتفه النقال ثم يضيف: لا أريد أن أقلقك بحياتي المقيتة.
- ولماذا هذا الوصف المقيت؟
- ذلك لأن أسرتي هي جلّ تفكيري وهمّي، فأنا مشغول بهم، مشدود بعصرة الحنين إليهم، وما أن أتصل بهم حتى

تخيب توقعاتي وتنطفئ حرارتي ولهفتي عليهم. وكلما أتوقعهم يفيضون مشاعر لهفة وكلمات فذّة وقلوب مضيئة، حتى أجدهم باردين متململين، يتحجّجون بضعف شبكة الإنترنيت وما شاكل هذه الأعذار. أصدقك القول إن خيبة الأمل تعتصرني، والصبر قد نفد مني، وتحولتُ إلى كيان يائس موجوع. إن ما يؤلمني حقاً هو طريقة تحدثهم الرسمي معي: كيف حالك؟ مشتاقون؟ الأطفال بخير، لا تقلق.. مازن في العمل حالياً.. الحاجّة بأحسن حال.. وسن تسلم عليك.. كيف يومك في نيس؟ نفتقدك كثيراً.. ما زال جن - سونك نائماً.. لا تقلق، فلا جديد في الحياة هنا..

- وماذا تطلب أكثر من ذلك؟
- لا أطلب اتصالاً يمضي على هذا النحو الرسمي البليد، لا أريد أن أحس أنني أصبحت عبئاً وعائقاً، أو أن أشعر أنهم تخلّو عني لأنّي أصبحت لا أعيلهم، إن البيوتات والأُسر تقدس وتحترم المعيل لا العالة، أنت لا تعرفين عن الأسر مثلما أعرف.
- بل إن هذه الجملة بالذات "لا تعرفين العوائل مثلما أعرفها" كنت أسمعها مراراً من فرانس!
- في بعض الأحيان أقول في نفسي؛ إنها ليست غلطتهم، فأنا لا أعمل. لا أعيلهم، ولست فعلياً موجود في حياتهم، وإلا بأي حق أطالبهم بأن يتفرغوا لي، وبأي حق أنكر عليهم رغبتهم بالاستمرار بالعيش بدوني؟

- يا لك من شخص مفتعل للبؤس والكآبة، لا بـــدّ لـــك أن تسيطر على تفكيرك، حاول أن تتصور الأمور في ضوء حال أسوأ مما تكون، ربما من خلال النظر إلى الجانب الأســـوأ، سيبدو ما أنت فيه ليس بذاك السوء. لماذا تفعـــل بنفســـك هكذا؟ ألا يعجبك المكان هنا؟ ألا تعجبك فرنســـا بلـــد الأحلام؟
- لا يوجد شخص في هذا العالم لا تعجبه فرنسا ولا يرغب أن لا يُنفى إليها، ففي كل مكان في فرنسا تجد للحـــبّ ألقـــاً وللجمال نكهة، وفي كل شـــيء يلـــوح أفـــق ســـاحر وعجائبـــي. وأنا للآن لا أصدق نفسي أفي حقيقـــة أو في خيال؟ وكل مرّة أقرص جلدي لأتأكد أنني لست مستغرقاً في حلم ورؤى، لا تتوقعي أنني قد برق في خاطري يوماً أن أجالس فاتنة مثلك، أو أن أشاهد على الطبيعة مثل هـــؤلاء المارّة الرائعين ولا أن أجلس في مثل هذا البيسترو الاستثنائي في المدينة القديمة في وسط نيس. وإن ما أعيشه وأختبره الآن معك لو قصصته لمن أعرفهم، حتى ولو قلت لهم أنني كنت أحلم، فلن أجد مصدقاً. لكن ما عساي أقول؟ أنا معروف بأنّي أفسد اللحظات الجيدة، وليس بيدي حيلة، ولا أعلـــم لماذا أشعر بالقنوط وعدم الرضا؟ لماذا أنا حبـــيس العزلـــة واللامعنى؟ لا أعلم كيف أصف ذلـــك، أشـــعر أن هـــذه اللحظات ليست لي، ولست معنياً بها، كأنني لست بهـــا، وكأنني بعيد ومعزول بصورة مطلقة وعبثية، أصبحت فعلاً فاقداً للهوية، لذلك تجدينني مغموراً بالوحدة والخواء والحيرة.

بدأت أتعلم أن تأثير كوني فرانسوا بروجييه ليس بالتأثير السيئ تماماً، على الرغم من أن الراحة تجافي قرارة نفسي طوال الوقت. ربما يكون الذنب ذنبي أنا، ولو قُدر الأمر لغيري ليحلّ محلّي لكان أمره يختلف. لا أعرف، ولا أستطيع الجزم بهذا الصدد. إنه حمل ثقيل جداً تضطر أن تحمله معك، الذهن نفسه والذكريات عينها والخواطر ذاتها. شيء مروع، ما زلت أذكّر نفسي بين الحين والحين بمن أنا ومن أكون ومن يفترض بي أن أكونه، وعلى الرغم من أنني أشعر وكأنني انتُزعت من جسدي عنوةً على نحو ما، فإني لم أفقد ذاتي قط، وحتى لو أحسست للحظة أنّي أكثر خفّةً وتحرراً، فإن ذهني يجبرني أن أتذكر دوماً بمن أكون وبماذا يفترض بي أن أكون، لا يريدني أن أغفل عن حقيقتي، ولكن الشيء الوحيد الذي أدركته في الواقع هو أنني لا أدرك شيئاً، وما من شيء ممكن أن أفعله، وما من شيء مثل هذا يمكن أن يكون بالإمكان. أستطيع أن ألاحظ أنك لا تفهمينني من طبيعة نظراتك، كلامي صعب بطريقة ما؟ إنني أتفلسف، أليس كذلك؟

- أفهمك نوعاً ما.
- إن كل لحظة تمرّ بي هنا أجدها.. باهتة.. ناقصة، من غير أن أعرف الحقيقي منها والزائف، ما أصعبها من حالة! لا أعلم كيف أصفها، أشعر بأنني أحترق لأنني لا أتحكم بمشاعري ولا أستطيع أن أعبّر عنها بالكلمات.

كان من الواضح جداً أن اختلاف اللغتين بين علي وإيميلي قد ترك أثراً كبيراً، لم تستطع أن تملأ منه اللغة الإنجليزية إلا اليسير، وكان الحديث بينهما معقداً وشائكاً، ويمكن أن يلاحظ المرء أن علي معن

يتشنّج حين يتحدث خوفاً من أن تخونه كلماتــه الخجولــة ولغتــه الركيكة، أما إيميلي فكانت تصغي إلى أحاديثه بملء مسمعها وبفــم مفتوح، وكانت تستخرج من كلماته المفككة التي تقطعها الوقفــات والتلكؤات الكثير من الأشياء، فتفهم كلمة وتتجــاوز ثــلاث. وفي أحيان أُخر تصغي ولا تفقه شيئاً، وحينها يبدو واضــحاً في محيّاهــا الحيرة والارتباك، ما يتداركه علي بدوره ويسارع ليصحح ما اقترف ويستبدل الكلمات بمرادفات أخرى ليمحو الأثر السيئ الذي أثــاره حديثه.

- لكنك تنسى هنا شيئاً مهماً على ما أعتقد.
- أنسى ماذا؟
- تنساني أنا، من المفترض أن تحادثني محادثة شــخص معــني بالموضوع لا أن تقصيني. أن تقصّ عليّ حادثة الانتقال على سبيل المثال لتزيل حيرتي وشكوكي، أحتاج إلى مثل هــذا الحديث صدّقني.
- لماذا، ألا تصدقينني؟
- لا أدري.. ردت إيميلي وقد خانها صوتها، فوشى بــبعض الانفعال الذي يلوّن كلماتها وأضافت: لكنني بحاجة إليــك مثلما أنت بحاجة إليّ.
- وأنا أحتاج أيضاً أن تسمعي تفاصيل ما حدث.
- لِمَ لا تبوح بها إذاً؟
- حسناً، لا أعلم كيف أبدأ، ما زلت أسترجع ذكريات تلك الليلة كل ليلة، بل كل لحظة، وكأن الذكرى تمــرّ أمــامي كشريط تسجيلي عالي الوضوح، كنت في غرفتي في العراق

حينما اعتزمت النوم بعد أن نام الطفلان، كنا نتصارع أنا وهالة معهما ليناما ويهجعا، فهما بالعادة يبكيان ويتنغصان حتى ننكفئ ونجزع منهما. بعد ذلك أطفأت التلفاز وغفوت.

أتذكر أنني حلمت ليلتها حلماً غريباً، لم يكن حلماً بمعنى الحلم فكيانه وحدوثه حقيقة بحتة، وكأنني انتقلت من العتمة إلى وجوه آخرين، وجه بعد وجه بعد وجه بعد وجه، حتى فزعت واستيقظت من الحلم وكان حول رقبتي أنشوطة حبل معقود، وبطبيعتي النوّامة اعتبرت إن ما كان أمامي محضّ حلم آخر لا غير، لذلك خلعت من رأسي الأنشوطة وذهبت دونما وعي إلى سرير الغرفة واضطجعت هناك في الظلام لأكمل نومتي الأولى. وما إن وضعت رأسي على المخدّة حتى أطلق السرير صريراً مسموعاً أربك نعاسي، انتفضت وثاب إليّ رشدي وقفزت من السرير كأنّني شخص أصابته صاعقة واختفى النوم من خلف عينيّ، ودبّ رعب بارد بداخلي كأنني أعلم إن شيئاً مشؤوماً في طور الحدوث.

مددت يدي أتلمس زرّ الإضاءة فلم أجده في مكانه السابق، وحالما أنرت الغرفة اكتشفت ما لم يكن في الحسبان، ووجدت نفسي أقبع في شقة ما في طابق ما في مكان ما لا أعلم أين، أبهرتني لوهلة تركيبة المكان الخالي من التعقيدات والذي ينمّ عن ذائقة ورقي صاحبه غير المبالغ بها. كان البناء فاخراً والأرضية رائعة والجدران مدهشة والأبواب والنوافذ مرموقة بتزجيجها المزدوج، وكان الأثاث قليلاً إلا أنه عالي الجودة وهناك تقبع في الجانب خزانة كتب تحتل جداراً من أقصاه إلى أقصاه. مشيت نحو الشرفة العريضة المليئة

بسنادين خضراء خلف بابين صغيرين وتطلّ على شارع هادئ جداً، ربما لأن الساعة جدّ متأخرة فلا صخب ولا ضوضاء مسموع يدلني أين أنا حالياً.

عدت إلى أجواء الغرفة فوجدت عن يميني منزع ودولاب ثياب، قمصان وبناطيل ومعاطف وأربطة عنق وأحذية وعطور، ثياب سوداء وبيضاء وبنّية ورمادية وزرقاء وخضراء وحمراء، بخطوط ورسوم ونقوش، رسمية ورياضية وثياب نوم. وفي جهتي اليسرى كان هناك باب يفضي إلى مهجع إيطالي رنّان بسيراميك لازوردي دافئ وحوض جاكوزي ومرحاض ومغسلة وسخان مياه ونظام ضوء رومانسي خافت، وكذلك بالتأكيد كان هناك مرآة!

لا أحبذ أن أصف لكِ تفاصيل ما اعتراني حينما رأيت ما يقبع خلف المرآة، فأنا لا أقوى على استذكار كل مشاعر الخوف والرهبة. ولم تسعفني الأفكار الغائمة والضائعة بين عشرات الافتراضات الهشّة لتفسر لي ما حدث وما يحدث، فالعرق تصبب من كل جسدي المرتجف والقلب يضرب كطبول حرب والفم جفّ من كل لعاب.

رجعت قليلاً إلى الوراء، كأن قوى لا مرئية سحبتني إلى الخلف حينما اكتشفت أنني لم أكن أنا نفسي أنا الماثل في المرآة، ولا يوجد هناك من شيء قابل لقدح بصيص تفسير لما يحدث في عقلي ذلك الوقت. فركت عيني ومضيت أبحلق إلى شخصي الآخر الذي كان أقصر وأكبر من عمري، كنت ممتلئاً سمين الوجه والكرش بديناً، قوقازي البشرة مشرّباً بالحمرة وبالأخص الأنف الافطس، أزرق العينين وذا شعر سرح أشهل يفترق من المنتصف دونما عناء، وكان

لديّ لحية كثّة عالية ورغم إهمالها المتعمد إلا أنها تضفي المزيد من الرجولة والسحر على صاحبها.

ربما يعاب عليّ رهافتي وحساسيتي وما يعتريني بين الحين والحين من إحساس الغثيان، إلا أن ما أصابني في تلك الليلة كان له وقع آخر، وأحسست معه بهوّة جبّارة تنفتح داخل صدري المضطرم. صرخت وصرخت بصوت الشخص لا بصوتي، وخيل إليّ ولسبب ما، أن ما أراه حقيقة بحتة لا جدال فيها، ولا يمكن أن يكون الشخص الذي في المرآة أحد آخر سواي لكن بنسخة غريبة، ومضيت أحملق بعينين فارغتين إلى وجه الرجل المجهول الماثل أمامي إلا أنه كلما أطلت النظر فيه ازداد شعوري بالاختناق، وخفت أن أبقى أحملق على هذا النحو أكثر ويمسني دون إرادتي الجنون.

ثم جاءت نوبة الغثيان مرّة أخرى وبقيت تتصارع في أسفل معدتي وكأن هناك شيئاً ثقيلاً يدفع أحشائي إلى الأعلى، تخاذلت ساقاي واكتسحني النحول وتدفقت محتويات معدتي وأخذت تتصاعد في التواء ومخاض وتشنجات متتابعة. اعتصرت طرفيّ المغسلة بكلتي يدي منتظراً اللحظة الحاسمة لكي تأتي كالاحتضار. لطالما عاودتني مثل هذه النوبة المشؤومة، وكنت أتعامل معها في كل مرّة بأناقة وهدوء خبير، إلا أن نوبة الغثيان هذه قد اخترقت جسدي بقشعريرة أكبر فأحسست ببرودة العرق تملأ جبيني. بقيت هكذا أتلوى حتى لفظت أخيراً ما في جوفي كاندفاع شلال، وبقيت هكذا منهك الجسد والروح كالمحتضر المستسلم لا أتطلع إلى شيء.

رجعت متثاقلاً بجسدي وشكلي الجديد أجرّ قدميّ إلى الصالة، فاسترعى انتباهي شيء طارئ معلّق وسط الصالة في السقف، كان

هناك شيء لم أنتبه من قبل إليه بالوضوح الكافي، لأنني رمقته خطفاً و لم أكن بكامل وعيي في المرّة السابقة. كان هناك في السقف حبل انتحار، بقيت هكذا لوهلة معلقاً عينيّ في السقف ألهج بآيات وأتضرع أن ينتهي هذا الحلم المرعب بأسرع وقت ممكن.

انتقلت بعد ذلك لأتفحص ما حولي بحركة دائرية، وعكفت أفتح الأدراج وأتفحص الأرائك والأرفف، وجدت كتباً ملقاة في أماكن مختلفة على الأرائك والرفوف المحيطة بالصالة، وعاينت المخطوطات والرسائل والصور والبطاقات، لكنها لم تكن تعنيني، ذلك إن أغلبها كتبت بلغة فرنسية لا أتقنها. شغلت التلفاز فكانت القنوات والبرامج كذلك بلغة فرنسية هي الأخرى. هرعت إلى الغرفة الأخرى، وفتحت بابها الموارب وألقيت نظرة داخلها فوجدتها مكتباً بلا نوافذ ذات مساحة لا تتجاوز خمسة أمتار في ستة أمتار وذات جدران مليئة بالرسوم والخطوط والكاريكاتورات، ذوات تعابير جادّة وذوات فكاهة وهزل، وبأحجام وتصاميم وألوان مختلفة، وقياسات وأشكال وتراكيب متباينة.

مررت على غرف الشقة مرّة أخرى مروراً عابراً لكأنني أردت أن أتأكد مما رأيت في المرّة الأولى. ارتبكت واختنقت وارتعبت، يا له من موقف! بلحظة تهاويت على ركبتيّ بترهل واستسلام. ثم قفزت من مكاني وفزعت تاركاً كل شيء دونما تفكير وهرعت أركض نحو الصالة فالباب الخارجي للشقة. اغلقت الباب ورائي ونزلت السلالم هرولة لا ألوي على شيء إلا الهروب من هذا المكان.

خرجت من البناية وكنت خاوي الوفاض في الشارع، بلا محفظة نقود أو هوية تعريف أو هاتف نقال أو مفاتيح سيارة، فلم يكن

يهمني شيء سوى أن أجد نفسي في الخارج. لفعني بعض هواء الفجر البارد، نظرت إلى ما حولي متفحصاً فلم أفهم شيئاً، كل شيء كـــان بالنسبة إليّ مجهولاً، كان الشارع فارغاً بشكل رهيب وكان السكون مخيّماً إلا من صدى أصوات بعيدة لأبواق سيارات، وكان ضوء القمر الفضيّ يتعاكس مع الأرض السوداء بأضواء مجهولة المصدر، أيقنت أن الشمس ليس لها أن تشرق قبل ساعة أو أكثر، ولو أنه لا يبدو للزمن من معنى واضح في تلك الأحداث.

وقفت أستجمع أنفاسي ثم عاودت المسير بعجالة لا على تعيين، وسرعان ما عاودني شعور العجز والإجهاد، فمـــا عـــادت تحملـــني رجلاي وأطبق ظهري على صدري من الإعياء. وعلى الرغم من أني، بطبيعتي الغريزية، أرتعب خوفاً من فكرة المشي وحيداً بـــين الأزقّـــة المجهولة، لكن الضرورة أرغمتني أن أجتاز هذا الشارع منجرفـــاً إلى مفترق طرق معقّد وأخذت أسرع الخطى تجاه اليمين. كان مفتـــرق الطرق غنياً بالأضواء التي طغت على وجه الفجـــر، أمـــا حـــواف واجهات المباني الضخمة من كل الجوانب فقد حجبت شـــيئاً مـــن الفضاء و لم تبرز لها إلا أشكال هندسية ممسوخة.

أخذت أسير بحذر بادئ الأمر لكأني توجســـت خيفـــة مـــن التوهان والضياع في هذه الطرقات، وتريّثت متردداً قبل دخول أي طريق، ولكني واصلت المسير إلى تقاطع آخر ودرت حول قوس ثم لاحظت مدخل زقاق في الناحية الأخرى واتجهت نحوه إلى اليمين. دخلت الزقاق وأخذت أسير بمحاذاة الرصيف، لكن ســـرعان مـــا اعتراني الندم من تسرعي في الخروج دون جلب هاتفي النقال معي وقررت الرجوع إلى حيث كنت. كنت قد سرت منتصف المسافة

المقابلة لكتلة أربعة أو خمسة مبان، فرجعت وعــدت أدراجــي إلى حيث مفترق الطرق ذي الأضواء ودخلت إلى اليســار فوجــدت طريقاً آخر ضيقاً، لم أتعرف إليه جيداً وانتقلت إلى طريق فرعي آخر وأخذت أسير فيه. وكان كل ظنّي أنها الدرب المفضية إلى الشــقة، لكن سرعان ما انصدمت بما كان أمامي من شبه التواء غير متوقع، وبدأت أشعر أن هذا الطريق يضيق شيئاً فشيئاً ولن ينتهي بــي إلى منفذ على ما يبدو. فتباطأت الخطى ثم توقفت، وأغشاني الإحساس بالاختناق مرّة أخرى وبقيت ممتقع الوجه شاحباً متصــلباً، بــل لا أخفي عليكِ أنه قد تلامعت في عينيّ غشاوة دموع جعلت رؤيــاي مقلقة في المشي والاستدلال.

رجعت إلى مفترق الطرق للمرّة الثالثة ثم توقفت مبــهوراً ممــا أدركت أخيراً، فبين جحيم غدوي ورواحي في متاهة المنعطفات يبدو أنني قد همت وأن مفترق الطرق هذا ليس هو مفترق الطرق نفســه. أيقظ هذا التيه شيئاً ما في دخيلة نفسي وركضت مهزوماً لا ألــوي سوى على الفرار من هذه المتاهة الشبيهة بتلافيف الدماغ.

اشتد ضوء الصباح صعوداً في الاتجاهات وبدأ يــذوي النســيم البارد المنعش من الأجواء، هبطت منحدراً قوياً افضى بــي إلى شارع عام عريض الجوانب، كانت السيارات تقبل بانطلاقات مختلفة ثم تدبر وتختفي في الجهة الأخرى، أرهبتني حقيقية وواقعية المباني الصــرحيّة وتزاحم المحال والمطاعم وجعجعة السيارات وضجيج المــارة ووقــع أقدامهم وانكبابهم على المسير.

كان عليّ الانتقال إلى الجهة الأخرى من الشــارع، لــذلك اندفعت بكل قواي أسير في عرض الطريق بين السيارات مهزومــاً

من أبواقها التي لا ترحمني، ويبدو أنني عبرت من مكان ليس مخصصاً للعابرين! أخذت أعدو في الجانب الآخر بقلب خافق وفم يابس وخطوات عجلى، وهذه المرّة ركضت منافساً السيارات سرعتها، ركضت وركضت حتى انصدمت بحقيقة أن هذا الشارع لا يكاد ينتهي ويمتد على مدّ البصر دون التواءات، ولا ترى العين له من آخر ولا انتهاء، توقفت واتكأت على جدار مستسلماً في حافة الرصيف.

هكذا بقيت واقفاً مستسلماً القي نظرتي الأولى إلى نيس وتمعنت مثل شخص ينظر خلال مجهر. نعم، هناك فقط أدركت أنني في فرنسا. كنت خائفاً، غاضباً، لا أدري ما كنت، ما أذكره فقط أنني كنت أتأجج بسورة مشاعر وأخذت أصرخ وأصارع كل من حولي بهيجان الممسوس لا لسبب جليّ واضح سوى لأجل الصياح بحدّ ذاته، أقمت الدنيا وأقعدتها يا إيميلي بغوغائي وجنوني وصياحي المسعور، وما هي إلا دقائق حتى التقطتني سيارة نجدة في ذلك الشارع العام، ظنّوا أنني مجنون لا شكّ في ذلك، أو بالأحرى كان فرانسوا بروجييه مجنوناً بنظرهم لا أنا.

- وبعد ذلك؟
- وبعد ذلك تعرفين أنت تفاصيله أكثر مني.
- يكفي كلاماً الآن، دعنا نتحدث بموضوع آخر. ما رأيك؟ ماذا تحب أن تطلب على الغداء؟
- لا أدري، هل تتوقعين أن أعرف شيئاً مما تأكلون؟

كان من الواضح أن إيميلي أخذت تكابر بتصرفاتها وتحاول أن تزيل الانفعال الذي سببه حديثهما السابق فمازحته بقولها:

- لم أتوقع منك أن تقول سوى ذلك، ولهذا السبب أيضاً ارتأيت أن أطلب لك سلطة النيسواز[1]، والحقيقة تقال، إنها الوجبة الوحيدة التي يقدّمها هذا المطعم ولا تتعارض مع حميتي الغذائية! ها؟ ما قولك؟ هل تطلب مثلي؟
- لا تعليق، أنا أثق باختياراتك.
- بل أنت مجبور على الثقة بي، أؤكد لك أن هذا المطعم يقدم النيسواز كطبق إيطالي وليس نيساويّاً، حتى أنني إلى الآن لمّا أتعوّد على تهجئته الإيطالية. دعني أستعد لتلفظها «الاينسالاتا نيزاردا»، ينتابني شعور رائع بمجرد محاولة تهجئة هذه الكلمات وإخراجها من فمي. يقولون إن هذا المطعم يستخدم تونا الألباكوري اللاتينيّة وليس تونا عادية، على الرغم من أنني لا أعلم ما الفرق بينهما صراحة!
- أرجوك لا تشرحي أكثر، فكلما أسهبت في الشرح جعلتني أبدو أكثر غباءً. عليك أن تخفّفي وطأك عنّي قليلاً وأن لا تعامليني كأنّي شخص مولود في الكوتازيور. ربما لم تلاحظي أن أحاديثك وشروحاتك غطّت أقاصيص وأوصاف نيس وحواضرها وتاريخها وكأنك مرشدة سياحية خبيرة. وربما لم تنتبهي أيضاً إلى أنك كفّيتِ ووفّيتِ حق النيساويين وعاداتهم وأسمائهم وأكلاتهم وحتى فضائحهم، وقيل وقال أزقتهم وشوارعهم. ومما يؤاخذ على

(1) تشتهر سلطة النيسواز (Salade niçoise) في نيس على وجه الخصوص، وتحضر وتقدّم كوجبة رئيسية متكاملة لاحتوائها على التونة والبيض والبطاطا والطماطم والخل والخردل والفلفل والزيتون.

طبعي الكئيب أن هذه الأشياء لا تستهويني، بـــل يؤســـفني الاعتراف بأن كل الأكلات عندي سيّان ما دامت ليســـت بطعم مرق بامية زوجتي.

- هل يمكن عدّ ما نطقت به رومانسياً؟

فأجاب مازحاً:

- لا أدري! ماذا كان ليعدّه فرانسوا يا ترى؟

نفذ إلى كلامها شيء من القلق حين تذكرت فرانسوا بروجييه، فقد كانت تتوجس خيفة وترتعب كلما تتذكره:

- لم تكن هذه المواضيع تستهوي فرانس أيضاً.
- هل تسمحين لي بسؤال يشغل حفيظتي؟
- أي شيء.
- هل حقاً تعتقدين إنه الآن في كوريا الشمالية؟

## ملكال/جنوب السودان

نهار 18 فبراير 2016

### (4)

لم تكن مبالغة من إيميلي أن توجست خيفة أو تطيّرت بسبب انقطاع أخبار فرانسوا بروجييه، بل كان يجدر بها الهلع أيضاً! وإلا فما الذي يمنع من اتصاله؟ وما الذي كان يشغله في تلك الأيام؟ وما الذي حدث في ملكال على وجه العموم؟ وهذا هو في الحقيقة سؤال المليون. لأن جوابه يبلغ من الصعوبة والتعقيد وحتى لو حاولنا الإجابة عليه الآن لا يقنعنا جواب. لأن من المحال توثيق كافة الأحداث الرهيبة والمتسارعة في المخيمات التابعة للأمم المتحدة، ولا يمكن تصوير حالة الذعر والهلع العام المباغت لسكانها المساكين.

فقد اهتزّت الأرض تحت أقدامهم من وقع دوي الانفجار الأول، ثم ما لبث أن تبعه بدون فاصل انفجار ثان أعنف وأقسى، وتتابعت كذلك أصوات رصاص وحلّ صخب وهرج وصراخ، وانبعثت أعمدة دخان حرائق وخيّمت نيران جبّارة في الأفق من كل الاتجاهات.

ويجدر التنويه هنا قبل المضي بسرد الرواية بأن توثيق الأحداث بتفاصيلها وتواريخها ومن ثم تبويبها وأرشفة الوقائع التي جرت بتسلسلها وترتيبها الزمني نفسه دون السهو واللغط يبلغ من الصعوبة

المطلقة ما لا يتخيله لبّ لبيب وعقل عاقل، وكما إن تجميع الأخبار والتقارير ومعالجتها كحقائق يجب أن تكون عادلة وموضوعية وشفافة وغير منحازة ومسؤولة ومنصفة للجميع، ويجب ألا تكون بدافع مصلحة ذاتية أو ربح تجاري، ولا أن تحرّض على العنف أو تقتحم الخصوصية الفردية. وكل هذا يفسر بصورة وبأخرى لماذا لا تغطي أغلب الجهات الإخبارية المتخصصة من أنباء وصور بأسلوب ودقة ما لا يتناسب مع ما يحدث في أرض الواقع، اللهمّ ما خلا العناوين العريضة للأحداث التي لا غبار عليها، وما عدا ذلك فلا يمكن اعتبار أغلب الأخبار ذات قيمة جوهرية حقيقية. لذلك فإن الأعمّ الأغلب من الناس كان يشكك بأسباب نشوب الحرائق، وكأن الحقيقة قد سترت وطمرت تحت كثير من الذرائع، وما زال يسود الحكاية غموض حتى يومنا هذا. ومن أجل هذه الأعذار السابقة اقتصرت روايتنا على ما نملك من أخبار فقيرة بما يتسع الموضوع له بهذا الخصوص:

كان الحشد عنيفاً ومهولاً جداً، وكان الرجال يركضون مذعورين وتتبعهم النساء مروّعات دونما اتجاه. ولو أمكن لأحد أن يقف على أطراف أصابع قدميه ليشاهد الحشد أو أن يكون هناك مجال لتصوير الوضع من أعلى لمتابعة ما يحدث للأرض والناس، فلسوف يتعجب من عظمة الحشود وهي تهرع راكضة في جميع الأنحاء، ففي كل صوب رجال ونساء، كهول وشباب وحديثو الولادة، طوال وقصار، سود وناحلون، مكسوون وعراة. وهنا ترى من يساعد في إطفاء الحريق لينقذ ما يستطيع إنقاذه من ممتلكاته، وهناك زمرة لم تزد على المنظر إلا مشاهدة، وهناك من هاج وماج

وتوجه دون تردد هارباً نحو بوابة الخروج الحديدية للمخيمـــات، ولا غرابة أن يترك الشخص أفراد أسرته أو ممتلكاته ويلوذ بالفرار من هول الفوضى.

وربما لم يكن للنيران أن تستمر إلا لوهلة قصيرة لـــو تكاتفـــت الجهود من أجل إخمادها، إلا أن الريح القوية هيّجـــت أوار الـــنيران أكثر، وأخذ الحريق يزحف في كل الاتجاهات وينتشر انتشاراً مرعبـــاً حارقاً المخيمات كلها، فتحول ما أحترق منها إلى رمـــاد وحطـــام، وتسربت الرائحة الكثيفة في الذرات وساد لونا الأسود والرمادي على باقي الألوان. وفي النهاية توجه الجميع نحو البوابة هرباً مـــن الـــوهج الصاعد وغيوم الدخان الواطئة، واصطبغ الفضاء بالســـواد وغلبـــت فرقعات الشرر واللهب المتقاذف والمتراشق من خيمة إلى أخرى.

تكدس البشر بالمئات في دروب صغيرة وهم يتدافعون كالأمواج في محيط متلاطم، وكان يبلغ الوضع من التزاحم والتدافع بحيث إنه لو تخلّف أي شخص منهم خطوة واحدة فإن جسده سيداس بين أقدام المتدافعين لا محالة ولا يضرّ من الحشد شيئاً، فيصبح جسده مرتكـــزاً للذين يدفعون من الوراء ليجتازهم الجمع الجديد، فاللاحقون يدفعون الأولين، ولولا أن الطريق وحل ولزج لمات كل من تعثـــر وســـقط وتهشمت أضلاعه تهشيماً.

نعم، لقد جرت أحداث هذا المشهد بسرعة كبيرة، مـــا بلـــغ بفرانسوا بروجييه مبلغاً جعله لا يستطيع التفكير في شيء، وكان يسير متحاملاً على تعبه بعد أن هدّه البرد والإعياء برأس متقلقل وجســـد محموم ولهاث متعال وعرق غزير. كانت الحرارة تنفر وتتمدد خارج جلده، وكان يتحركً مع الحشد بمشقة ملتحفاً بطانيـــة صـــفراء. ولم

يكن بمقدوره الاختيار بين المضي قدماً أو أن يدع الآخرين يتجاوزونه، فمن المستحيل أن يستمر بالسير شبراً آخر لولا أنه كان ينساب مع اندفاع الحشد، ولولا أنه كان مسنوداً في مسيره من أكول على اليمين وابن ياي آبور البكر «أوكاج» على جهة اليسار، حيث أنه كان يتكئ عليهما كأنهما عكازان، وكان سيره مرهوناً بهما. ولو أمعن المرء النظر من أعلى يمكنه مشاهدة فرانسوا بروجييه وهو يغوص ويظهر كالسبّاح من بين مئات الرؤوس وما أن يختفي حتى يعود ويظهر من جديد، وكانت زوجته والأطفال يسيرون معه ومن حوله ولا يفصله عنهم في هذا الحشد الغفير إلا القليل فلا يتخلفون عنه سوى خطوات.

تجمع المئات بعد ذلك في ممر موحل مكتظين عند بوابة الخروج ذات الثلاثة أمتار، هاجوا وماجوا من شدّة الهلع والاضطراب خلف البوابة، كانت الأشراك على الرغم من صلابتها تهتز وتصرصر تحت ضغط ذلك الجمع الكبير، أخذت الحشود تطلب وتتوسل من جنود قوات حفظ السلام أن يفتحوا لهم البوابة، إلا أن هؤلاء لم يعبأوا أو يكترثوا بهم وكأنه قد طُلب منهم ذلك. كان الناس يائسين إلى درجة أنهم أرادوهم التحرك حتى ولو فرقهم الجنود وفضّ تجمهرهم بالقوّة أو أطلقوا النار في الهواء أو حتى عليهم، لكن الجنود لم يفعلوا أي من ذلك. وكان الأوان قد فات، لأن الجمهور جن جنونه تماماً، وتشبث الواصلون بالأسوار الشائكة، وأقحموا أصابعهم في الثقوب وأقدامهم في الفجوات وشرعوا بتسلق السور، وأما الذين لم يستطيعوا التسلق فقد أخذوا بتمزيق الأسلاك من الأسفل وعمل شقوق فيها، وهكذا تمزقت أيدي كثيرين وتندّت بالدماء بفعل حواف الأسلاك الشائكة

الحادّة. وفي وسط هذه البلبلة والفوضى اندفع الجنود أخيراً وقرروا أن يفتحوا البوابة على مصراعيها. وكان الأجدر بهم ذلك، فلو تـأخروا دقيقة أخرى لانهارت البوابة بفعل الدفع والتزاحم. وما أن فتحت البوابة حتى تدافع الجمهور بصخب وهيجان عظيمين إلى الضفّة الأخرى، وتجاوز الجمع السور وخرجوا لا يلوون على شيء سوى الفرار.

## (5)

اتفق مئات النازحين لا شعورياً على أن يحطّوا رحالهم في العراء، فافترشوا الأرض بعد أن هاموا عشرات الكيلومترات مشـــياً علـــى الأقدام في ذلك الجدب المترامي جنوب ملكال، ولم يكن على امتداد الأفق ومساحات الأرض التي تحيط بتلـــك الطريـــق الموحشـــة إلا شجيرات متناثرة وخرائب محترقة وهواء طري فاسد.

وكان الغبار المتراكم قد خلفهم، لا سيّما الكهول والأطفال، في حال من القذارة يستحيل وصفها، فكانت وجـــوههم مغطـــاة بالسواد وأقدامهم عارية لا تقوى على ثبات ونظراهم حبلى بالآلام وثيابهم خرقاً وأسمالاً ممزوجـــة بالســـناج والأتربـــة والقطـــران، وكأنهم يرتدون لوناً متشابهاً وزياً رسمياً يســـمهم بدلالـــة العـــوز والانكسار.

وعلى الرغم من أن منظمات المجتمع المدني غـــير الحكوميـــة والمنظمات التابعة للأمم المتحدة كمنظمة اليونيسيف وأطبـــاء بـــلا حدود لم تنقطع خلال تلك المدّة عن تقديم العون والمســـاعدة بمـــا تستطيع تقديمه من غذاء ودواء وكساء، إلا أنها أعلنت خلال يومين فقط عن استسلامها، واعترفت بعجزها عن استيعاب هذا العـــدد المهول من النازحين. وكان موقفهم منطقياً بشكل أو بآخر لكـــون جميع مقدراتهم لا تشكّل قطرة ماء في دلو ولا تسدّ من الأفواه مـــا يستحق الذكر والثناء. وكان أغلب الناس من شدة الجوع والـــبرد يجلسون متربصين قدوم أي مساعدات تقترب ناحيتـــهم، وحالمـــا يلمحون قدوم سيارة من بعيد يتهافتون عليها تهافت أسراب الغربان المتناحرة حول جيفة، ولم تكن المساعدات الغذائية تغني شـــيئاً ولا

الأغطية والبطانيات. ولشدّ ما أصبح الوضع مستحيلاً، فإن تلك المنظمات قررت أن تنقل هؤلاء النازحين وتوزعهم بين مخيمات ناصر وجوبا وبور إلى حين إعادة تأهيل الخراب والدمار في مخيمات ملكال.

وهكذا انتظرت الأسر أن يحين دورها ليقلّوها إلى تلك المخيمات، ومثلهم انتظرت أسرة ياي آبور. وكان حال هذه الأسرة بالذات يتقطع لها ثنايا القلب، بل إن جميع النازحين كانوا يتعاطفون معهم ويرجون مساعدتهم، لأن مشهدهم وهم يراقبون أباهم يذبل ويحتضر أمام أعينهم كان الأشد إيلاماً والأدعى للمرارة والأبعث على الأسف.

فقد أصبح فرانسوا بروجييه في الأيام الأخيرة خائر القوى، ذابل العود، شاحب الوجه، بعد أن فتكت به الحمى كليّاً، وكان يقضي يومه ممدداً في عربة دفع خشبية بتنفس خافت ونظرات غائمة وتنكيسات رأس يُرثى لها، وكأنه فقد الإحساس بالإحساس نفسه، أو أن هناك مواضع في دماغه قد أصابها العطب وتقطع الاتصال فيما بينها نهائياً.

وكان يهذي دون شعور ويرغي بكلمات فرنسية غير مفهومة بلا باعث أو دافع، فينقطع عنه الوعي وسلامة الحسّ في لحظة ما ويعود إليه في لحظة أخرى. وحالما يعود إليه وعيه ينتفض من مكانه مرعوباً ويجاهد أن يستوي جالساً رغم ترنحه ودواره باحثاً له عن مسند، كما لو أن كرامته معلقة بهذه الهيئة. وكان يطلب الماء في بعض الأحيان من نيانو أو من الأولاد ليعود بعدها ويتكئ على عمود حديدي قريب دون أن يسأل مساعدة أحد.

وكانت نيانو تحاول في كلِ مرّة إعانته بما يتيسر لها من سبيل، لكن حالته أخذت تتدهور رغماً عنها شيئاً فشيئاً، ووصلت به إلى وضع بائس لا يُرتجى منه التحسن أبداً.

كان ذلك في ليلة ظلماء موحشة، إذ اضطربت أنفاس فرانسوا بروجييه وغاب عنه الوعي كلياً، ويمكن القول إن وضعه ينبئ بشيء واحد لا غير، وربما تكتنف الساعات القادمة بين عقاربها لحظات الوداع الأخير. حدست نيانو ذلك وهي تمسّد وتمسح جسد زوجها المحموم بالكمادات مع ابنتها لينا، تنهدت من وقع الفكرة المشؤومة دون إرادتها، وقالت وكأنها تتحدث مع نفسها:

- أشعر أن شيئاً سوداوياً سيحدث الليلة.

ارتعبت لينا من وقع حديث والدتها لأنها لم تكن متحضرة لهذا الشأن، ولم تتوقع أن يكون هذا الخيار مطروحاً قبل الآن، أسرعت وأيقظت أخاها أوكاج، وطلبت منه أن يهرع لجلب أي مساعدة ممكنة.

عادت لينا إلى والدتها فوجدتها تبكي وتنوح، أدركت أن كل ما يعتلج في ذهنها من مخاوف وكل ما يراودها من كوابيس تحققت أو ستتحقق عن قريب، يا لها من فكرة كابوسية تقضّ المضاجع! ويا لهذه الليلة المشؤومة التي باتت ليلة الوداع!

- لِمَ البكاء يا أمي؟

- والدك لا يستجيب، حتى وأنا أحادثه عن ذكرياتنا لا يسمعني، أردت أن أسترجع معه ذكرياتي أو أن أختزل حياتنا معاً بمجموعة قصص لكنني أعجز عن ذلك. هل يمكن اختزال حياة شخصين بمسرّاتها وأوجاعها في ليلة وداع يتيمة؟

صعدت العبرة وخنقت نيانو، انتفضت وخرجت إلى الطريق العام ترتقب أي معجزة، كانت تعّد أي شيءٍ خارج عن المألوف معجزة، أي شيء! حتى إن كان موتها عوضاً عن زوجها يمكن اعتباره معجزة لقبلت به. كانت تسير بلا شعور في منتصف الطريق كالموتى الأحياء، ضاق اتساع الأرض في عينيها وبدت موحشة أكثر من قبل.

بعد ساعة أو أكثر، لمحت من بعيد ضوءين متوازيين متقاربين فصرخت بعالي صوتها:

- معجزة..!

لحقها أكول وأتجه نحوها حين سمع نداءها.

- معجزة.. معجزة.. سيارة.. سيارة..

اقترب مصدر الضوء أكثر وانكشفت معالمه، كانت سيارة، شاحنة نقل، لنكون دقيقين. وقفا في منتصف الطريق يلوّحان بأيديهما ويطالبان السائق بالتوقف. اتضح لهما حين توقفت الشاحنة أنها مليئة لآخرها بالأشخاص. واتضح أيضاً أنها لم تكن معجزة مثالية ونموذجية البتّة، لأن سحنة السائق والركاب وهيئتهم لم تكن سحنة نازحين، كانوا مرتزقة مدججين بالسلاح، وكانت رائحة القتال والموت تفوح من مساماتهم! فهل يحق لنيانو الامتعاض أو الاعتراض أو التخيير أو المطالبة بإيضاحات؟ وهل لديها حلّ آخر؟ وفي الأوقات الاستثنائية لا بدّ من اتخاذ إجراءات استثنائية، ولذلك أرغمتها الضرورة أن تلجأ إلى التوسل والخضوع والتضرع للسائق والركاب أن يحشروا زوجها في أحدى زوايا الشاحنة ويقلّوه كيفما اتفقوا واستطاعوا لأي مكان فيه طبابة وعلاج.

كان السائق شخصاً غريب الأطوار، وذا ملامح وجه جافة مختلطة يصعب فرزها؛ بلاهة واستخفاف وعدم اكتراث، كان شخصاً مريباً ببساطة. فلم تستطع نيانو أن تجزم ماذا يضمر خلف عينيه، لكن ليس باليدّ حيلة، حتى أن فرحتها بقدومهم قد خفتت بعد أن أومأ برأسه موافقاً أن يقلّ زوجها، تقبلت الحال على مضضٍ وحملت الأب المحتضر ووضعته مع الركاب في الخلف، احتضنته وقبّلته مغمومة مغمورة مغموسة بالدموع. إنها لحظة الوداع، أليس كذلك؟ ومن ثم انطلقت الشاحنة مبتعدة نحو الجنوب.

تصنّمت نيانو على قارعة الطريق تراقب الشاحنة تبتعد وتتحول تدريجياً إلى طيف في الأفق، وكان عميق ما فكرت به أصابها بالشلل وجعلها عاجزة عن الحراك. اختفت السيارة في الظلام، لكنها بقيت ترتقب، لم تنتهي من مراقبتها بعد، لم تنتهي..

كانت هذه - للأسف الشديد - آخر مرّة يُسمع بها عن زوجها وعن أخباره إلى يومنا هذا، وعند هذا الموضع تبدو القصة غير قابلة للإضافة رغم عدم اكتمالها، وما من شيء بهذا القدر من البساطة، فمع ما لدينا من أخبار غامضة وضبابية وشاغلة لحيز واسع من المجهول والتساؤل، إلا أنه لا يمكن الاعتداد بهذه الأخبار ولا الوثوق بقوامها، وربما يعود قبولنا للتفاسير التي جاءت أعقاب ذلك إلى إنه لا يوجد أمامنا خيار آخر لقبولها إلا قبولها.

# الفصل الرابع

## (1)

## أمٌّ تذهب إلى سريرها أمريكية وتستيقظ "إيطالية"

**Sacramento Bee، 14 نيسان 2016**

بين ليلة وضحاها، تغيّر كل شيء في السيدة كلير هدسون ذات الخمسين عاماً. فبدون أي سابق إنذار، بدأت تتحدث كأنها شخص ترعرع في القارة الأوربية وتحديداً إيطاليا! وحين نصفها بأنها بدأت تجيد الإيطالية لا نقصد بذلك إتقان قاموس معين أو إجادة لكنة وديالكت معينة أو سرعة بديهة وتحسّن ملافظ فحسب، بل اللغة بمجملها قد تغيّرت، وحتى الإيماءات والنظرات والحركات وطريقة المشي لم تعد تشبه صاحبتها شيئاً.

ويكمن العجيب في الأمر أن السيدة هدسون مدرّسة الثانوية في دوس ريوس رفضت الاعتراف بأن تكون نفسها كلير هدسون، وزعمت مدّعية بشكل نهائي وقطعي وأن اسمها «آرورا كولّاتي» وأنها تعمل في حانة في نابولي في إيطاليا.

هل تبدو القصة غريبة؟

في واقع الأمر، إنه لم يبقَ من دلائل على شخصية كلير السابقة سوى الشكل والمظهر ونبرة الصوت المميزة، ولكن ما أن تتحدث معها حتى لا تشك بأنها ممثلة أوبرا غيتانو دونيزيتي، وربما

من لا يعرفها سيظن أنها نشأت وترعرعت بين نابولي وستروفولي وكابيش!

ومن جانبه أوضح الكادر الطبي في مركز يو أس ديفس للعلوم العصبية في ساكرامنتو أن ما تعانيه هدسون يعّد حالة طبية نادرة جداً، أشبه بتلك الحالات التي نشاهدها في ديسكوفيري هيلث ودكتور هاوس وإي آر.

أما الأطباء فقد اختلفوا حتى اللحظة هذه في أمر التشخيص، فبعضهم يعتقد أنها ناجمة عن تجلّط دماغي وعائي أو نوع شقيقة نادر جداً، وآخرون ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك وأوعزوا ما تعانيه إلى حالة اضطراب الشخصية الفصامي نادر الحدوث. وأشار البروفيسور ريتشارد ويلز رئيس قسم العلوم العصبية في مركز يو أس ديفس إلى "أنه حتى الآن لّما يجزم أحد فيما تعانيه السيدة هدسون". وأضاف قائلاً: "إن التشخيص يعتمد في الأساس على عملية الإقصاء، أي إن الكادر الطبي يعمل على استبعاد الحالات المشكوك بها واحدةً تلو الأخرى، إذ لا يوجد تحليل مختبري أو تصوير دماغي معتمد لمثل هذه الحالات النادرة".

وفي حديثه عن السيدة هدسون ومرضها أفاد زوجها السيد رافاييل هدسون "إنه لم يحدث شيء يثير الريبة في اليوم الذي تغيرت فيه كلير، فقد عادت إلى المنزل متعبةً وصعدت إلى غرفتها ونامت تلك الليلة، وما أن استيقظت وتحدثت إلينا حتى اكتشفنا أنها أصبحت شخصاً آخر...".

وأنهى السيد هدسون حديثه قائلاً: "إننا نصلي أن تتحسن حالتها في أقرب وقت، لأننا لم نعد نعرفها بعد أن اختلف فيها كل شيء،

هي نفسها لا تعرف ما حدث وما يحدث لها، وهذا شـــيء يرعبـــها كثيراً، ويرعبنا أيضاً".

## (2)

## الرجل الذي تحول إلى جنوب سوداني

Dallas Morning News، 11 مايو 2016

تخيّل أنك تستيقظ في يوم ما لتجد أنّك قد تقزّمت أو تعملقت كما في قصة «أليس في بلاد العجائب»، أو أن تجد أنك أصبحت في جسد غريب غير جسدك، أو في منزل وولاية ووطن غير منزلك وولايتك ووطنك! هل يبدو لك ذلك مثيراً؟ "ليس لو حدث هذا لك" بحسب ما يقول السيد هورويتز.

نحن في عصر لم يعد يعترف بوجود المعجزات، وذلك، يحتّم علينا إيجاد تفسير ملموس لحالة أريك س. هورويتز بطل الفلم الوثائقي المثير للجدل "الرجل الذي تحوّل إلى جنوب سوداني" الذي انفردت بعرضه أول مرّة قناة الـ «CBS» قبل ثلاثة أيام، إذ انتشرت مقاطع مقتطفة منه بسرعة مهولة في مواقع التواصل الاجتماعي محققة أعلى المشاهدات، وعلى الرغم من أن بعضهم اعتبر القصة مبتذلة ومبالغ بأمرها، فإنها تستحق الوقوف عند حيثياتها على أقل تقدير.

ليست القصة طويلة ومعقّدة البتّة، وربّ كاتب من الكتّاب الواعدين الذين لا يجدون ما هو خير من كتابة رواية سيستغل الموضوع ويسوغه في قالب روائي بشكل ما. فالحالة ليست مطروقة من قبل، اللهّم إلا ما نقرأه ونشاهده في الحكايات والخرافات وقصص الكومكس المصوّرة وأفلام الخيال العلمي.

وحسب ما ذكر فإن السيد أريـــك س. هـــورويتز ذا التســـعة والثلاثين عاماً الذي لا يجيد لغة أجنبية أخرى غير الإنجليزية، و لم يزر في حياته دولة أجنبية سوى كندا. كان قد قضى أغلـــب حياتـــه في فلوريدا وانتقل مؤخراً بعد طلاقه إلى دالاس ليبدأ عملـــه الخـــاص في خدمات شحن وتوصيل الطلبات، وما زال يعيش حالياً مع صـــديقيه في الجانب الجنوبـــي لشارع لمار.

"لقد غيّر ما حدث في الثامن عشر من فبراير حيـــاة أريـــك كلها"، يقول مايك رفيقه في السكن ويضيف: "الشيء الوحيـــد الذي اعتزم على فعله ذلك اليوم هو مواعدة صديقته وتناول العشاء معها".

وللحديث عن غرابة حالته يضيف مايك قائلاً: "في صـــباح الثامن عشر من فبراير، ارتعبنا حين وجدنا أريك لم يعد في وجهه لون، وأصبح هائجاً مزمجراً بكلام ولغط لم نعرف له معنى. اجتمعنا حوله لتهدئته، وباءت محاولات استيعابه بالفشل، ولذلك أسرعنا به إلى المستشفى. وكان الرب رحيماً به وبنا هناك، فقد سمعت كلامه موظفة استقبال من أصول جنوب سودانية. تقدمت نحوه وتحدثت معه بلغة غريبة عجيبة. تفهّم كلامها وهدأ وتحادثا حتى أفغر لهمـــا أفواهنا وأثارا فينا الخرس، وتأكدنا حينـــها أن كلامـــه ذو غايـــة ومعنى".

ويبدو أن الأدوية لم تطفئ من هيجان السيد هـــورويتز شـــيئاً وبقيت حالته معنّدة، وظلّ محتفظاً باعتقاده الجازم من أن اسمه هو ياي آبور وليس أريك س. هورويتز، وأنه يسكن في مخيمات للاجـــئين في جنوب السودان.

وفي تصريح خصّت به أخبار دالاس الصباحية[1] أفادت السيدة «ماري بوك» موظفة الاستقبال: أن ما قاله السيد هورويتز حقيقي مئة بالمئة، وإن أسرة آبور موجودة حقاً في جنوب السودان، وأنهم من وجهاء القبائل هناك على حدّ قولها، بل أن والدها يعرف والده حق المعرفة.

ومن الطبيعي أن فضول من يتابع القصة باهتمام مدقق بحثاً عن التناقضات والزلّات وانعدام المنطق سيطالب بأن يفسر له الكثير من جوانب القصة التي يسودها الغموض والتساؤل، وأننا نؤكد له أن فلم «CBS» الوثائقي استقصى وأجاب الكثير من التساؤلات.

من جانبه نفى الكادر الطبي أن تكون هذه الحالة الدراماتيكية حقيقية، وأكدّوا أن هناك تهويلاً وتهويماً وتهويناً بتوثيقها، وكذلك رفض الكادر جملةً وتفصيلاً ما أطلقناه من اسم على الحالة الطبية الغريبة، إذ أطلقنا عليها «متلازمة أريك/ياي»[2]، وأضافوا إن السيد هورويتز لا بدّ أن يكون مصاباً بوهم مرضي وما إن يلتزم بالعلاج ومواعيده ستختفي الأوهام والخيالات كفقاعات الصابون ولن يدّعي بعدها ويتحدث مثل ياي آبور.

وفي نهاية الفلم الوثائقي، اختتم "أريك" أو "ياي" حديثه بلغة جنوب سودانية قائلاً "إن أسرتي تحتاجني أكثر مما تتصورون. لا أريد شيئاً غير أن أعود اليهم؛ أعود إلى الشخص الذي كنته، وإلى الشخص الذي أتطلع أن أكونه".

---

(1) Dallas Morning News.

(2) Eric/Yay syndrome.

ومن الجدير بالذكر إنه بعد ظهور الفلـــم الوثـــائقي والضـــجّة الإعلامية المصاحبة له، صرّحت وسائل إعلام مختلفة باكتشاف ســـبع حالات أخرى شبيهة بحالة أريك/ياي سندرم، ثلاثة منها في الولايات المتحدة، منهم امرأة من ولاية كاليفورنيا تدّعي أنها إيطالية، وشخص آخر من نيوجيرسي يزعم أنه من بنغلادش!

(3)

## بيان عن تفشي ظاهرة أريك/ياي سندرم في البلاد بشكل غير متوقع

The New York Times، 24 يونيو 2016

تعقيباً على البيان الرسمي الذي بثّ مؤخراً، قامت حكومة الولايات المتحدة بالتنسيق مع حكومات الدول المشمولة الأخرى بإعلان حالة الطوارئ تحسبّاً لتفشي جائحة كونية مبهمة تُدعى أريك/ياي سندرم في مختلف مناطق البلاد.

وفي بيان له، أكّد مصدر مسؤول في وزارة الصحة والخدمات الإنسانية أن الحكومة الفيدرالية أعلنت أمس الاثنين عن احتواء الحالات واستدعاء منظمات دولية مختصّة لتهيئة عمل أكثر فعالية وبأقصى قدر من التنسيق تلبية لطلب من الحكومات المحلية في واشنطن وكاليفورنيا وميزوري وتكساس ونيوجيرسي ونيويورك وأوكلاهوما وكارولينا الشمالية.

وصرّح المصدر المسؤول أن الحكومة مهيأة لكل الاحتمالات التي يمكن تخيّلها وتعمل على قدم وساق وبمستوى عالٍ لرسم خطة تحسبية لاحتواء حالات أريك/ياي سندرم وعقابيلها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية وغيرها من الأمور التي لا نعرف تأثيراتها في المدى الأبعد.

وناشد المصدر بدوره المواطنين أن يكونوا أكثر يقظة وحذراً وأن يزاولوا حياتهم كالمعتاد بالرغم من أنه لم ينفِ أن يكون الحدث جللاً

وخطيراً ولا جدوى من القفز فوقه، فقد أضاف في نهاية حديثه بأنّ اللبسّ الحاصل في الأعلام لا يعني بالضرورة تعارضاً في الموقف أو خطراً على الوضع الأمني. وإنه لا يمكن استبعاد أن يكون توقيت اكتشاف الحالات محض صدفة وأن لا تتجاوز هذه الإجراءات مستوى الحيطة والتنبؤ.

ولا يوجد حتى الآن الكثير مما يمكن فهمه عن ظاهرة أريك/ياي سندرم ولا عن أسبابها وطبيعة تكوينها وأعراضها وعلاماتها ولا عن تخمين كيفية زوالها لعدم وجود إحصائيات دقيقة عنها، وكذلك لم يجدّ الباحثون أي رابط ابيديميولوجي بين الحالات سوى أن جميعها حدثت في وقت واحد في الثامن عشر من فبراير الماضي.

ومن الجدير بالذكر، فإن متلازمة أريك/ياي سندرم ظاهرة مثيرة للجدل ومجهولة السبب والمسبب، إذ يعاني المصاب بها من اختلاف جذري في شخصيته مدّعياً أنه شخص آخر تماماً، بل إنه لا يبقى من الشخص السابق غير الجسد والمظهر والصوت، ويكون للشخصية المتغيَّرة اسم وعمر وجنس ولغة وهوية وعرق وديانة وأفكار وذكريات وأحاسيس وماهية خاصة به. ويشاع أن الشخصية الجديدة التي تتلبّس المصاب ليست من وحي الخيال، بل إن لها وجوداً فعلياً ملموساً في دولة ولغة أخرى، وربما أصيب صاحب الشخصية هو الآخر بأريك ياي سندرم، ولكن لا يوجد ما يثبت هذه المزاعم حتى الآن.

وسجلت وزارة الصحة والخدمات الإنسانية حتى الآن ثلاث وسبعين حالة في الولايات المذكورة، شخّصت أغلبها في أوقات متفاوتة ما بين شهري أبريل ويونيو، وأن جميع هذه الحالات حدثت في وقت واحد في الثامن عشر من فبراير الماضي.

عالمياً، توجد نحو خمسمئة حالة مسجلة في دول العالم المتفرقة وبأعراض متشابهة بالرغم من الاختلاف في مسمياتها. فإن منظمة الصحة العالمية لم تعترف رسمياً بالمتلازمة ولمّا تحددّ معايير تشخيصها، ولمّا يتم حتى الآن معرفة الآلية الدقيقة المسببة لها.

ونفى بعض الباحثين من أن تكون هذه الحالات مرضية من الأساس زاعمين أنها نتجت عن اضطرابات كونية واختلالات كوزمولوجية! وآخرون ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك ونفوا أصل الفكرة من الأساس، وأعلنوا أن الحالات محض خيالات وخرافات حدثت بسبب غياب الرقابة العامّة عن الشركات المتعددة الربحية، وقامت ببثها المؤسسات المالية الدولية ونشرها، ولا يُراد بها إلا زيادة الأرباح والامتيازات الريعية أو إلى تضليل وتوهيم وترويع المواطنين لا غير.

## (4)

## ظاهرة أريك/ياي سندرم تثير الشكوك

**USA Today، 5 يونيو 2016**

عقدت منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع وكالات دولية مشاركة في مجال الصحة اجتماعاً تشاورياً لمراجعة الأنباء والرؤى المتفاوتة عن الحالات المسجلة لظاهرة أريك/ياي سندرم، من أجل رسم خطّة تأهب مدروسة وشاملة لاحتواء الظاهرة في حال أثبتت حقيقة وجودها، وتعهّدت المنظمة بالتزامها بدعم المجموعات الصحية وشركائها، إلا أن بها حاجة إلى تبويب وتقسيم فعليّ لهذه الحالات وتسجيل فوري للحالات المستقبلية.

وأعرب السيد آرون مارتينيز ممثل منظمة الصحة العالمية في الولايات المتحدة/وكالة عن امتعاضه قائلاً "إن الاستجابة السريعة من وزارة الصحة والخدمات الإنسانية والتداخل الفوري من الحكومة الفيدرالية قد يساهم في الحدّ من انتشار المرض، فمتى ما تحدّد جذر المشكلة وتعيّن، فإن العلاجات تصبح هيّنة على التصوّر، على الأقل مبدئياً. لكن أليس المبدأ أن يثبت المرض من الأساس؟ فمنظمة الصحة لها الحقّ في الاعتراض على وجود المرض أساساً لعدم وضوح الرؤية الكاملة عن أعراضه وعلاماته وعدم توضيح الصورة السببية والآلية التي ينتقل بها من شخص لآخر. وإن أغلب الحالات لم يتم تسجيلها رسمياً إلا بعد أن تداولتها الجرائد والمجلات ومواقع التواصل الاجتماعي".

وبالرغم من أن هذه الحالات تبدو كثيرة نسبياً، فإنها لم تحظى بدراسة وافية؛ وكل الأدبيات المكرّسة لأسبابها ومسبباتها، ما تزال تتبنى فكرة كيفية الاستفادة من الظاهرة سياسياً واقتصادياً، وكيف تتغذى على ظلامات الفقراء، وما هي إلا فكرة وليست من المسلّمات قطعاً.

وأضاف السيد مارتينيز معترضاً على تسمية المتلازمة موضحاً "إن المنظمات المدنية قد حذّرت من استعمال أسماء أشخاص حقيقيين أو أماكن معروفة في تسمية الأمراض «كما هو الحال في أريك/ياي سندرم» معللاً أن مثل هذه التسميات تسبب تأثيرات سلبية مستقبلية مباشرة وغير مباشرة وقد تكون خطيرة على حياة الكثيرين".

## (5)

## أريك/ياي سندرم من منظور مختلف «عملية التناقل تحدث بشكل نمطي»

### رؤى وقراءات

**Space news، 20 يونيو 2016**

قدمت ثلاث فرق من الباحثين المتخصصين في دراسة ظـــاهرة أريك/ياي سندرم مايو الماضي، بيانـــات عـــن كيفيـــة التبـــادلات والانتقالات بين العوالم، ووفقاً لمجلة المكتبة العامة للعلوم PLOS فـــإن عملية التناقل بين الأجساد تحدث بشكل نمطي معيّن وليست عشوائية كما كان يُعتقد. أضف إلى ذلك أنهم أوضحوا النمط الهيكلي للتناقل من شخصية (أ) إلى شخصية (ب) ومن شخصية (ب) إلى شخصية (جـــ) بشكل هليكسي لولبـــي مستمر، ولم تثبت الدراسة حقيقـــة أن يكون هذا التبادل بنهايات مفتوحة أم لا.

وبافتراض أن طريقة التناقل حدثت في الثامن عشر من فبرايـــر بنمط تعامدي وبزوايا ميل متماثلة تمامـــاً لكـــل مـــن (أ) و(ب) و(جـــ)، وبحساب زوايا البعد الافتراضي للكون، كما في قـــوانين تعشيق التروس المسنّنة، وباعتبار أن التناقل يحتاج إلى طاقـــة كميّـــة مهولة وسرعة كامنة تتعدى حدود الزمان والمكان «كما يثبت ذلك وجود الفجوة الخيالية التي يسقط بها المتناقلون قبل حدوث التناقل»، وكل هذا بدوره يحتاج إلى نمط هليكسي لولبـــي لتـــوفير طاقـــة

مستقرة ومستمرة أكثر مما لو كانت بنمط تناقل مستقيم.

ومع هذا النمط الكونيّ للتناقل تنشأ أنماط جديدة، وينتج عنـــها أنماط مغايرة في العلاقة بالذات والغير والأشياء، وأنظمـــة مغـــايرة في التبادل والتواصل. و لم تنفِ الدراسة احتمال أن تؤدي التناقلات هذه إلى تناقلات أخرى فيما بينها من جديد، وربما تنتقل الشخصيات إلى أجساد وعوالم أخرى في أي وقت من الآن، أو ربما تعود ببساطة إلى أصحابها الأصليين.

وأكدت الدراسة أن ما يقارب الثمانين بالمئة مما تم الوصول إليه مسبقاً من فرضيّات ونظريات لتفسير ظاهرة أريـــك/يـــاي ســـندرم مغلوطة وخاطئة، وألقت باللائمة في ذلك على كل من الصـــحفيين الذين يبحثون عن الاكتشافات المثيرة وغير العقلانية، والـــتي تســـعد المجلات العلمية والطبية بنشرها وتسليط الضوء عليها. ويقع الـــذنب أيضاً على العلماء؛ لأنهم في معظم الأوقات يكونوا متحمسين لإبراز النتائج التي اكتشفوها قبل التأكد من صحتها.

## (6)

## بزوغ عصر الهليكس

**Huffington Post، 27 يونيو 2016**

مع تصاعد تبعات ظاهرة أريك/ياي سندرم واستنفار الحكومات، ومع التطوّر التواصلي الرهيب عبر شبكات الإنترنيت، قام فريق مطوّرين بإنشاء موقع إلكترونيّ مجانيّ الانضمام يتيح التواصل والتقارب بين أرجاء المعمورة خاص بالأشخاص الذين يعانون من أريك/ياي سندرم، وأطلق مصممو الموقع عليه اسم هيلكس «Helix»، بافتراض أن التناقل يحدث من شخص إلى آخر بنمط هليكسي لولبي مستمر.

ويتضمّن الموقع خدمات تفاعلية تتيح للزوار «المتناقلين وغير المتناقلين» التواصل وإبداء آرائهم وتعليقاتهم وتعاطفهم مع المتناقلين أو مع عوائلهم.

وتشير الإحصائيات إلى أن الموقع أعطى ثماره مبكراً، وأن عدد المتفاعلين مع الموقع وتطبيقات الهواتف الذكية في زيادة مستمرة، بل إن التطبيق أصبح أكثر التطبيقات تداولاً وانتشاراً، ويقدّر ما ينشر يومياً بأكثر من مئة ألف مادة بلغات المستخدمين الخاصة، إذ يتيح الموقع ترجمة فورية تلقائية إلى ألفي لغة حيّة وفرعية من لغات العالم.

وأشارت دراسة أخرى أجراها باحثون بجامعة كينت في المملكة المتحدة إلى تضاعف عدد المصابين بأريك/ياي سندرم ثلاثة

أضعاف ما كانوا عليه منذ صدور موقع هليكس، وحذّرت الدراسة كذلك من إمكانية انتحال شخصيات مستعارة ووهمية تدّعي كاذبة أنها تنتمي إلى الهليكس زاعمة إصابتها بأريك/ياي سندرم، ما قد يسبب قلقاً وضرراً وتلاعباً في مشاعر الآخرين ومضاعفة مآسيهم.

## (7)

لم يكن الغرض من الطرح والاسترسال في المانشيتات والعناوين والمقالات السابقة إيجاد جواب بلاغيّ لما حدث بالضرورة، بل يمكن اعتبار الهدف المرجو من البحث والتقصي أن لا يتعدى اللزام والالتزام بشحذ الخيال وتوسيع المدارك لا غير، ونرجو من القارئ أن لا يفهم من ذلك أننا نتفق ونناصر رأياً ومذهباً واتجاهاً معيّناً دون سواه.

ولم يبقَ شيء نضيفه إلى ما سبق سوى أن المصابين بمتلازمة أريك/ياي سندرم قد تضاعف عددهم بصورة مبالغ بأمرها يوماً بعد يوم، وما زالت الأعداد في تزايد خطر. ولتوضيح الصورة أكثر؛ فيمكننا أن نفرض أن كروية الأرض لا تتعدى أن تكون تعبيراً مجازياً، ولنعدّها مجرّد فضاءٍ مستوٍ ومبسوط من حيث أن كل شيء يسير على سطحها يجعلها أقرب إلى مجاز السطحية والاستواء منها إلى مجاز الاستدارة والتكوّر، كما الحال في رسم الخرائط مثلاً. ولنفترض كذلك أننا ننظر إلى الخارطة الفضائية للأرض من على ارتفاع شاهق جداً كقمر صناعي في طبقة الأكسوسفير على سبيل المثال. ولو أسهبنا في الافتراض وقلنا أن بالإمكان رؤية سكان الكوكب بانوراميّاً من هذا الارتفاع لوجدناهم كالنمل الأسود يتحركون ويتزاحمون ويتجاذبون ويتنافرون فيما بينهم. ولأجل أن يسهل المنظر أكثر سنضيف تلاوين جغرافيّة ونرمز للمصابين بأريك/ياي سندرم باللون الأصفر وباقي البشر بالسواد المفترض.

ومع الأخذ بذلك كله سوف يمكننا ملاحظة خطوط التناقل تتواصل وتتقاطع وتتقارب وتتوارد وتتضافر في كل الدول والقارات امتداداً من كوريا الشمالية إلى العراق إلى فرنسا إلى جنوب السودان

إلى الولايات المتحدة إلى سوريا إلى أستراليا إلى ميانمار إلى نيجيريا إلى تركيا إلى هايتي إلى سيراليون إلى إنكلترا إلى كوالالمبور إلى مصـــر إلى نيوزيلاند إلى بانغلادش وإلى وإلى... وهلمّ جراً، وكأن جميع المصابين مدعوون ليكونوا في صورة جماعية واحدة!

وليس من العسير الآن إدراك التحشيد والتزايد المقلق الـــذي لم نحسب حسابه قبل اليوم، فقد تمـــدّدت الظـــاهرة بلونهـــا الأصـــفر واجتاحت الخارطة كداء البرص وهو ينتشر في الجســـد بـــلا رادع وواعز «ونرجو أن لا نؤاخذ على التشبيه السابق فالغرض منه تقريب الصورة ليس إلا». إذ إن الحالة لم تعد تقتصر على الذين أُصـــيبوا في الثامن عشر من فبراير فحسب، بل إن الأعداد توالـــدت وتزايـــدت وتناسخت واتخذت أشكالاً متعددة أخرى، وربما شملت المضـــطربين والمهووسين والشواذ ومن لديه هوس جلب الانتباه ونزعة الشـــهرة، ومن يتمنى أن يكون شخصاً آخر غير نفسه، بل ربمـــا الأجـــدر أن نضيف إلى هؤلاء قائمة لا يستهان بهـــا مـــن الأفظـــاظ والبليـــدين والسخفاء والفارغين.

ولا حاجة بنا الآن أن نؤكد أن الظاهرة ساهمت بإشراك البشرية جمعاء بما لها وما عليها، وبما أنتجت من ذوبان وتآكل بـــين حـــدود الدول والقارات. وعلى الرغم من إيجابيات إشراك الكـــل في إيجـــاد الحلول على المستوى الكونيّ فإن ذلك ترك في المقابل ثمنـــاً باهظـــاً وفظيعاً، فقد وسّعت الظاهرة وهوّلت الاختلافات بـــين المعتقـــدات والثقافات والتابوات والروحانيات والماورائيات.

والآن.. راح الكل يفسر ظاهرة أريك/ياي سندرم بما يدركـــه عقله وتشتهيه نفسه، والكل يدّعي إن لديه الجواب، راهناً وماضـــياً،

والكل يهتف ويولول بنهاية العالم، ونهاية التاريخ، ونهاية الإنسان، ونهاية الفلسفة والقداسة، وسيادة الشيطان والسقوط الجهنمي وإلى غير ذلك من ألحان النهايات وسمفونياتها الرثائية. وإن لم يكن هناك مأتم فعلي، إلا أن المشهد كان حرفيّاً يثير الشفقة والرثاء.

عادت وبرزت مخاوف دول أمريكا الوسطى في المكسيك وغواتيمالا وهندوراس والسلفادور من آبوكاليبس نهاية التقويم الماياني، وصدحت أصوات البراهمة السيخ والهندوس بنبوءات انتهاء الطور الرابع من عصر الكالي يوغا، عصر الشياطين والحديد، وكان تعليلهم في ذلك يعود إلى أن الثامن عشر من فبراير يصادف في توقيته تاريخ بدء تقويم الكالي يوغا باليوم والساعة والدقيقة.

وبدأ مفسرو التوراة بتأويل نصوصهم من أجل إعادة صياغة التاريخ وتهيئته لحرب نهاية العالم محققةً بذلك نبوءات دانيال القديس ووعود يهوه العظيم وربّ إسرائيل وشعبه المختار. وازداد تزمّت الأصوليين المسيحيين برؤى يوحنا وبطرس وإسطفان وبولس بحتمية رجوع المسيح المرتقب. وتباشر المسلمون وابتهلوا ببزوغ علامات القيامة وأشراط الساعة والمعاد، وتعالت أصوات مفسري الروايات ومحللي الرموز لظهور المهدي الموعود وعلامات آخر الزمان. ودقّت النواقيس وصدحت المآذن معلنة عن حتمية تهاوي الجبال وتساقط النجوم وتقيؤ الأرض أمواتها وورود العظام فوق القبور معلنةً سيادة عالم الموت والموتى والموات.

وفي المقابل فإن المثقفين المعاصرين جلسوا يتناقشون ويعيدون ويصقلون قراءة فلسفات هيغل وماركس وكوجيف وفوكوياما عن نهاية العالم والإنسان الأخير، وتحدثوا واجترّوا كثيراً الأسباب والنتائج،

ودائماً باهتمام مفرط، مع الالتزام بالمنطق، ومع احترام القيم وحرية إبداء الرأي، وفي النهاية لم يقبلوا أو يرفضوا الشكّ في أي شيء.

وأما حديث العوام البسطاء من الناس وقلاقل الثرثارين منهم في الشوارع والمقاهي، فلا يحتاج العقل منّا تخميناً عميقاً ليدرك ما كانوا يفسرون ويستنتجون، وللقارئ حرية الخيال والتخيّل في هذا الشأن، بل الأحرى به أن يغمض عينيه الآن ويقول لنا بنفسه ماذا يرى وعمّا يتحدثون.

وربما تتشابك العوامل التي أدّت إلى تكوين هذا الطابع المجتمعي المعقّد، وكيف انبثق هذا التوجه الجديد في العالم الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية، وهذا ما قام بدراسته الفيلسوف المعاصر دومينيك فيون في كتابه «طروحات في ظاهرة أريك/ياي الكونية» بعمق واستفاضة، ففي كتابه المذكور آنفاً، نجح الفيلسوف في إيصال المضامين المختلفة لموضوع دراسته بلغة أكاديمية عالية الجودة وفي متناول جمهور عريض من القراء والمهتمين. وسنترك القارئ الكريم يكتشف بنفسه خطوة خطوة ويستوعب الشأن أكثر ونحن ننقل له جانب من المقابلة الصحفية التي أجريت معه مؤخراً:

## (8)

## «طروحات في ظاهرة أريك/ياي الكونية»، حوار مع دومينيك فيون؛

Multitudes Journal، العدد 63 صيف 2016

**ملاحظة المحرر:**

أجريت المقابلة مع الفيلسوف الفرنسيّ المعاصر دومينيك فيون على مدار ثلاثة لقاءات متتابعة عُقدت معه في مايو 2016 في باريس. إذ قامت المجلة بتحضير فريق تحريري بهذا الخصوص وبمساعدة يُشاد بها من كوليج دو فرانس التي نظمت الإجابات ونسقتها وأعدها لتكون على النحو الآتي:

**في زمن انعدمت فيه الأجوبة، أو بالأحرى لم يعد أحد يبالي بها! في زمن يفضّل المجتمع فيه العيش بارتباك على العيش في عالم من الانسجام والاستمتاع والعمل والأخلاق، في زمن انقطع الوصل فيه مع الحبّ والتواصل والحميمية والاكتراث والمغزى، في زمن أصبح العنف فينا، في الداخل، ظاهراً وفي الصميم. بدأنا نتساءل؟ هل الجواب في أريك/ياي سندرم؟**

أحبّذ في بداية الأمر التحدث عمّا لا تكونه ظاهرة أريك/ياي قبل التغلغل في تعريف الظاهرة نفسها، لأن تقويض ما قيل عنها سيشكل لدينا من المقدمات والتفسيرات، الصحيحة والمغلوطة على السواء، ما يساعدنا على فهم مبدئي للظاهرة. ولأن الظاهرة أصبحت الموضوع المتداول على كل الألسن بتنوع الألوان والأعراق واللغات،

وبسبب التأرجح المقلق بين عقول البشر قاطبةً للمفهوم، وبـــالمفهوم أقصد المألوف والغريب في الوقت نفسه ولجميع ســـكان الكوكـــب بدون تمييز، ولأجل أن ننجو من الهوّة التي وقعنا فيها، لا بدّ من تجريد انفسنا من جميع المسمّيات والشروحات التي ساعدت في توهاننا أكثر مما ساعدتنا على الاستدلال.

وإن لاحظت بدورك فإنني لم أصف الظاهرة بكلمة "متلازمـــة" أو "سندرم" أو ما شاكلهما من المسميات، لأنني لا أجد من المنصف قطعاً اختزال الحادث وتحجيمه بعلم الأمراض وآلياته الماديّة وتعليلاته القاصرة، ولا أجد الحلّ في اختراع كلمات علمية برّاقة لا تجدي نفعاً سوى إضفاء المشروعية على ما يقال في الإعلام. وإن تجريد الحديث من الرطانات العلمية والجارغونات المبهمة ستدفع بنا تلقائياً إلى الفهم والإدراك لا إلى الانصياع والانقياد، ولا مجال بعد ذلك للتشـــكيك والاعتراض. هل يبدو كلامي لك واضحاً؟

من يحاول قراءة ما يحدث لن يستطيع أن يتغاضـــى ويتســـاهل ببساطة أو أن يبقى ساذجاً، وأما من يبقى ساذجاً في التعامل مع مـــا يحدث بأسلوب الإعلاميين ويمضي بالقول إن ما أمامنا هو مـــرض أو متلازمة وما إلى ذلك، وهذا ما تروم إليه الشركات الدوائية الكـــبرى على سبيل المثال، فإنها تحاول اختزال الحالة واحتكارهـــا زاعمـــة إن لديها الترياق السحري لكل شيء.

ما زلت أشجب من يحاول اختزال الظاهرة في نشرات الأخبار، مع أنها أكثر ظواهر الإنسانية حساسية وغزارة في العصر الحديث. وما زلت أستنكر ما تقوم به وسائل الإعلام من تزويق ظـــواهر الأمـــور وتغطية توافه الجوانب دون القضايا الحساسة؛ عناوين برّاقة، مقتطفات

قصيرة، معلومات مكثفة، تأثيرات حادّة ومثيرة، وأخبار سريعة محاطة بأكبر قدر من الزخم في المحتوى والألوان دون السماح للمتلقي بالتفكير والتحليل والتبصر والاستيعاب، وبالتالي اتخاذ المواقف.

أنا أتوقع للظاهرة أن تعاني التهميش والإقصاء والتحجيم إن استمر كل من العلماء والإعلاميين على حدّ سواء بما يقومون به، وسوف يصيب المجتمعات التخمة من التكرار والتعويد والتنميط حتى تتحول الأحاديث عن الظاهرة إلى محض ترهات وسخافات، وحينها يكون من المستحيل قبول الطرح أو إعادة الطرح لما سيسبب ذلك من تثاؤب وملل.

إن الظاهرة انبعثت وولدت من رحم الحقيقة نفسها، بعد أن أصبحت الحقيقة معدومة لا قيمة لها. فالظاهرة نمط كينونّي متكامل، تغيرت معه العلاقة بالأشياء والرؤى والسلوكيات. فضلاً عن المفهوم المدرك للواقع والزمان والمكان. فقد كان انفصال الإنسان عن جسده ووطنه من جانب، بل حتى ديانته وعرقه وروابطه بشكل ما، جعله أكثر اقتراباً وتآصراً مع عمقه وذاته الحقيقية في الجانب الآخر، ويمكن الاستدلال بذلك عن طريق تجربة المتناقلين أنفسهم واختبارهم الفعليّ للظاهرة لا عن طريق السجالات التافهة والنقاشات التي لا طائل تحتها.

وبالحديث عن الجسد والذات، كان أرسطو يعرّف الصديق بأنه أنت إلا أنه بالشخص غيرك، وهنا لا بدّ أن نقارن الشخص الآخر بالصديق أو بالمتناقل نفسه أو بغيره، فحين تعددت النسخ المتماثلة تولّدت لدينا معضلة ترتيب النسخ وتصنيفها وتمييزها عن بعضها، أي كيف يمكن التمييز بين الأصل والنسخة رقم واحد والنسخة رقم اثنين

والنسخة رقم سبعة و.. و..؟ وربما لا تكون في الصورة الأخرى نسخة أو نظير بل الشخص نفسه لكن بالإنابة والتعدد! هل تلاحظ معي مشكل الهوية؟ أو أنك هت؟

إنّ التناقل عملية مزدوجة ومتعارضة، تجمع ما بين آليات التقسيم الفردانية وإطارات التوحيد الكبرى، ويترافق هذان النقيضان مرافقة القرين للقرين. ألا ترى كيف توحّد العالم مع ما يصيبه من انقسامات وتشتت؟ وكيف تغيّرت بنيته ونظامه ونماذجه وشيفرات تواصله؟ وكيف طال الثوابت والبديهيات وكُسرت القوالب والنماذج والتراكمات والنصوص والرموز والتراث والهوية؟

**أي بمعنى إن توحّد اللغات والمصائر جعل عالمنا موحداً ومتكاملاً من حيث التعددية والتنوع؟**

أنا لست متفائلاً إلى هذا الحدّ مثلك، ربما سأتفاءل إن نظرت إلى الواقع بعين الخيال، حينها أستطيع أن أرى العالم موّحداً (يضحك). لأن العيش في هذا الواقع جحيم كما تعرف.

**إذاً هل يمكننا بالنتيجة أن نستلهم الرؤى والعبر من ظاهرة أريك/ياي؟**

من المبكر جداً الإجابة عن هذا السؤال، لأن الرؤى قد تبدو في متناول اليد للوهلة الأولى، ولكن ما أن تتوقف عند الموضوع مليّاً وتستعرض أبعاده، حتى يبرز التعقيد وتعدد الأوجه فيه. ولذلك لا أرجو أن نطلق أحكاماً قطعية ومتسرعة الآن. لا يزال الوقت مبكراً ولا تزال المعلومات تتعاظم باستمرار. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على إننا بصدد واقع مفتوح النهايات ومتقادم الخطوات بسرعة مهولة.

**والعنف الذي يجتاح العالم، هل للظاهرة يدٌ فيه؟**

لا أتوقع أنك تحتاج مني لذلك جواباً، فمن الواضح أن الظاهرة وُلدت بعد ما أصاب الكوكب من شيخوخة وبعد أن أُتخم بالفوضى والصراعات، انظر إلى ما حولك بتمعن ودقق في تفاصيل العنف، تعمق بما تراه، وأغطس وأغرق بداخله. أما زلت تريد أن تعرف ماذا أصابنا؟ هل الجواب معقد وعصيّ على الفهم إلى هذه الدرجة؟

حروب، اقتتال، مؤامرات، أزمات، مديونية، تضخم، تدهور، كوارث، فقر، مجاعات، جائحات، انفصالات، انقلابات، وسكان الأرض لا يكترثون. إن العنف الذي نعتقد أنه مصدر الريب وعدم الاستقرار، والمنبع الذي يغذي الاندفاعات الأصولية وحمى الهويات، لم يولد من فراغ. بل إن ما حدث فقط هو إن عيوننا تطبعت وتعودت المآسي والدماء والدمار حتى أصبحت مشهداً اعتيادياً ومألوفاً ومفرّغاً من محتواه. وإن عدم اكتراثنا هذا سيكلفنا الكثير.

**بمعنى؟**

بمعنى أن الظاهرة وليدة العنف الذي حلّ بالكوكب، وأن اجتياحها بهذا الشكل سيدفع بأعدائها إلى عنف آخر لمحاربتها ومحاربة مؤيديها.

**في كتابك تطرقت إلى مصطلح «الإنسان الجديد» وقلت – وأقتبس هنا من كتابك – "إن المتناقل إنسان جديد فريد من نوعه، بل إن المتناقلين هم رسل الكوكب في هذا العصر"، ما هو تعليقك؟**

وما زلت مقتنعاً بهذه الأطروحة، إذ إن الإنسان المتناقل في اعتقادي هو الوصيّ الكونيّ على البشرية، مجبراً وطواعية، بافتراض إن بإمكانه تغيير المعاني والأشكال والوجوه والدلالات للعصر الراهن.

فأنا أفضّل أن أرى الإنسان الجديد يحمل الهوية الكونية في كنفه، لأنه قد تجاوز بشكل أو بآخر ارتباطات الوطن والقومية والمجتمع والثقافة، وتحتم عليه أن يتوحّد ويتصالح مع ذاته ليتحول إلى أنموذج رسالي ناسوتيّ أسمى. ألا تجد أن المتناقلين هم مبشرو الإنسانية للصلاح والمصالحة؟ بدون شعارات رنانة ووعود زائفة. ففي النهاية هم ليسوا بسياسيين، ولا محاربين أشداء ولا ثوار حروب. إنهم ببساطة بشر حقيقيون استطاعوا في ظرف قصير إنقاذ هذا الكوكب الفوضوي الساخط الذي نعيش فيه.

ولذلك أجد أن علينا أن نحذو حذو الإنسان الجديد وأن نتصالح مع أنفسنا، وأن لا نقبض على الواقع، لأن فرضيات العنف والشرّ والإرهاب لن تنتهي حتماً أن بقينا متعصبين ورافضين. إن شعارات القرن العشرين باتت منتهية الصلاحية، وأدبياته أيضاً، ولذلك لا يجب أن نرضى بذاتنا ولا بذوات غيرنا. المهم في الأمر أن لا نرضى بأن تكون عقولنا مفككة ومشوشة، وبلا انسجام أو منهج أو غاية أو هدف محدد.

وأما جواب السؤال الأهم؛ ما العلاج؟ وماذا بين أيدينا فعله الآن؟ أعتقد أن مثل هذه الأسئلة ليست مشروعة في الوقت الحاضر، وليس من حقنا أن نشرط ونشترط أن يكون الإنسان الجديد على غير ما هو عليه. لكنني أؤمن أن نكون نحن غير أنفسنا. وإن غياب السبب المباشر للظاهرة هو بحدّ ذاته سبب يدفعنا أن نعود إلى الحقيقة، وهنا يكمن علاج المتناقلين، وعلاجنا أيضاً. ولا أقصد بالعلاج زوال الظاهرة وانتهائها، بل العكس. لأنّي أجد الظاهرة علاجاً للكوكب، وليست، كما يشاع عنها، بأنها آخر أمراضه.

فأنا أؤمن أن البشرية انقسمت إلى فئتين، فئتين اثنتين؛ كــــونيين ورافضين، مصابين وغير مصابين، ذوي قلوب من لحم ودم وآخرين ذوي قلوب من حجر. ألم تلاحظ كيف اختفت الدهشة والنفــــور والاستغراب في تعامل الجميع مع المتناقلين؟ وكيف ذاب المتناقلون في الجميع؟ بل كيف أصبح الجميع متناقلين؟ يُستثنى من ذلك الرافضون ومن لفّ لفّهم، بكل أساليبهم الدنيئة ووسائلهم الخسيســـــة. وهنــــا يمكنني أن أؤكد لك، دون الحاجة إلى اللفّ والــــدوران، أن هــــؤلاء المتعصبين والرافضين والناكرين والناقمين هم الذين يعانون من المرض الكوني لا المرضى أنفسهم، وبقي الأمر أمامك أنت لتجد له الجواب؛ من الذي يعاني برأيك من آخر أمراض الكوكب؟

# الفصل الخامس

نيس|فرنسا 1 يوليو 2016

## (1)

كان شعوراً جديداً ما اعتمل في داخل علي معن ذلك الصباح، كان قلبه يشعّ بارتياح خفيّ، وكأن كل شيء أضحى في مكانه الصحيح، وتلك مفارقة تدعو للتهكم نظراً للحال الذي هو فيه. فما إن استيقظ من نومه حتى تذكّر أنه ليس لديه شيء يستعجله على النهوض، ولا لتعكير مزاجه. ولذلك أخذ يتقلّب على الأريكة يميناً وشمالاً. أزاح البطانية عنه في هدوء وتثاؤب بصوت عال، فرك عينيه قليلاً، انتصب من مكانه واعتدل في وقفته، توجه نحو الستارة ليزيحها لتدخل أشعة الشمس.

قصد المطبخ، فتح الثلاجة ليعدّ شيئاً للفطور، أعدّ القهوة، ألقى نظرة على الحمام فوجده مشغولاً، يبدو إن إيميلي قد سبقته في الاستيقاظ. جلس في الصالة لا يعمل شيئاً، وضع يديه تحت رأسه، تفحّص علبة السجائر والقداحة أمامه، فكّر في تدخين سيجارة إلا أنه استثنى الفكرة سريعاً. وكان على وشك النهوض والعودة إلى المطبخ حينما شعر أن هنالك من يراقبه، رفع رأسه وكانت إيميلي مبتسمة بجانبه:

- صباح الخير.

فأجابها باسماً:

- والورود.

ناولته كوباً وسكبت له فيه بعض القهوة وقالت:

- أراك قد استيقظت مبكراً؟
- لا يستعجلني شيء.

ارتشف من القهوة ونظر إليها، أراد أن يقول لها: «شكراً» لكنها سبقته وقالت:

- وما مشاريع صاحب السعادة هذا اليوم؟
- ممم، في حقيقة الأمر سأذهب عند الظهيرة لتوديع أصدقائي، وأخطط في المساء أن أدعو صاحبة السعادة للعشاء في الخارج.

اضطرب وجهها لكنها دارته بابتسامة حائرة:

- هنيئاً لك مشاريعك، فإنها في تحسن مستمر، لكن ما المناسبة؟
- رحيلي.

انفعلت من وقع الخبر وقالت:

- وهل اقترب الموعد كثيراً؟
- أحقاً لا تعلمين بموعد الرحلة أو أنك تتظاهرين بذلك؟
- ياه يا علي، ألا أستطيع أن أمازحك قليلاً؟

كانت تحاول إخفاء حزنها بإشغال يديها بالحركات، تصنعت تفحّص حقيبتها كأنها تذكرت شيئاً. لكن علياً فهم منها ذلك وخجل أن يربكها، فوقف وطبطب على كتفيها:

- لا أعلم كيف أتحمّل فراقك في الغد؟ وكأن الأيام تُطوى معك على عجل.

ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وأضافت:

- أعجبتني فكرة العشاء كثيراً، لكني لا أنصحك بتعويدي على هذا الدلال وإلا فسدت طبائعي.
- سمعاً وطاعة.
- سنشرب نخب عودتك إلى أسرتك الليلة، لا.. لا تعارض.. على أمل أن نشرب نخب عودة فرانس إلى نيس عن قريب.
- أرجو ذلك من صميم قلبي.

سكت كلاهما قليلاً ثم قال:

- لا أتوقع أن أشرب نخباً يا إيميلي؟
- وما الذي يمنعك من ذلك؟

لم يجبها واخترع موضوعاً آخر إذ قال:

- من حسن حظي أنني سأعود في أفضل توقيت، لم يبقَ إلا أيام قليلة للعيد.
- هنيئاً لك ذلك.

استأذنها وذهب إلى الحمام؛ أغلق الباب وراءه، تعرّى وفتح صنبور الماء ليملأ الحوض، عاد ليحلق ذقنه في المغسلة. استرعته همهمة صوت في الخارج، أغلق الماء واسترق السمع فترامى إليه وقع أقدام إيميلي، يبدو أنها ستذهب إلى عملها، وارب الباب قليلاً وقال:

- موعدنا في المطعم نفسه، الثامنة مساءً... لا أقبل التأخير. اتفقنا؟

هزّت رأسها دون كلمات دلالة الإيجاب، أغلق الباب وألقى بجسده في حوض الاستحمام ببطء يستشعر برودته تاركاً المياه تزحف

على ظهره ورقبته. أغلق الصنبور، وفجأة عمّ السكون في الشقة فقد خلت من أي صوت. كان مسترخياً جداً، ومرتاحاً ملء أساريره. أشعل سيجارة وأخذ يدخنها، كاد النعاس أن يغالبه لولا أن عقله وقع فريسة تداعيات لم يفهم أسبابها، وسرعان ما تحمس وخطر له أن يتصل بهالة، أخذ الهاتف النقال ووجد هناك ثلاث مكالمات فائتة، لا بدّ أن هالة قد قلقت لعدم ردّه عليها. اتّصل بها ومن أول رنّة جاءه الجواب:

- أين كنت؟ أحاول الاتصال بك مرّة تلو الأخرى ولكنك لا تردّ، هل كان الوقت غير مناسب؟ أم أنك مشغول؟
- ما هذا الاستقبال؟ أين صباح الخير والحبّ وفيروز؟ ستموتين غيرة.

ضحكت وقالت:

- أين أنت الآن؟ يترامى إلى مسمعي صوت صداك؟
- أنا في الحمام.. هوناً عليّ أرجوك.

هدأ روعها واستكنت بعد أن كان صوتها عالياً وقالت:

- صباح الخير، كيف حالك؟
- بل كيف حالكِ أنتِ؟ أراكِ استيقظت مبكراً؟
- لا جديد، ننتظرك بفارغ الصبر.

فسأل باستهزاء:

- ماذا قلت؟ ألا تستحين؟ أتنتظرين أجنبياً غريباً بفارغ الصبر؟ أو تستقبلينه في بيتك؟ خابت ظنوني بك يا هالة، مع الأسف.

- لا... لا... صحح معلوماتك، فأنا لن أستقبله في بيتي فقط، بل سأدعوه لمشاركتي الفراش أيضاً.

ضحك كلاهما:

- هكذا إذن؟
- بالطبع، وماذا كنت تظن؟ سبق أن استضفت كورياً دون أن أتذمر. أتراني سأفرّط باستقبال فرنسي أزرق العينين؟

## (2)

كان المقرر أن يكون الموعد في مطعم البيسترو في المدينة القديمة كما جرت العادة، وحتى ذلك الحين ما زال لدى علي معن النـــهار بطوله. ولذلك قرّر أن يذهب في الظهيرة إلى «المقهى اللبناني» كمـــا اعتاد أن يفعل في الآونة الأخيرة، وكان قد اهتدى إلى هذا المقهـــى مصادفةً في أثناء تجواله في شوارع نيس وطرقاتها؛ كان مقهىً صـــغيراً بالكاد يمكن تمييزه بين المباني العالية التي تحجب واجهته كلياً، بـــل إن منظره لا يختلف من الخارج عن أي بيت، ولكن ما أن اقتنص اللافتة المكتوبة باللغة العربية «المقهى اللبناني» حتى جمد في مكانـــه تلقائيـــاً وجلس على أحد كراسي المقهى دون تفكير.

وكان قد اتخذ المكان، في بادئ الأمر، كمحطة استراحة مؤقتة في أثناء التجوال، إذ كان يسير ويستكشف المدينة كعادته، وكان حـــين يتعب أو يضنيه المسير أو يربكه زعيق السيارات وضوضاء المدينة، يحلّ في المقهى ليريح مفاصله وأعصابه مدّة لا بأس بها قبل أن يعـــود إلى السير من جديد. لكن ما هي إلا بضع زيارات حتى أدمـــن المجـــيء، وسرعان ما ارتبط بالمكان لا شعورياً، وشعر بألفة فيه كأنه يعرفه منذ عشرات السنين! وبات المقهى حلّه الذي ينتهي في مقصده إليه.

وبالرغم من انزواء المقهى وضيق مساحته واختلاط أثاثه بعضـــه ببعض، وحتى بالرغم من الأسعار الفاحشة للمشروبات فإنـــه كـــان يملك لذّة وجاذبية خالصة لا يمكن لعلي معن مقاومتها، فلم يجعلـــه ذلك يشعر بأنه غريب أو متطفل أو دخيل.

تعرف في المقهى إلى بعض الزبائن العرب؛ سوريين وفلسطينيين وعراقيين ولبنانيين ومغاربة. وتساءل في نفسه إن كانوا يرون الأمـــور

كما يراها؟ أو يشعرون بما كان يشعر به؟ وهل يمكن عدّه مغترباً أو منفياً بشكل ما؟ وتوّصل إلى أنهم جميعاً يشعرون بالغربة والمنفى والحنين مثله تماماً، ولكن لكل شخص منهم طريقته الخاصة بالتعبير.

وكان قد فضّل أن لا يبوح بهويته الحقيقية أمامهم، وادّعى أنه فرنسي من أصول عربية، وكان يتحدث بالفصحى في أغلب الأحيان وبتكلّف متصنّع. إلا أنه أمن بعد ذلك جانبهم مع مرور الوقت، وأطلق حينذاك لسجيّته العنان وراح يساير هذا ويمازح ذاك، بل قد أزال الكلفة مع البعض منهم، وراح يأمر وينهى في المقهى بلا قيد أو حرج.

وما زال المقهى اللبناني مجلسه المفضّل، وفي ذلك النهار جلس في مقعده المعتاد، استرخى ودخن وشرب الشاي وجال ببصره في الأرجاء، كان يفكر في توديعهم، فكّر أن يكمل كذبته ويقول إنه قد كسب عقد عمل في دولة أخرى، لكن الفكرة لم تعجبه. كان يستحي منهم كثيراً، ولذلك قرر أن يعتذر عن إخفاء هويته عنهم، وأن يعترف بحقيقة أنه مصاب بأريك/ياي سندرم، بل قد اقتنع أن هذا هو العمل الصائب. فجميعهم أصدقاؤه، وكانوا خير أخوة له في غربته. فلا بدّ أن يتفهموا الأمر ويسامحوه. انتصب ونفض ملابسه، نظّف حنجرته قليلاً قبل أن يبتدئ بحديثه، قرر أن يصارحهم في الحال:

- أستميحكم العذر أصدقائي، لديّ ما أقوله لكم قبل أن أرحل.

توجهت أنظار الجميع إليه وسكتوا ينتظرون أن يكمل كلامه فأردف قائلاً:

- أنا لست من تظنون.. لست فرانسوا بروجييه.. أنا هو بالتأكيد لكن.. آه لا أعلم كيف أشرح الأمر.. آه.. نعم، أنا لست ما أزعم. أنا مصاب بأريك/ياي سندرم و...

انقطعت أفكاره لوهلة ثم اردف قائلاً:

- آسف لأنّي أخفيت ذلك مسبقاً.

فأجابه أحد الجالسين مستهزئاً:

- وما الجديد في الأمر..؟ نعلم ذلك.

وقال آخر:

- لقد تراهن الجميع على من تكون، البعض قال إنك خليجي والآخر قال إنك عراقي، أرحنا من هذا العذاب والسجال العقيم وقل لنا من أنت، أرجوك.

ضحك الحاضرون وضحك معهم وقال:

- أنا علي معن من العراق.

وما أن سمع جوابه الجميع حتى طفق البعض يصرخون فرحين، وكأنهم سمعوا نتيجة مباراة كرة قدم مصيرية، فتهلّلت وجوه وغمغمت وجوه، وقام بعض الزبائن بدفع رهانات لبعضهم الآخر وكأن علياً لم يكن له وجود، صرخ ليسترعي انتباههم بصوت عالٍ وقاطع غبطتهم، لكنهم استمروا باللغط والعراك:

- سأعود إلى العراق غداً إن كان يهمكم الأمر.. أتمنى أن تظلّوا على ما أنتم عليه.

ولاحقاً بعد هذا الحدث بساعة أو أكثر، استرعى انتباهه مشهد غريب في خارج المقهى، كانت هناك حركة غير اعتيادية، وكانت جموع الناس تموج أكثر من أي يوم وكأن هناك عيداً أو

مهرجاناً، ظلّ يسترق النظر من النافذة لكن الرغبة بالاستكشاف اشتعلت في عروقه وانبرى شعور الفضول الذي لا يهدأ في داخله، فسأل النادل:

- هل تصادف اليوم مناسبة ما؟
- ليس اليوم.. لكنه عيد الباستيل.. ظننتك تدرك الأمر؟ لم يبقَ إلا أيام قليلة لعيد الباستيل.

لم يجد ما يعلق به، ودّع الجميع وخرج من المقهى وسار متوجهاً نحو الزحام، كان الجو باهراً جداً، الأسواق مكتظة ومليئة بالزبائن، المقاهي والمطاعم تضجّ بالبشر، وهنا وهناك جوقة وفرقة موسيقية تعزف دون أن تسترعي انتباه أحد من العابرين. وبشكل لا إرادي أمسى علي جزءاً من الزحام، بقي على هذا الحال يغوص معهم حتى تجاوز وسط المدينة وحينذاك استرعاه نسيم ثقيل، وفي كل خطوة يقترب أكثر تتماسك الجموع أكثر ويزداد النسيم اقتراباً؛ كان أمامه البحر. نعم، كان البحر.

يبدو أن علي معن قد نسي أين هو بالتحديد؟ ولم يكن قد رأى شبيه هذا الكائن العظيم قبل الآن، بل يبدو أنه لم يكن يدرك أن مدينة نيس تعدّ إحدى المدن الواقعة على طول الساحل الجنوبي لفرنسا، إذ تلتقي الريفيرا مع الشمس والنوارس والبحر المتوسط.

وجد نفسه قبالة البحر فغمرته حالة أشبه بالقشعريرة، وارتسمت على وجهه مشاعر الانبهار والفرح والدهشة وكل ما يمكن أن يظهر على وجه الإنسان، لم يكن علي قبل هذه اللحظة قد رأى منظراً مثل هذا المنظر الساحر الخلاب؛ كان البحرُ ضخماً، متلألئاً، شاسع المدى، برّاقاً. وربما لا يسع وصف حالته، لأنه نفسه لا يعرف كيف

كان شعوره بالتحديد، لكن من المؤكد أن تلك اللحظـــات كانـــت الأشد زخماً بالنسبة إليه.

ومع أن الوقت كان ما بين الأصيل والغروب، والهواء واجـــم تماماً، إلا أن نشيج البحر القادم من بعيد كان مدوّياً جداً، ومع هـــذا الصوت بهتت أصوات العابرين و لم يعد لهـــا أي حضـــور. كانـــت الوجوه حوله تتبدل وتتغيّر، لكن عينيه بعد أن شاهدتا البحر لم تعودا تريان في الآخرين إلا أطيافاً.

وفي غمرة ذلك الشعور بادر إلى ذهنه أن يحجز العشاء في مطعم قريب، تطلّع إلى ما حوله فوجد أغلب الأماكن بديعـــة واســـتثنائية، أعجبته واجهة مطعم شاطئي، دخل إلى المطعم فوجده رفيع الطـــراز والذائقة؛ الألوان والموسيقى والرقص والأضواء الرومانسية الخافتـــة، حتى تناهى إلى وعيه أنه في حلم من شدة الروعة.

حجز طاولة لشخصين واتصّل بإيميلي فجاءه صـــوتها مشـــوباً بالنعاس، وما أن أدركت أنه قام بحجز الطاولة وأنـــه ينتظرهـــا الآن، حتى انبثق من نبرتها احتجاج، وقالت:

- ولماذا الشاطئ؟ ما بال مطعمنا؟
- لقد قررت وانتهى.. لا أنصحكِ بالتأخر وإلا فاتكِ الكثير.

## (3)

وصلت إيميلي بعد ساعتين أو أقلّ بقليـــل وكـــان وصـــولها للمطعم شاقاً للغاية، حيث إن المطعم كان بحدّ ذاته يقبع خلـــف صفٍّ من البنايات التجارية والإعلانات المبهرجة التي لا تترك منفذاً للساحل إلا بالدخول في أحدها. كانت إيميلي ترتدي فوق قـــدّها الرشيق فستاناً فضفاضاً قصيراً بألوان صيفية ضاحكة، وسرعان ما قنصها علي من بعيد ووقف بجانب إحدى الطاولات وأخذ يلّوح لها بيديه.

كان في حالة مزاجية رائقة، وبالأخص بعد أن حضرت إيميلي، وقد فضّل أن يبقى صامتاً وسارحاً بداية السهرة، فلم يكن يدري ماذا كانت تسأل ولا عمّا تتحدث؟ كان مشغولاً بما حوله عنها، وكأنـــه في عالم خاص. غضبت من تصرفه الفاتر وصرخت فيه لكـــي ينتبـــه إليها، اعتذر وقطع صمته في شبه همس:

- اعذريني، لقد كنت أفكر في.. ماذا يسمى الشعور بالألفة؟

تفاجأت إيميلي من السؤال:

- ماذا؟
- ماذا يسمى الشعور بالألفة في موقف ما؟
- هل هذا ما يدور في خاطرك؟

لم يعر انتباهاً لامتعاضها وأكمل:

- ما بالك؟ ماذا يسمى الشعور بالألفة في موقف ما؟ فيشـــعر المرء أنه قد عاش اللحظة الحاضرة من قبل، لا أعلم كيـــف أوصل لك طبيعة شعوري بالضبط؟
- ديجا فو؟

- لا لا.. ليس الديجا فو. وإلا من أين لي أن أخوض الديجا فو وذكرياتي ليست في هذه البلاد؟ ما أعنيه أنني سبق ورأيت هذا المنظر الخلاب بالذات في الماضي السحيق. هل تصدقين ذلك؟

انعقد حاجباها دلالة الاستغراب دون أن تتحدث، فأردف قائلاً:

- نعم. لقد حدث ذلك في نهاية التسعينيات، كنت جندياً مكلّفاً أو "أبو خليّل" كما كان يطلق على الجندي في العراق، أعلم أنك لن تفهمي كلامي هذا لكن عليك أن تسايريني فيما أصبو إليه، وإلا من لي غيرك لأبوح له بما يخنقني من ذكريات.
- لا بأس.
- كانت عسكريتي في بيجي شمال بغداد؛ كنت أعود كل نهاية أسبوع من أجل مساعدة أبي في عمله الملعون. كان يعمل في بيع سكراب وخردوات السيارات المستعملة في سوق جماهيري يدعى بسوق الجمعة، يشبه إلى حدٍّ ما سوق الأحد للبروكانت في كورس ساليّا[1] في المدينة القديمة لكن بحال لا يصلح معه التشبيه أو المقارنة في شيء! مع إننا كنّا فخورين بتلك المهنة، ومكتفين مادياً، لقد أنقذتنا بسطيّة أبي المسكين من الجوع والفاقة. لقد كان الحصار شرساً ومخيفاً يا إيميلي، علكنا بأسنانه الصفراء وبأظافره الطوال فلم يترك فينا وجهاً وحياة، كانت وجوهنا مكفهّرة وسحناتنا وأفكارنا وملابسنا متهرئة ومتهالكة.

(1) Brocante in Cours Saleya.

ما زلت للآن أذكر أبـــي وهو يفتـــرش الأرض ويجلـــس في بسطيّته الجنفاصية البالية في سوق الجمعة في النهضة تحت الجسر. ربما كانت مشاعري نحو أبـــي مبلبلة متناقضة، لا أعرف. كانت بيننـــا فجوة عميقة، لم نكن متفاهمين أو متخاصمين، ربما لأن أبـــي كـــان ينقصه العطف، أو بمعنى أدق كان غير كريم في إغداق العاطفة.. نعم، هذا هو الأمر، لم تكن المسألة بيننا تقتصر على شيء محدد لكن كان هناك شيء أعمق. ومع ذلك بقي أبـــي يعوّل عليّ في مراقبة البسطيّة منذ أول خيوط الفجر، وكنت عند حسن ظنه، إذ أقصـــد الســـوق بوجهي مباشرة من بيجي إلى البسطيّة بملابسي العسكرية.

وللحرفة أصولها كما تعلمين، وأنا كنت المحترف الذي يراقب السكراب من النشّالة والسرّاق.. وما أكثرهم! فلم يكن أبـــــي يأمن إلى مازن على الإطلاق، لم يكن وجوده مفيداً في شـــيء، لا فائدة ولا زائدة، حتى أن أبـــي كان يطلق عليه لقـــب "القطّـــان الميّت" تشبيهاً بالسمك الذي قد فارق الحياة، لا يؤكل ولا يغـــني من جوع.

أما سبب سرد القصة هذه لأنه وفي أحدى المرات الـــتي كنّـــا جالسين في مكاننا، في البسطيّة، أنا ومازن. كنّا نتطلـــع إلى بســـطيّة قبالتنا، كانت تحتوي على خردوات ومواد كثيرة ومتباينة، جديـــدة ومستعملة، نظيفة وأخرى صدئة، أثاث منزلي وكهربائيـــات وقطـــع غيار وتحفيات. وفي تلك المعمعة كانت تجلس في الخلـــف صـــورة فوتوغرافية كبيرة وبإطار ذهبـــي جميل.. هل تعلمين ماذا كُتب تحت تلك اللوحة؟

– ماذا؟

- كلمتان «فرنسا/نيس»، هل تصدقين؟ كان الحمار مـــازن يترجمها «لطيفة يا فرنسا».. ياه، يا لها من ذكرى! لم تكن لهذه الذكرى دلالة ومعنى لي حتى اللحظة. لقـــد كانـــت اللوحة لهذا المكان بعينه، بدون مبالغة وتهويل. المكان نفسه والألوان نفسها وزاوية التصوير نفسها والشـــاطئ نفســـه والراقصون أنفسهم، كل شيء نفسه، كل شيء. يا له من جنون!
- جنون حقاً.

أجابت تساؤله مع ضحكة مكتومة فحدس أنها تطلب أن يغـــير منطوق الحوار، وهذا ما حدث؛ فلم يطل الوقت كثيراً قبل أن يتـــألق بحيوية، ومضى يسامر ويلقي النكات ويسرد المفارقات الطريفة ويطلق التعليقات الساخرة كلما وقعت عيناه على شيء. ومن الواضـــح أن اهتمامه انصبّ على إدخال البهجة إلى نفســـها بـــالأخص بعـــد أن وجدها مضطربة وحائرة، فكان يتابعها بعينيه ويراقـــب ملامحهـــا، ويلاحظ كيف تستجيب لما يقول.

طلبا العشاء وشرعا يتناولان الطعام، تحدثا عن يومهما الـــروتيني وعمّا حدث مع كليهما، حدثته بدورها عن يومها كيـــف قضتـــه، وكيف كان الوصول إلى المقهى مزعجاً، وانتهى بهـــا الحـــديث إلى أخواتها وعلاقتها بهنّ، ووالدتها الطاعنة بالسنّ. وهنا اســـتغرب أنهـــا انتظرت كل هذه المدّة لتبوح له بتفاصيل حياتها الشخصية، مع أنهـــا كانت تعلم عنه وعن أسرته أدق التفاصيل. وفي الختام طلـــب مـــن النادل قائمة الحساب فإذا إيميلي تقول:

- وماذا عن نخب الوداع؟

حاول أن يجعلها تعدل عن الموضوع لكـــن محاولاتـــه بـــاءت بالفشل، اتفق معها أن يشرب نخباً واحداً في حانة قـــرب الشـــاطئ. خرجا إلى هناك، وقد كان الحصول على الشراب صعباً للغاية، حـــتى أنهما عجزا عن إيجاد مكان للجلوس داخل الحانة فقررا الجلوس على مقعد صغير في الخلف، أو يبدو أنهما لم يجلسا على المقعد، لأن علياً حين أومأ إليها مشيراً إلى المقاعد، اعترضت وهزّت رأســـها ســـلباً مفضلة المسير.

تمشيا بعد ذلك نصف ساعة قبل أن يتضاءل صخب الاحتفالات ويصبح بعيداً عنهما، كان حريصاً، ربما بدافع الفضول قبل أي شيء آخر، أن يسألها عن شعورها حيال فرانسوا بروجييه الآن، لكنـــه لم يشأ تعكير مزاجها بعد أن رآها مغتبطة، فقد عـــاد إليهـــا مرحهـــا تدريجياً، وتدفق معها الكلام وغرقت في المزاح بحيث إن كل ملاحظة يبدي بها تكون مدعاة لمزيد من التهكم والضـــحك، ويبـــدو أنهـــا استعملت التهكم لتخفي قلقها واضطرابها، لأن حالتـــهما المعنويـــة كانت متهيئة للدراما والجديّة أكثر من المرح، وربما كانـــت تنتظـــر اللحظة المواتية لتفيض بجميع مشاعرها أمامه.

- من المؤسف أن نيكولا لم يأتِ معنا، فوجوده في نزهة اليوم لن يكون سيئاً.
- هل تعتقد ذلك حقاً؟ لقد خطر لي أن أدعوه، ولكـــنني لم أتجرأ.
- كانت ليلة رائعة. أليس كذلك؟
- أجل.. كثيراً.
- هل يضايقك رحيلي؟

لم يكن يخطر ببالها هكذا انعطاف، وحين التفت إليهـــا رأى في عينيها شقاء أقرب إلى الألم، أبعدت عينيها عنه وقالت:

- ولِمَ لا يضايقني رحيلك؟ سوف تتركني وحيدة هنا. بدون فرانس وبدون رائحة فرانس، من يؤنسني بغيابك يا علي؟
- لا بدّ أن يعود فرانسوا.
- هل تعتقد هذا حقاً؟
- أرجو ذلك.
- أَوَتعتقد أنه سيعود إلى إيميلي إن عاد؟
- أنا متأكد أنه لن يفرط في إيميلي.

ابتسم أحدهما للآخر، وضمّها في عناق حار، قبلها قبلة لم تــدم طويلاً، فقد انخرطت في نوبة بكاء في حضنه دون توقف. كانا قـــد اقتربا من الشقة كثيراً، لذلك مسحت دموعها بصمت، كان يـــدرك بدوره صعوبة الموقف فلم يبرح مكانه ينتظر ماذا تفعل، لكنها أنهـــت المحادثة في هدوء، وقالت:

- فلنحزم أغراضك. لم يبقَ الكثير للرحلة.

**(4)**

لا يجتمع قيظ يوليو الخانق وشهر رمضان ومدينة بغـــداد في آنٍ ومكانٍ واحد، اجتماعهما معاً يعني ببساطة الجحيم؛ فما أن تستيقظ الشمس وتنتصب في تلك الأيام حتى تبدأ الأرض بالغليان والفوران في عموم بغداد، ومن ثم تتشبع خلايا التربة والجدران والسقوف بالحرارة اللافحة، الحرارة الأسوأ في العالم. يمكن الشعور بهذا اللهيب بسهولة وهو ينبعث من المسامات والشقوق والنتوءات، بل من كـــل شـــيء تقريباً.

ومن يتابع الصائمين وأحوالهم، سيلاحظ كيف تنعكس آثـــار الحرّ فيهم، في سحناتهم العابسة، وفي وجوههم التي يغلـــب عليهـــا الجفاف واللهاث والعرق، ويمكن ملاحظة آثـــار الحـــرّ كـــذلك في طباعهم وسلوكياتهم، وفي حياتهم التي تتحول إلى نـــزق وكســـل، فيصبحون قليلي الحركة، منفوخين مزعوجين، لا يطيقـــون الكـــلام والثرثرة، حتى تعاملاتهم فيما بينهم تصبح جافة. يحاولون قدر الإمكان تأجيل متعلقاتهم حتى انتهاء العيد، وإذا ما عزموا على قضاء حاجة في رمضان يفضّلون الليل، فهناك يبقون مستيقظين حتى ساعة متـــأخرة بعد السحور، وينامون النهار.

لذلك حين استيقظ جن – سونك مبكراً ذلك الصباح، علـــى غير عادته، انزعج كثيراً. كان استيقاظه لا مسوّغ له، فبالإضـــافة إلى

الشعور بالإنهاك والتعب كان جائعاً جداً، وكأن رائحة الأرز والمرق تفوح في الهواء. وذلك بالذات ما أثار استغرابه أكثر، فمن الجديد عليه أن يستيقظ وفي نفسه هذه الشهوة الكبيرة إلى تناول شيء ما. فقد تعوّد أن يأكل في السحور، في هذا الشهر، وجبات عامرة. و لم يكن يشاركه في مقلاة المخلمة المليئة باللحم والبيض والطماطم والبصل أحد غيره، بل لا يجرؤ أحد على تذوق طعامه الحار اللاذع. ولذلك كان شعوره هذا الصباح مغايراً ومختلفاً، وكانت الرائحة تملأ طيّات أنفه، بالرغم من أن رمضان سينتهي قريباً دون أن يترك فيه من قبل شعوراً بالجوع أو العطش أو حتى لتدخين سيجارة.

ارتدى سروالاً قصيراً وتيشيرت وصندلاً وترك الصالة، استغرب وجود هالة في المطبخ تطهو طعاماً، فالجميع صيامٌ ونيام، أدهشته رؤيتها في هذا التوقيت، كانت مشغولة في المطبخ، وعلى الموقد قدور وقلايات يتصاعد منها البخار، كانت هالة منهمكة بتقليب محتوى قدر وإضافة شيء على آخر.

لم يكن الاندهاش ما شغل جن – سونك بقدر سعادته حين انفرد معها، حتى أن قلبه قد آلمه، حرفياً وليس مجازاً، إذ شعر بوخز خاطف في القلب دام هنيهة ثم اختفى، كانت متألقة، ولو أن ذلك لا يفرق لديه كثيراً لأنه كان يراها متألقة في جميع الوضعيات؛ كانت تضع الشال فوق كتفيها دون أن تغطي رأسها، وكانت ترتدي دشداشة خفيفة ساعدت أشعة الشمس على فضح تقاسيم فخذيها من خلف الملابس، وكان فرط نشاطها يفوق حدود الاعتدال، أراد أن يحادثها لكنه تردد، لم يشأ إزعاجها، وكان التصرف الأمثل أن يعود إلى غرفته، إلا إنه وقف يسترق النظر هناك، فقد استبدّ به

الفضول ليعرف ما تفعله، لم يشأ تنبيهها بوجوده لكن قدمه ارتطمت بحافة الحائط الموارب مصدرة صوتاً عالياً ما أفزع هالة من الحضــــور غير المتوقع، فقال مرتبكاً:

- هل تحتاجين مساعدة؟

انشغلت هالة بوضع الشال على رأسها عن إجابته، شعر بحماقة وجوده وتصنع البلاهة وأخذ يعتذر منها:

- أنا آسف جداً، لم أتوقع أن أجدك مستيقظة.

ابتسمت وقالت:

- لا تشغل بالك.. في الحقيقة أنا سعيدة باستيقاظك، وفّــرت عليّ جهداً كبيراً، كنت سأوقظك، أنت ومازن.. اليوم عيدٌ بالنسبة إلينا.

عاد المرح إلى محيّاها فأضافت:

- هل تعرف؟ يخاتلني شعور رائع وأنا أراك تتحدث؛ الكلمات تنساب من فمك كأنك طفل، ووجهك تعتصره الملامــــح. أتمنى من صميم قلبــــي أن تنظر إلى نفسك في المرآة حــــين تتحدث، لا بدّ أن بطنك لن يشبع من الضحك؛ حركات يديك تملأ الفضاء، كأنك غريق...

قاطعها:

- ألهذا التهكم من نهاية؟
- ربما.. في أحلامك.

صمتت قليلاً ثم أكملت وكأنها تذكرت شيئاً:

- لم أستطع النوم دقيقة واحدة.. سوف يعود اليوم، بل قبـــل الغداء، هل تصدّق؟

- هل اتصل؟
- نعم.. اتصل.. اتصل من المطار مرتين، في صالة الانتظار وفي الأسواق الحرّة.. ستنطلق طائرته في تمام العاشرة. يبدو أنه لم يكتفِ من شراء الهدايا.
- يبدو سعيداً؟ ها؟
- سعيد؟ بالتأكيد يبدو سعيداً، لكن.. إن علياً هذا ليس علي القديم نفسه، لقد تغيّر تماماً، لم يعد ذلك الإنسان البسيط، لقد تغيّر يا جن - سونك، لقد أصبح مرحاً ومنفتحاً وسعيداً!

سكت كلاهما حتى أصبح الوضع مربكاً وباعثاً للحرج، حينذاك افتعلت هالة موضوعاً آخر، وقالت:

- ألا يوجد خبر من أوك - هِي؟
- لا.. لا أثر! لقد تعبت يا هالة من البحث، بحثت في الهليكس وفي الإنترنيت، أوصيت عشرات الأشخاص في الشبكة حول أي معلومة.. أي معلومة، مهما كانت درجة تفاهتها، لكن دون جدوى. لا أثر، وأنا ها هنا.. عاجزٌ حرفياً، ولا أعلم ماذا عليّ أن أفعل؟
- آمل أن تتواصل معها عن قريب.

سكتا من جديد لكن جن - سونك قطع الصمت هذه المرّة وقال:

- هل يزعجك إن وجّهت إليك سؤالاً؟
- ولم يزعجني ذلك؟

جلست على المقعد ملؤها الفضول لما يريد قوله، وما إن جلست

حتى تابع حديثه:

- كيف يكون حالي وحالك إن عاد كل شيء إلى ما كـــان عليه؟
- أهذا ما كان يشغل تفكيرك؟
- نعم.. غالباً.
- لا شيء يتغير، ماذا كنت تتوقع؟
- ماذا أتوقع؟ أتوقع كل شيء.
- أنا مؤمنة أنّك ستعود إلى أسرتك يا جن - سونك. مؤمنة أن كل شيء سيكون على ما يرام، لا تحزن، ستبقى حـــتى ذلك الحين عندنا، لا تشغل بالك.. هذا البيت بيتك وهذه الأسرة أسرتك.
- شكراً.. لكن.. هالة..!
- نعم؟

تردد قليلاً ثم تابع بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه:

- سأنتقل إلى بيت آخر حالما يعود علي.
- لماذا؟
- آسف.. لكن..
- ماذا؟ قُل؟
- ما عدت أطيق الصمت، أنا مضطر إلى قول ما سأقوله. لا تؤاخذيني.
- لم أفهم!
- تأكدي إن ما سأقوله سيخرج من فمي رغماً عن مشيئتي، لا بدّ لي أن أبوح بما يعتلج في داخلي وإلا انفجرت.. أنـــا

آسف.

- لا تقلقني أكثر يا جن – سونك! ما خطبك؟ لو استطعت أن توضح لي...
- تفكيري مضطرب ومشوش.. لذلك لا أستطيع – أنا نفسي – أن استخلص شيئاً واضحاً، وقد باتت كل أحاسيسي باهتة وسحيقة الغور.. ما سأقوله سيعدّ بكل الأحوال حماقة، حماقة متعذرة القبول، لكن...

جمّع أفكاره ثم اردف:

- لقد وضعتني ظاهرة أريك/ياي أول مرّة في حياتي في مفترق طرق، كيف أصوغ الجملة؟ لحظة.. نعم.. حين أصبحت «عراقياً» أقنعت نفسي بالتجربة ورحبت بقدري، وعللت لنفسي أن وجودي معكم سيكون رائعاً ولا بدّ أن تُطوى صفحة كوريا فطويتها، وقلت إن حياة أخرى ستفتح على مصراعيها أمامي فاستجبت دون تردد، قررت أن أكون مغامراً، وأخذتني الحماسة إلى الاستكشاف والحبّ والتجربة، أحببت ذلك، ولأول مرّة في حياتي كنت أتجه في رحلة نحو شيء أعشقه، ورحلة العشق هذه وضعتني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم تكن ضمن نطاق تفكيري، وفي ذلك يكمن عذابي لأنني...
- هل يبقى حديثك ملغّزاً؟ قل.. ماذا دهاك؟

نظر في عينيها وقال:

- أحبك هالة.. هذا ما دهاني، وليس لي حيلة في ذلك.. أحبك..

حاول جاهداً أن يخفي اضطرابه وهو ينطق كلماته هذه، لكن الدموع انهمرت من عينيه دون شعور وانضغط وجهه حتى فقد شكله. أما هالة فقد ارتعبت بدورها وشحب لونها، أرادت الكلام لكنها لم تنطق شيئاً. منعها ارتجاف شفتيها، ولم تعلم بأي حال ماذا يجب أن تقول له بالضبط.

- اعذريني أرجوكِ، أعلم أن ما قلته يعدّ إهانة لكِ.. إزعاج واقتحام، لكن ليس بيدي حيلة، ولا أريد أن أسبب لك جرحاً مهما كان.. لكن أسألك بأعزّ ما عندك.. ماذا عليّ أن أفعل؟ وكيف لي أن أتصنّع؟ فالمشاعر لا سلطان عليها، ولا يمكن وضعها أو خلعها طبقاً للظروف.

بقيت هالة صامتة جامدة لا تعلم ماذا يجدر بها أن تجيب، فلو كانت مستعدة أكثر أو قد وجه إليها الكلام بطريقة متأنية، أو إن المصارحة كانت خارجة عن انفعال مفاجئ، أو نتيجة ردّ فعل عصابي، لكان وقعها أهون. لكن حراجة الموقف أربكتها وبقيت مطرقة الرأس حتى ينتهي جن - سونك من حديثه.

- أعلم أن ما قلته كان أنانية مني، كان الأصلح أن أحمل هذا السر معي.. إلى كوريا.. أو إلى القبر.. لا يهم، كان الأصلح أن لا أعذبك بأنانيتي. لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن، لا يمكن لي أن أراه معك، أو أنت معه. له.. ملكه.. آسف على جرأتي هذه ولكن.. يجب أن أبوح لك الآن قبل أن أرحل.

حين انتهى من كلامه رفعت رأسها فلمحت دموعه تملأ وجهه، ضحكت ضحكة لا معنى لها، لكنه لسبب ما لم يكن مهتماً بعد

االذي قاله. كان يرتجف، شعر بركبتيه تنوءان بحمله، عاد إلى الصـــالة مترنحاً، تجاوز المطبخ، ثم رجع والتفت إليها مرّة أخرى عند البـــاب، لكن هذه المرّة مع ابتسامة متصنعة، قال منهياً حديثه بنبرة اعتذار:

- سأذهب لأوقظ مازن الآن.

**(5)**

انسلّ جن – سونك عائداً إلى الصالة ليوقظ مـــازن، اســـتغرق إيقاظه ساعة من الوقت، وساعة أخرى ليزول أثر النوم مـــن عينيــه. وفي أثناء ذلك كان جن – سونك قلقاً جداً؛ حاول الاضطجاع على الأريكة فلم يقدر، أراد أن يشغل نفسه بتقليـــب القنـــوات، شـــغّل التلفاز، شاهد قناة وغيّرها مرّة ومرّة أيضاً ليشاهد قناة أخرى غيرها. ترك جهاز التحكم وأمسك هاتفه النقال، تصفح الهليكس فلم يجـــد ضالته أيضاً. كانت يداه ترتجفان تلقائياً، كأنه أحمق، فلم يقاسِ مثـــل هذه الحالة المروّعة من قبل.

تعذّر لمازن من مرافقته إلى المطار، اختلق حجة التوعك لكن في الحقيقة لم يجد في نفسه الطاقة ليخرج ويستقبل علياً. لم يمتعض مازن، فليس الأمر جللاً إن أقلّ أخاه وحده، و لم يكن سيتأخر على أي حال في الذهاب والعودة، كانت الشوارع خالية ذلك اليوم قياساً بزحـــام بغداد اليومي.

وما هي إلا ساعة حتى عاد مازن إلى المنزل ومعه أخوه، تعـــالى صوت نفير السيارة بإلحاحٍ، رفع مزلاج الباب ودلـــف راكضـــاً إلى الداخل، كان مختالاً فرحاً، أنشد الأهازيج استقبالاً لأخيه العائد مـــن ديار الغربة.

أما علي فقد تجمّد عند عتبة الباب، كانت تخـــتلط في نفســـه مشاعر الفرح والخوف، كأنه يقول في داخله؛ ها هي اللحظة المرتقبة، وها قد عدت إلى "ما كنت عليه"، إن كان هذا حقاً ما أنـــا عليـــه! وسرعان ما تناهى إلى مسمعه صوت مازن يناديه ويدعوه للـــدخول. دخل فوجد والدته أمام ناظريه فتهاوى تحتها، ارتمى علـــى قـــدميها

وأسند رأسه على ركبتيها، كان يضحك ويبكي في الوقت نفسه. ارتمت فوقه أخته وسن ومن الجانب أحتضنه عبودي الصغير، كان المشهد شاعرياً جداً، انتصب وبحث عن هالة، شاهدها واقفة قرب الباب منحنية وغاصّةً بدموعها.

وفي زخم تلك اللحظات، سقطت هالة مغشيّاً عليها، تجمعوا حولها لا يبدون ولا يعيدون، انحنى جن - سونك ليحملها لكن علي سبقه إلى ذلك، أخذها إلى الصالة ومدّدها على أريكة هناك، وفي أثناء حملها استفاقت قليلاً، وطفقت تنظر إليه نظرات حيرى. وحيث كانت تنظر إليه، وهي في ضعفها، شعرت أنها تنظر إلى إنسان جديد. ومهما كانت الأسباب المختلطة التي كان لها نصيب في الإغماء، فإن هالة كانت تبذل ما في وسعها من أجل التخلص من واقع أنها مغمى عليها، وكانت تجاهد نفسها لتستيقظ وتستمع إلى الأحاديث الدائرة حولها.

ولاحقاً حين استفاقت، شاهدت علي وجن - سونك ومازن ووسن جالسين حولها، وعلى الكرسي المقابل لها كانت الحاجّة تجلس وفي حضنها الطفلين. شعرت فجأة بهدوء عميق يتملكها حال رؤيتهم، ارتسمت على وجهها إشراقة، وما إن شاهدوها بهذه الحالة حتى تهافتوا فرحين:

- ها هي استفاقت.. ها هي استفاقت.

تجلّت ضحكة صغيرة منها، احتضنها زوجها وساعدها على الجلوس، لكنها تشبثت به وتعلقت برقبته وانفجرت مجدداً بالبكاء، كانت ترغب بالكلام لكن من الصعب أن يفهم من نحيبها جملة أو صوتاً:

- أنت علي؟ أنت علي؟

حاول أن يخفف عنها قليلاً فأجابها مازحاً:

- لماذا؟ أليس واضحاً أنّي علي؟ بالتأكيد أنا علي «بشحمه ولحمه».

انفجر الجميع بالضحك وقالت الأم:

- استفيقي يا ابنتي، بالله عليك، دعينا نرى ضحكتك.

سأل علي لا على التعيين:

- منذ متى وهي تتدلع هكذا؟

وأجابت وسن مازحة:

- منذ أن رحل زوجها عنها.

وقال جن سونك:

- أي دلع هذا الذي تتحدثون عنه؟ هوّن عليها.

ازداد ضحك الجالسين، وقال مازن:

- لا أشارككم الرأي.. هذه السيدة الشريرة لا تعرف الدلع ولا تستخدمه. إنها ماكنة روسية لا تعطب، بل إنها دكتاتور، وكلنا تحت رحمتها وسلطتها.

ضحكت هالة وقالت:

- كفاكم تملقاً.

فأجابتها وسن:

- ليس تملقاً هذا يا «خاتون»، إنه تهكّم.

وجّه جن - سونك كلامه إلى وسن وقال بشكل جادّ:

- يكفينا مزاحاً بالله عليكم. أليس الأجدر بنا أن نترك الزوجين وشأنهما قليلاً؟

اندهش علي من لباقة جن – سونك وقال:

- لحظة.. لحظة.. أما زلتم تعتقدون أن هذا الشخص الماثل أمامي كوريّ الجنسية وليس من باب الشرجي!

والتفت بعد ذلك إلى جن – سونك موجهاً كلامه إليه:

- ما سرّك؟ كيف أتقنت العربية بهذا الشكل؟
- قصة طويلة.. أحكيها لك في وقت آخر.
- أوليس الآن؟ كلّي آذان صاغية.

أجابت هالة:

- دع الرجل وشأنه.
- لا.. لا.. حقاً أريد أن أعرف كيف؟

أجاب جن – سونك:

- لا أعرف أنا أيضاً كيف؟ جلّ ما أعرفه أن الفضل يعود إلى هالة وليس لي.. لقد كانت كل يوم، من الصباح حتى الغسق، تقوم بترجمة الدنيا من حولي إلى اللغة العربية؛ هذه كرة.. هذه سيارة.. تلك ملعقة.. ذلك جسر. كانت تتكلم طوال الوقت، وكنت في المقابل أردد كل كلمة أسمعها منها، وكل عبارة تنطقها. وكنت اسألها دوماً؛ ما هذا؟ ما ذاك؟ وكانت بدورها تجيب.

قاطعته وسن وقالت:

- ليتك ترى وجهه حينذاك، كان مضحكاً جداً. خاصةً حين ترتسم الغضون على جبهته من فرط الجهد المبذول.

انبهر علي وقال:

- يا له من إنجاز.

وقال مازن:

- كنت أشاهده أحياناً يكلّم نفسه، فأنصت إليه، كان يـــردد بينه وبين نفسه الكلمات مراراً وتكراراً، وكأنه يحـــاول أن يلصقها في ذهنه دون أن ينساها، وإن تصادف في إحـــدى المرات أن نسي كلمة، كان يغضب ويقوم بصفع وجهه أو يطرق رأسه بالحائط!

قاطعه جن – سونك:

- هو هو هو. من هذا الذي نتحدث عنه؟ يكفي مبالغة لطفاً، جلّ ما في الأمر أنني أقوم بوضـــع الكلمـــات في خانـــات ودواليب داخل رأسي، وأخزن كـــل كلمـــة جديـــدة في دولاب كي لا أنساها. لقد اكتشفت مع مرور الوقت أنني أعشق اللغة العربية، أصبحت مجنوناً بها، كنت أتطلع إلى كل كلمة جديدة، وكل ما استزدت من الكلمات أكثر، ازداد شغفي في أن أقوم بتجربتها. وسرعان ما ازدادت الكلمات ونمت داخل رأسي لتصبح عبارات، وأصبحت العبـــارات جملاً كاملة.

فأكمل مازن من هناك:

- وشيئاً فشيئاً انحلت عقدة لسانه وأصبح عراقياً بامتياز.

وأضاف جن – سونك:

- يعود الفضل إلى هالة.

وعلّقت وسن ضاحكة:

- هل تقصد «الخاتون»؟

## (6)

أرخى الليل سدوله وحلّ الغروب، صدح الأذان معلناً وقت الإفطار؛ اجتمعت الأسرة أخيراً على مائدة الطعام، وبعد بسم الله الرحمن الرحيم، شرعوا بتناول وليمتهم، كانت مائدة عامرة بما لذّ وطاب، بذلت هالة من أجل إعدادها الكثير من الجهد والوقت. كان اجتماعاً حميماً سعيداً، وكانوا يتحدثون كلهم في آن واحد، يتضاحكون ويتشاكسون. وعلى العموم، كان علي هو مركز الاهتمام. كانوا جميعاً يتطلعون إلى أحاديثه، مهتمين بسماعه، ومشغولين بإيجاد أجوبة عن تساؤلاتهم عن حال فرنسا ومقارنتها بحال العراق. وكان علي بدوره يجيب عن استفساراتهم ويشاركهم تجربته بشغف وحماس.

أسعده أنه وجد كل شيء على حاله كما تركه، لم يتغيّر؛ الأرائك ما زالت تحتاج إلى تجديد، المنشفة ما زالت ملقاة في نفس مكانها فوق المقعد، الصنادل والأحذية ما زالت بنفس الفوضوية، رزمة المفاتيح ما زالت معلقةً بمسمارها، لم يتغير شيء! تغيّرت عيناه فقط، أو تغيّر – بالمعنى الأدقّ – هو نفسه، إذ أصبح أكثر ثقة وتقبلاً ومرحاً وتجربة وحياة.

أما جن – سونك فقد كان حالماً مستغرقاً بأفكاره، لا تعنيه أحاديثهم، وكأنه لم يكن يسمع من الأصوات من حوله إلا غمغمتها ووشوشتها، ولو كان من الممكن الولوج والنظر بين طيّات عقله، إن افترضنا إمكانية حدوث ذلك، وبحسب الطريقة المتبعة، فمن المستحيل حينذاك اختزال أفكاره وحصرها في كلمات، وكأن دماغه في فوضى عارمة. إلا أن العقل لا يعمل بهذه

الطريقة، والافتراض لا يعدو أن يكون محاولة لفهم ما يحدث لا غير.

كان مشغولاً، أولاً، بتذّكر ما حدث في الصباح، فكان يسترجع حديثه مع هالة كل دقيقة، فيعيد في نفسه مصارحته الجريئة لحقيقة مشاعره. وعلى الرغم من أنه اهتم بعدم إظهار انفعالاته، فإن الذكرى كانت تجبره على الانفعال، فتتشنج قسماته وتجمد نظراته، ويندم على ما اقترف تارة ويرتعب تارة أخرى، فما الذي سيترتب عن هذه المصارحة؟ وهل تكشف هالة، ولو قليلاً، لزوجها حقيقة ما دار؟

ومن ثم تراوده أفكار مختلطة؛ كيف يمكنه إبطال هذا الواقع؟ وكيف ينتهي به الحال في النهاية؟ وهل يستعيد حياته السابقة؟ أو أن يجمع شتاته من جديد؟ وكان في مخيلته يتصوّر نفسه يجوب طرقات الهارمونيكا، يسلّم على هذا ويردّ على ذاك، أو يتصوّر نفسه داخل بيته، يعدّ العشاء لأخته أوك – هِي، أو في محله الصغير يقوم بإصلاح دراجة هوائية. إنها محض خيالات من الماضي، تصورات، ولكنها عنت له الكثير.

أما الآن، ما الذي لديه ليفعله؟ ما الحلّ؟ ألا يوجد في الأفق جواب وسطيّ؟ كان يغريه التفكير في الأمر، فيفترض أن عليه المضي قدماً في حياته، أن يترك هذه الأسرة، يعطيها مساحة للفكاك من عبئه، يفكر أن يكون لديه مسكن خاص به. وهكذا اتخذ قراره، سينتقل للعيش قريباً، سيترك هذه الأسرة وشأنها. ربما سيقوم بتأجيل الموضوع حتى انتهاء العيد، كي لا ينغص على الأسرة فرحتها وغبطتها.

طلبت الحاجّة أم علي، بعد الفطور، أن يأخـــذها أحـــدهم لزيارة الإمام الكاظم. فلدى هذه المرأة دعاء ونذر وشكر يجـــب القيام به بعد أن عاد ولدها إليها "سالماً غانماً"، تـــبرّع مـــازن أن يأخذها إلى هناك، وكذلك طلبت وسن الذهاب معهما. أما البقية فقد قرروا الخروج للكرادة داخل لينزهوا الأطفال ويتسوّقوا ألبسة العيد.

ولم يشأ جن – سونك أن يرافق الزوجين، لذلك تعذر وتملّص من الخروج، لأنه كان يعلم، علم اليقين، إن ذلك سيربك عليّاً. ويعلم أيضاً إن قام بمرافقتهما، فلن يأخذا معه راحتهما ولن يأخذ معهمـــا راحته، بل سيقضي النزهة متجهماً ومرتبكاً.

كانت العلاقة بين علي وجن – سونك قلقة حساسة، تنافســـية ربما. وقد تبدو لعين الرائي هادئة مسالمة، إلا أنها كانت مليئة بالارتباك والشروخ غير المحسوس. لم يسبق لهما أن تحدثا سوية لأكثـــر مـــن دقيقتين. كانا مختلفين جداً، واختلافهما يبرز واضـــحاً في الطبـــاع والميول والسلوك والتطلعات. ويبدو أنهما كانا يدركان الأمر، ولذلك غالباً ما كان يتراجع أحدهما إلى الخلف حين يشعر أن الآخر ينجرف نحو مساره الخاص.

وبالطبع فقد تغير الحال بعد أن عاد علي معن إلى منزله، فحين كان جن – سونك وحده في الصورة، لم يكن يضطر إلى مقارنـــة نفسه مع أي أحد، فكانت نجاحاته وإخفاقاته تخصه هو وحـــده. وكان بمقدوره العيش وفقاً لما يحب أن يخطط ويرســـم، أمـــا الآن فلدى هالة زوج حقيقي مفعم بالحياة، ما يتركه يكابـــد شـــعور الاغتراب من جديد.

خرجا من المنزل دونه، وبقي وحده، كان يعاني من صداع شديد، احتاج إلى البقاء بمفرده ليرتاح قليلاً. أراد أن يشغل نفسه بتصفح الهليكس، أو أن يتفرج على برنامج تلفزيوني أو مسلسل رمضاني. لكنه لم يستطع. فكّر أن ينام، لكن ذلك أيضاً كان من سابع المستحيلات، فالصداع قد أجهز عليه كلياً.

عاودته فكرة الخروج، أن يلتحق بهم أو يتعقبهم أو يطاردهم. أياً كان المسمى الملائم، فقد استحوذت عليه فكرة أن يعرف ماذا يصنعون؟ أو أين يذهبون؟ أو عمّ يتحدثون؟ و لم يكن في يده حيلة. فقد ألمّ به القنوط. وكان، كمريض الوسواس القسري، يعيد ويجتّر في الفكرة نفسها مراراً وتكراراً، استحوذت عليه وأفقدته رشده. وفي كل مرّة ينتهي به التفكير إلى أن يتركهم وشأنهم، فلا يحقّ له ملاحقتهم على أي حال، لا يمكنه أن يفعل ذلك، بل لا يجوز.

لكن، وباندفاع تلقائي، قفز من مكانه، هرع إلى الخارج، اتجه صوب الكرّادة – داخل، أخذ يجوب الطرقات بحثاً عنهم، فتش في المحلات والمتاجر، طالع الوجوه بعصبية وانفعال، كانت عيناه تتلاطمان هنا وهناك كالسهام دون وجهة واحدة محددة. كان الجو حارّاً بلا حركة هواء، إلا أن العرق الذي تصبب من جسده لم يكن دلالة على الجو القائظ بقدر ما كان يدلّ على اضطرابه وقلقه.

وجدهم هناك، في الشارع العام، يتنزهون ويتفرجون على واجهات المتاجر، كانوا مستمتعين ومتناغمين. وعلى مسافة قريبة من مرطبات «لوز وموز» تحولوا إلى الجانب الآخر، وقفوا في آخر الشارع ومرّة أخرى أمام كشك أكلات شعبية. وطوال المسير، كانت هالة تعتمد في مشيها على ذراع علي، وبين الحين والحين

كانت تتكئ على يده بحنان ورقّة، فكانت تمسك الطفل من جهـــة وتعقد ذراعها بذراع زوجها من جهة أخرى، وكان علـــي بـــدوره يدفع عربة الطفلة الصغيرة.

استمروا في السير حتى وصلوا إلى شارع فرعي يفضي إلى مرقد «سيد أدريس»، انعطفوا إلى هناك، يبدوا أنهم قد قصدوا المرقد لغرض الزيارة والدعاء. تابع جن – سونك سيره إلى أن وصل إلى مســـافة قريبة من الممر الفرعي، كفّ عن المسير نتيجـــة أفكـــار لم يســـتطع تفسيرها. وفي أحد الأركان، وقف خلف حاجز حديدي يمنع المرور، كان لا يزال يستطيع أن يتلصص عليهم ويراقبهم من بعيد.

وفي غضون نصف ساعة، خرجوا إلى الشارع من جديد، عادوا إلى مسيرهم. كانوا يمشون ببطء منتقلين من متجر إلى آخر، وكـــان جن – سونك يتابع تحركاتهم أينما حلّوا، راقبهم مدّة طويلة، وفي كل مرّة يقف في مكان لا يستطيعون فيه رؤيته. حـــتى إذا وصـــلوا إلى «جبار أبو الشربت» جلسوا ليريحوا أقدامهم عنده.

كان المكان أمام محل المرطبات صاخباً ومزدحماً، بل خانق جداً، إذ كان يعجّ بالرجال والنساء والأطفال، عوائل وأفراداً، مـــن جميـــع مناطق بغداد وأنحائها ومن خارجها أيضاً، وكأن المنظر مشـــتق مـــن لوحة أحد الفنانين الانطباعيين، حيث الجميع مشـــغول بالتســـوّق والتحضير لاستقبال العيد.

تخيّل أن الكرّاديين قد اجتمعوا في مكان واحد، لا نقول جميعهم بالتأكيد، إلا أن الموجودين لا بدّ أن يكون بينهم شخص مـــن البـــو جمعة والبو شجاع وأبو أقلام والبوليس خانة وأرخيتـــة والناظميـــة والمسبح والسدّة والراهبات والعرصات والزويّـــة وجـــزرة الشـــط

والعصرية وساحة الحرية والجادرية والأمباسي وقيراط وباص 12 و13 وأم العظام وسبع قصور، جميعهم التقوا في ذلك المكان، بغداد برمتها اجتمعت هناك، من الكاظمية حتى الزعفرانية ومن بغـــداد الجديـــدة حتى البياع والسيدية.

استغل جن - سونك الفرصة التي ذهب بها علي إلى الكاشـــير لطلب العصائر واقترب منهم، جلس إلى طاولة قبالة طاولتهم، وبات يشاهدهم بوضوح أكبر فالمسافة كانت تلائم مستوى نظره. حـــاول أن يسترعي انتباه هالة إليه، فراح يلّوح ويرفع يديه فوق رأسه بدلالة إلقاء التحية باستمرار. لكن هالة لم تنتبه له، و لم تلقي عليه حتى نظرة عابرة، كانت مطأطئة الرأس مشغولة بإسكات عبودي مـــن جهـــة وإرضاع نونة من جهة أخرى.

عاد علي مع العصائر وجلس إلى الطاولة، ساعد هالة في تهدئـــة الطفلة وراح يلاعبها، لبثا على هذه الحالة قليلاً قبل أن تسيطر عليهـــا متعة حقيقية، ضحكا وتمازحا، كانت هالة سعيدة، أسعد مما كانـــت عليه منذ زمن طويل. وكانت قد استعملت بعض الماكياج، لـــذلك بدت في زيّها وأناقتها فتية جداً. ما جعلها مثيرة وجذابة فوق العادة، ويفسر ذلك سرّ انجذاب الشباب وتطلعهم إليها أثناء جلوسها.

وفي تلك اللحظات، جلس جن - سونك يسحب سيجارة تلو السيجارة ليمتصّ منها القسم القليل ثم يرمي بها إلى الأرض، وكـــان يسأل نفسه مع كل حديث يدور بين علي وهالة: «ماذا يقول لهـــا؟ وماذا تقول له؟» لم يكن يحسدهم، وحتى لو كان حسوداً لقضى منذ اللحظة الأولى على كل دافع للحسد، وفي كل حـــال فإنـــه لـــيس بحسود، على الأقل هو لا يعتقد أنه كذلك، لكنه يعتقد أن ما يفعلـــه

نشاز ومعيب، ومن الأجدر به أن يتركهم وشأنهم، أن يمضي في حياته وينساهم.

لاحقاً، نهضت هالة من مكانها، تحدثت ببضع كلمات مع علي ووجهها ملؤه الحيوية والفرح، أخذت الطفلين واتجهت إلى مجمع الليث التجاري القريب. نهض جن – سونك من مكانه حالما شاهدها مع طفليها بينما لا يزال الزوج ملتصقاً بمقعده، ظلّ يتابعها حتى دخلت المجمع، آسره انفرادها عن زوجها وعدم مرافقته لها، اشمأز منه ومن عدم اكتراثه وتقديره لجمال وروعة ما لديه. اجتاحه اضطراب مفاجئ و لم يعد يعي ما يمكنه فعله من شدة التأثر، و لم يكن في استطاعته عمل شيء، تمنى أن يمحو هذا الشخص الجالس أمامه من الوجود، أن يقتله بيديه الأثنين، بدت له تلك الفكرة عادلة وصائبة وليست بحاجة إلى تسقيط، تماماً كما إن طرد الروح الشيطانية المتجسدة في شخص لا يحتاج إلى حكم مسبق. أتجه إلى طاولة علي ووقف فوقه، كان حانقاً ومنتفخاً، جلس بجانبه بدون استئذان وبدون سلام وقال له:

– أين ذهبوا؟

لم ينصدم علي من وجوده وأجاب متهكماً:

– يا أهلاً بالعيد.

سأل بإصرار:

– لم تجب..!

نظر علي إليه بشزر وقال:

– ماذا بك؟ أراك مضطرباً؟

لم يعبأ بسؤاله فأفتعل علي سؤالاً متهكماً آخر:

- أراك تمكنت من المجيء؟
- نعم، تمكنت.
- لا.. لا.. حقاً أنا توّاق لأعرف.
- تعرف ماذا؟
- كيف وصلت إلى هنا؟
- .....
- أريد أن أعرف بالضبط ماذا تريد؟ والآن..
- لا أعلم كيف يجدر بـــي أن أجيبك.
- هل حقاً إنك لن تمكث معنا إلا أسبوعاً؟
- نعم، سأنتقل بعد العيد مباشرة. يبدو أن هالة قد أزفت لك الخبر
- إنها لا تخفي عني سرّاً.. بالرغم من أنك عزيز عليها، وهـــذا ما يصبِّرني على تحمّلك. لكنها ما تنفك تقول إنك إنســـان حقيقي، وإنك تستحق هدية خاصة.. هل تصـــدق؟ لقـــد ذهبت إلى المجمع لتبتاع هدية لك. لك أنت! يا للعجب، لا والأدهى أنها اشترطت عليّ أن أطيقك وأتحملك حتى تنتقل إلى مسكنك الجديد.

ابتسم ابتسامة خفيفة:

- أحقاً قالت لك ذلك؟

غضب علي من انشراح وجه غريمه ونظر إليه بنظرة من يتـــهيأ للانقضاض عليه وقال:

- اسمعني قشمر، أنت لا تتعدى في نظري أكثر مـــن جســـد فارغ ينتظر صاحبه أن يعود إليه، بـــل إنـــك - في نظـــر

الجميع – حارس للجسد لا أكثر.

- أنت حقاً لا تستحقها.
- هل تقصد زوجتي؟
- نعم.. زوجتك.

صعدت حدّة النبرة بين الأثنين، دفع الأول الطاولة بقوة وأنقض على الثاني، أمسك ياقته بكلتي يديه، لكمه الثاني على وجهه، ركلـــه الآخر برجله، امسك رقبة خصمه فجعلها تحت إبطـــه. وفي تلـــك الأثناء، في حين كانت الحشود تتفرج وتحاول تجنب العراك، حصــــل شيء رهيب، شيء مرعب جداً تصعب روايته، فقد أضفت الحالــــة المتوترة على العقل وقتذاك تعبيراً مبهماً يجعل السرد والوصف عاجزاً، بل يصعب على المراقب أن يقوم بتجميع نثـــار المشـــهد في صــــورة مقتضبة واحدة.

## (7)

في تلك الأثناء وبينما كانا يتجاذبان ويتدافعان، حدث انفجار..

انفجار مهول..

مهول.. مهول إلى أبعد الحدود..

لم يكن للانفجار صوت، إلا أنه كان قوياً جداً بحيث دفع الجالسين، من شدة العصف، ثلاثة أو أربعة أمتار. استدار الجميع بعد أن أفاقوا من الصدّمة فلم يلحظوا غير ضوء.. ضوء رهيب، غابت معالم الأشياء بلمح البصر في ضوء وضباب كثيف مختلط من الدخان ونثار الأشياء المختلطة، كان الانفجار بالتأكيد في مجمع الليث وما يقابله من بنايات.

نار هائلة تزحف، ترتفع، تتعاظم.. لهب عال.. سخام.. دخان.. حرّ مخيف.. كان من المرعب النظر إلى البناية من أقصاها إلى أقصاها. والأدهى من ذلك أن النيران كانت تشتد وتشتد دون توقف.

عمّ الصخب.. هرج ومرج في كل مكان.. تجمهر الكثير.. العشرات بل المئات.. كانت تعتلي الموجودين طبقة كثيفة من القطران، وكانت الأبصار شاخصة نحو النيران، لقد قامت القيامة بلا شكّ.

المشهد نفسه تكرر في المجمع أكثر من مرّة.. انفجارات متعددة داخل البناية نفسها، أصوات غريبة هذه المرّة، تكرر المشهد أيضاً في مجمع الهادي سنتر في الجهة المقابلة لمجمع الليث.

كانت الحشود في حالة صدمة، فهنا من أخذ يركض دون وجهة، وهناك من جمد في مكانه مذهولاً، أو جلس على ركبتيه

مستسلماً.. كان الجميع يصرخ، ويصرخ. الجميع ينحب، الجميع ينادي بأعلى صوته: «حريق».. «بسّام».. «حريق».. «حسين».. «يابه صلاح».. «بوية أيمن».. «خوية عبد الله».. «ولك مصطفى»، إلا أنه لم يكن من السهل فهم صوت من تلك الأصوات.

مضت دقائق حتى استوعب الموجودون ما حدث.

كان صوت فوران النيران يطغي على بقية الأصوات، لكن ما أن يصيخ المرء السمع قليلاً حتى يسمع أصوات البشر داخل البناية، هل يمكن تخيّل أصوات البشر أثناء الاحتراق؟ بالتأكيد لا..! لا يمكن، مستحيل. لا تدلّ أصواتهم على كلمات مفهومة بعينها. أصوات متداخلة، شوهاء، مبهمة، لا يمكن تمييزها. لكنها كانت هناك، في الأفق، موجودة. أصوات تدغم وتمتزج مع بعضها وتؤلف نياحاً جماعياً واحداً.

إن القلم ليعجز عن الوصف وعن إعطاء فكرة كاملة وصورة واضحة عن تلك الأجواء، فكيف يتسنى للمرء أن يصف كابوساً؟ إننا لا نطلب منك أيها القارئ العزيز إلا أن تؤمن بأن هذا هو ما حدث، صدق أو لا تصدق، لقد كانت تلك الساعات عبارة عن هول مرعب، وهذا يكفي.

هل يمكن تخيّل الأجساد وهي تحترق؟ هل يمكن؟ هل يمكن تخيّلها وهي تتحول إلى مسحوق فحم متناثر؟ لا بدّ أن الوصف صعب، لكن لا غنى عنه، ولا يمكن تجاوزه، ولا بدّ من استرجاع الحدث مراراً وتكراراً، فما حدث في الكرّادة ليس عادياً على الإطلاق.

تخيّل..

غمرت السنة اللهب المجمع، من المدخل وامتدت إلى المتــــاجر. هجمت في البدء على المواد القابلة للاحتراق. وعلى الرغم من أن كل شيء في نظر النيران من الممكن التهامه، فإنها كانت تفضّل الخشــــب والقطن والكتان قبل أن تتقدم نحو الأشخاص العالقين، لم يكن للنيران أن تفرّق بين الرجل والمرأة والطفل والرضيع، الجميع لديها سواسية..!

تبدأ النيران بالتهام الملابس، ثم الشعور، الجلود، قبـــل أن تتـــهيأ لابتلاع الأجساد. لتخفت حينذاك الأصوات، وتتحول إلى أشــــلاء أصوات، أنّات، إذ يحلّ الصمت. ويستسلم الأبرياء للموت، وكيف للإنسان أن يواجه تلك النيران ويبقى على قيد الحياة.

حلّ الصمت..

تشققت الجلود وغطّتها البثور، احترقت الأجساد واســـودت، انسلخت وتضاءلت، انكمشت واضمحلت، لا تمتعض أيها القـــارئ فما زال هناك ما لم يُقل.. لا تقفز هذه السطور.. لأن الأجساد حين تتقلص وتجفّ تصبح بحجم طفل صغير، تفقـــد وزنهـــا وشــــكلها ومفهومها، ولا يعود لها ما يميزها عن بعضها، هذا إن أمكن التعرف عليها على أنها أجساد بشرية في أي حال.

حلّ الصمت..

وتحوّل المكان في ظل ساعات إلى فحم وركـــام. ولكــــن، في الوقت نفسه، أمسى المكان ضريحاً مقدساً، وتحوّل الدخان والشرر إلى شيء آخر.. شيء لا ينتمي إلى عالم البشر الماديّ، شيء روحي. نعم روحي، إذ تجتمع الأرواح البريئة وتطوف وتصعد إلى عنان الســـماء. تتسامى وتعرج أعلى فأعلى، وتظلّ تحوم في الأعلى في الأفق البعيد.

وهالة.. أين هالة؟ وأين طفلاها؟

في الجانب الآخر من الأحداث، جلس القرفصاء كلٌّ من علـــي وجن – سونك متململين وصـــامتين، افترشـــا الأرض يتفرجـــان ويبكيان، كانت مشاعرهما منمّلة ومخدّرة، لم يشعرا أنهما ينتميان إلى هذه الأحداث، كانا في حال أشبه بالإنكار. لقد أنهكهما الانتظـــار كثيراً. وما زالا ينتظران أن تعود هالة وصغيراها؟ لقد تأخرت.. تأخر الوقت.. تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

## (8)

وبعد..

كيف يجب أن تكون النهاية؟ وما الذي يجدر أن نضيفه إلى ما سبق؟ وما الجدوى؟ لا شيء.. لا شيء يستحق؛ لا البوح ولا الدموع ولا المراثي ولا حتى هذه السطور. لا أحد يستحق الملامة، الاكتراث وعدم الاكتراث، فالناس لا يعبأون بالقصة وبنهايتها، ولا يبحثون عن تعكير مزاجهم. وإن بحثوا واستفسروا، وإن دعتهم الظروف يوماً إلى أن يستمعوا، فلا يجدر أن يكون سقف التوقعات عالياً جداً. وعلى الأرجح أنهم لن يحتفظوا في ذاكرتهم إلا بالحدث الأبرز والجزء الأهم. وحتى ذلك لا يمكن ضمان تواتره في الكتابات، لأن وقع الرؤية يختلف كلياً عن النقل والإخبار، وإن الحديث عن الانفجارات شيء ورؤيتها بالعين المجرّدة شيء آخر، بل الكتابة نفسها لا تقارن بالمعايشة مهما كانت درجة الإبداع والاجتهاد.

وما حدث لاحقاً في الكرّادة، على أي حال، لا يمكن تجاوزه والقفز فوقه، فقد أُعلن الحداد وطغى السواد، أقيمت المآتم والعزاءات وامتلأت البيوت والشوارع بأصوات القرآن، احتشد الناس من كل حدب وصوب، كانوا مفجوعين ومتهسترين، متعبين ومكدودين، وغاضبين، وكانوا يبحثون عن أي جهة أو شخص ليصبوا جام غضبهم عليه. لذلك حين شكّل رجال الشرطة والجيش طوقاً حول محيط الانفجار، واقفلوا الطرق وملأوا المنطقة بالآليات العسكرية، ازداد امتعاض الناس واذكى فيهم جنونهم، وراحوا ينادون فيهم ويصرخون؛ «أين كنتم بالأمس حين حدث ما حدث؟» و«أين كانت خططكم الأمنية وتدبيراتكم؟».

لا ندري حقاً عمّا يجب الحديث عنه.

لم يبقَ الكثير.

لم يشغل علي باله بالوضع المرتبك الذي شهدته المدينة بعد الانفجار، ولأن صخب الكرّادة تركه في موقف لا يستطيع معه أن يفعل شيئاً، حتى التعازي والحضور والتشييع وإجراءات الـ DNA والطب العدلي والثلاجات والنقل والتغسيل والدفن لم تكن تعنيه. و لم تكن تبدو عليه أمارات التأثر والاضطراب، بل العكس، فقد وقف طيلة أيام الفاتحة متزناً صامتاً يستقبل المعزين ويمسيهم بالخير ويودعهم. وعلى العموم، كان بإمكانه أن يعلق على صعوبة الحالة التي هو فيها، أو أن يمتعض من مآتم العزاء أو أن يشتكي من عدم وجود وقت خاص ليحزن أو ينتحب أو يفعل أي شيء ليظهر حزنه أو أن يتظاهر به، كما يفعل الناس عادة في أثناء مدّة الحداد، لكن لا، ليس علي. فقد فضّل الكبت سبيلاً على أن يظهر حزنه، لم يشاهده أحد يتكلم أو ينطق حرف إلا في حالة اضطراره لذلك، أزداد هزالاً يوماً بعد يوم، ذبل وجهه وأصفّر لونه، لم يعد يرتاد البيت لا في النهار ولا في الليل، كان يقضي الوقت هائماً في الطرقات إلى أن يعود حيث مستقرّه، إلى جن - سونك، هناك بجانبه يجلس قرب البناية المحترقة، في نفس المكان الذي جلسا فيه وقت الانفجار، يجلسان ويتفرجان، دون أن يحدث أحدهما الآخر بجملة أو كلمة واحدة.

وبعد..

لا شيء حتمي.. لا شيء مؤكد.. الشيء الوحيد الذي نستطيع توكيده أن علي سيتصل بإيميلي بعد أسبوعين من الآن، ولن ترد، وسيعاود الاتصال بها مرّتين وثلاث وأربع مرات دون أن تردّ عليه،

وسيقلقه ذلك ويخيفه كثيراً، وسيتمكن وقتئذٍ من الوصول إلى نيكولا، وسينقل نيكولا له خبراً شنيعاً مع الكثير من الملاغزة والإيحاء. إلا أن علياً سيفهم ما بين السطور. وسيدرك أن إيميلي قد فارقت الحياة دون وداع، وقد دهستها شاحنة بضائع في أثناء جلوسها في مطعمها المعتاد في يوم الباستيل.

أغلق الهاتف، فما زالت به حاجة إلى دقائق أخرى ليستوعب الخبر ويهضمه. ومن ثم في غضون لحظات، تغيرت ملامح وجهه وزمّ شفتيه؛ ارتعش، ابتسم، ضحك، ومن ثم قهقه كالمجنون عالياً. وبقي على هذه الحالة يتخبط في الشارع ويصرخ: «الآن فهمت.. الآن فهمت».

ركض نحو مكان الانفجار، أو لم يكن يركض، كان يمشي المشي العادي مع إيقاع سريع وخطوات متباعدة. إذ يبدو أن علياً قد أدرك ما لم يدركه من قبل، واستوعب أخيراً ماهيّة الظاهرة، وسببية التناقل الجبارة بين الجنسيات والشعوب، بل قد فهم العلّة والمغزى من أريك وياي وبروجييه وعلي معن وجن - سونك وهلمّ جراً. كل شيء وضعه، كأحجية «الجيكساو»، في مكانه الصحيح، استغرب أن يكون الجواب أمام عينيه طوال الوقت دون أن يتمكن من اكتشافه.

حمل فكرته المكتملة معه إلى الشارع، وبهذه الحالة جلس القرفصاء في مكانه. قال بينه وبين نفسه: «أين جن - سونك الآن؟ أين ذهب؟ لا بدّ إنه سيظهر، أو أن يكون على وشك المجيء في أي وقت».

جلس قبالة المجمع المحترق وانتظر على الرصيف، ما زال هناك أناس جالسون يرتلون القرآن وآخرون يضعون الشموع. إلا أن

جن – سونك لم يظهر بعد! ربما سيأتي خلال ساعة. ربما. وربما لا يأتي، خطرت في بال علي فكرة عجيبة أن يكون قد تناقل جن – سونك ثانيةً واستيقظ في عالم آخر وحياة أخرى وعذاب ومآسي أخريات!

ومع ذلك، ما زال الأمل معقوداً، ويمكن أن يتصل الآن، أو يمكن أن يكون قد تعذر عليه المجيء لأسباب يبينها له لاحقاً، أو ربما هو مسبقاً موجود في المجمع، في الداخل، يضع الشموع أو يبحث بين الركام.

دخل البناية يبحث عنه، ولكن لم يجده هناك أيضاً.

**من 10/7/2016 إلى 9/12/2017**

**«تمت»**

